التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

الإسلام وأهل الذمة

تأليف
الدكتور علي حسني الخربوطلي

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب
التاسع والاربعون
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه هى أول دراسة علمية منهجية باللغة العربية عن (الاسلام وأهل الذمة) ، وقد رجعنا فيها الى جميع المصادر العربية ، القديمة والحديثة ، فضلا عن المصادر الافرنجية .

وهذا الكتاب يتحدث عن أحكام أهل الذمة فى الاسلام ، ويدرس أحوال أهل الذمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى الدول الاسلامية على مر العصور التاريخية ، وقد أثبتنا بالأدلة ، التاريخية ، وباعترافات المستشرقين ، أن أهل الذمة قد نعموا طوال العصر الاسلامى بالحرية والاخاء والمساواة ، وعاشوا دائما فى ظل التسامح الاسلامى .

وقد قسمنا الكتاب الى ١٥ فصلا . تحدثنا فى الفصل الأول عن اليهود والمسيحيين فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وشهدنا الصراع الدائم الذى نشب بين الطائفتين حول السيادة فى الجزيرة العربية ، ورأينا عدم اقبال العرب على اعتناق هاتين الديانتين ، حتى أصبح العرب فى حاجة ماسة لظهور عقيدة جديدة ، هى الاسلام .

والفصل الثانى بعنوان (الرسول والمسيحيون) وشهدنا معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم المتسامحة للمسيحيين ، ودرسنا ظروف هجرة المسلمين الى الحبشة المسيحية ، ثم درسنا العلاقات بين الدول الاسلامية فى عهد الرسول والدولة الرومانية ، ورسالتى النبى عليه الصلاة والسلام الى كل من هرقل امبراطور الروم والمقوقس زعيم القبط بمصر ، وموقف كل منهما من الدعوة الى الاسلام .

وفى الفصل الثالث تحـدثنا عن (الرسـول واليهود) ، فقد كان اليهود يبشرون بظهور نبى جديد ويتوعدون به الوثنيين ، حتى اذا ظهر الاسلام ونزل الوحى على الرسـول الكريم ، تنكر اليهود للرسـول والمسلمين ووقفوا منهم موقفا عدائيا . وحاول الرسول بعد هجرته الى المدينة جذب اليهود الى الاسـلام ، وأكرمهم وعاملهم معاملة متسامحة ، ولكنهم أصروا على عدائهم وتعصبهم ، مما أدى الى الصراع بين المسلمين واليهود .

ودرسنا فى الفصل الرابع (أحكام أهل الذمة فى الاسلام) ، فعرفنا بأهل الذمة ، وذكرنا حقوقهم وواجباتهم ، وفصلنا الحديث عن الجزية ، وأسباب فرضها ومقدارها وطريقة موعد جباتها وأصول الاعفاء منها . كما ناقشنا مدى اعتبار المجوس من أهل الذمة . ثم تحدثنا عن ملابس وأزياء أهل الذمة فى المجتمع الاسلامى ومدى تطبيق هذه القواعد . ثم ذكرنا القواعد الفقهية لكثير من مسائل أهل الذمة ، كالزواج والقضاء والارتداد والمواريث والتجارة .

والفصل الخامس بعنوان (أهل الذمة فى ظل التسامح الاسلامى) ، تحدثنا فيه عن المبادىء الانسانية فى الاسلام ، وما حث عليه من تسامح مع أهل الكتاب ، وشهدنا صورا كثيرةمن تسامح المسلمينمع أهل الذمة، مما أثر فى ترحيبهم بالفتوحات الاسـلامية ، ثم ذكـرنا اعترافات معظم المستشرقين بتسامح المسلمين .

ويدرس الفصل السادس أحـوال أهل الذمة فى مجتمع صـدر الاسلام ، فشهدنا اقبـال أهل الذمة على اعتناق الاسـلام وتعلم اللغة العربية والتحضر بالحضارة الاسلامية ، مما أدى الى مشاركة أهل الذمة فى جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ويتحدث الفصل السابع عن أهل الذمة فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، فيبدأ بدراسة أحوال أهل الذمة فى عهد عمر وعثمان وعلى ، ثم أحوالهم فى العصر الأموى ، ويتحدث عن تولية أهل الذمة المناصب

الحكومية ، ثم يدرس الجزية والخراج فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، ويصور ما تمتع أهل الذمة به من حرية دينية وقيامهم ببناء الكنائس والمعابد .

ويدرس الفصل الثامن أحوال أهل الذمة فى العصرين العباسى والعثمانى ، فيبين تسامح الخلفاء العباسيين مع أهل الذمة ، حتى أصبحوا يتولون كثيرا من المناصب الكبرى ، مما شجعهم على الاقبال على اعتناق الاسلام . كما يتحدث عن المجوس فى العصر العباسى وتحولهم الى الاسلام . ثم يدرس هذا الفصل أحوال المسيحيين فى العصر العثمانى ومشاركتهم فى حياة المجتمع الاسلامى .

آما الفصل التاسع فهو يدرس أحوال أهل الذمة فى مصر الاسلامية، منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى ، فيتحدث عن موقف الأقباط المصريين من الفتح الاسلامى ، وتسامح العرب مع الأقباط ، وينفى أسطورة حريق مكتبة الاسكندرية . ثم يدرس اقبال أهل الذمة على اعتناق الاسلام وتعلم اللغة العربية . ثم يدرس الفصل أحوال أهل الذمة فى مصر على مر العصور الاسلامية ، فى عصر الولاة ، وفى العصور الطولونية والأخشيدية والفاطمية والأيوبية والمملوكية .

ويدرس الفصل العاشر حياة أهل الذمة فى بلاد الأندلس وجزيرة صقلية ، فشهدنا كثيرا من صور تسامح المسلمين مع أهل الذمة بالأندلس، والحرية الدينية والاجتماعية التى تمتع بها غير المسلمين فى المجتمع الأندلسى ، كما يدرس الفصل أحوال المسيحيين فى جزيرة صقلية فى العصر الاسلامى .

والفصل الحادى عشر بعنوان (الحروب الصليبية ليست حروبا دينية) ، فقد أثبتت الأبحاث التاريخية الحديثة أن هذه الحروب ليست حروبا بين المسلمين والمسيحيين ، وأن الدين كان ستارا اختفت خلفه الأغراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية للصليبيين ، فقد كانت هذه الحروب هى الحلقة الأولى فى سلسلة الأطماع الأوروبية فى الشرق

العربى . وذكرنا فى هذا الفصل صورا كثيرة لفظائع ومظاهر تعصب الصليبيين ، وهى مستمدة من كتابات المؤرخين الأوربيين المسيحيين ، ثم أوضحنا مظاهر تسامح المسلمين مع الصليبيين ، وكيف اعترف بذلك المفكرون الغربيون ، ثم تحدثنا عن اقبال بعض الصليبيين على اعتناق الاسلام والتحضر بالحضارة الاسلامية ..

ويدرس الفصل الثانى عشر أحوال (اليهود فى الدول الاسلامية) فيبدأ بالمقارنة بين التسامح الاسلامى والعصبية اليهودية ، ثم يقارن بين أحوال اليهود فى الدول الاسلامية وأحوالهم فى الدولتين الفارسية والرومانية . كما يرسم صورا كثيرة لحياة اليهود فى المجتمع الاسلامى حيث ينعمون بالتسامح والحرية ، وتحدثنا عن أحوالهم فى بلاد الأندلس وفى مصر الاسلامية ، ثم قارنا بين أحوال يهود مصر وأحوال يهود أوروبا .

أما الفصل الثالث عشر فيتحدث عن اليهود فى فلسطين فى العصر الاسلامى ، فيبين كيف كانت فلسطين دائما جزءا من العالم الاسلامى والوطن العربى ، ثم يتحدث عن موقف العرب المسلمين من اليهود فى فلسطين قبل القرن الثامن عشر الميلادى ، ويدرس أحوال اليهود فى فلسطين فى العصر العثمانى .

ويدرس الفصل الرابع عشر أحوال العرب والمسلمين فى اسرائيل ، فقد شهدنا فى الفصول الماضية صورا ناصعة البياض تثبت تسامح المسلمين مع المسيحيين واليهود على السواء ، فى جميع الدول الاسلامية ويدرس هذا الفصل الأحوال السيئة التى يعيش فيها الآن العرب والمسلمون فى اسرائيل ،حتى يستطيع القارىء أن يرى الفارق الكبير بين الحالتين والمعاملتين .

والفصل الخامس عشر ، والأخير ، بعنوان (حضارة العرب أرقى من حضارة اليهود) ، فيبين أنه لم يكن لليهود تراث حضارى ، ويصور عقلية اليهود ، وثقافتهم المحدودة ، ويناقش مدى نجاحهم فى النواحى

الاقتصادية ، ثم يقارن بين الثقافة العـربية والثقـافة العبرية ، وينتهى الفصل بدراسة الحضارة والثقافة فى اسرائيل .

وبعد ، فهذه صفحات مجيدة ، تشرف كل مسلم ، وكل عـربى ، وتبرز تسامح الاسلام والمسلمين مع أهل الذمة ، وتوضح جوانب حياة آهل الذمة على مر العصور الاسلامية . ونرجو أن يكون التوفيق قـد حالفنـا فى هذه الدراسة الجـديدة ، والله سـبحانه وتعالى دائما ولى التوفيق .

دكتور على حسنى الخربوطلى
استاذ التاريخ الاسلامى المساعد
بجامعة عين شمس بالقاهرة

الفصل الأول

اليهود والمسيحيون فى الجزيرة العربية قبل الإسلام

اضطهاد الرومان لليهود وهجرتهم الى الجزيرة العربية :

استمر اليهود يحرفون البقية الباقية من العقائد الموسوية ، ويوجهونها الوجهة التى أرادوها لهـا ، وكانت الوسيلة التى اتبعوها للوصول الى هذه النتيجة هى التآويل التى استغلوها فى التزييف والتشويه ، وسموها بطريق « التفسير الرمزى » حيث ادعوا أن الكتاب المقدس لايعنى معناها الحرفى ، بل ما يكمن وراء هذا المعنى من دلالات باطنية لايستطيع الجهال معرفتها الا عن طريقها . وعلى هـذا النحـو استطاعوا أن يقنعوا عامة اليهود بأن ما ردد فى التوراة مثلا من وصايا تأمر بحب الغريب واحترام حقوقه لاتعنى الا الغريب من اليهود ، وأن يوحوا لهم بعاطفة بغض فطرى لكل ماهو غير يهودى .

وكان المنافقون قد وصلوا الى ماأرادوا من تسميم أفكار غيرهم من اليهود وتشويه عقولهم حينما ظهر المسيح الذى كشف عن نفـاقهم فى كثير من آيات الانجيل . ولكن المسيح ومن بعده أتباعه قد دفعوا ثمن كشفهم عن هذا الخداع غاليا ، اذ راح اليهود الذين كانوا منبثين فى أنحاء الأرض يعملون على تشويه سمعة المسيح وأتباعه برميهم بأفظع التهم وتأليب الحكومات والهيئات عليهم . (١)

تكرر الصراع بين اليهود والمسيحيين ، فقام اليهـود بثورة على الرومان سنة ٧٠ بعد الميلاد ، وذبحوا فيها كل من وقع تحت أيديهم من غير اليهود ، ثم انتهت بهزيمتهم وتشتيت شملهم وهدم معبدهم على يد « تيتوس » ولكنهم عادوا بعدها الى جمع شملهم ونصبوا لهم حاخاما

(١) القصاص : الاسرائيليون وروح العدوان ص ٨٩ .

عاما جديدا ، وأعادوا تكوين مجلس حكمهم « السانهدرين » ومجمعهم العلمى ، ووثقوا الروابط بينهم وبين جالياتهم المنبثة فى أنحاء الأرض ، ونظموا جمع الضرائب من أفرادها ، وقاموا بمحاولة أخرى سنة ١١٥ فى عهد الحاخام « أكيبا » يسمونه « أبا السنة التلمودية » ، وفيها ذبحوا مائتى ألف من المسيحيين فى ليبيا وحدها ، ومائتين وأربعين ألفا فى قبرص مابين مسيحيين ووثنيين . وفى سنة ١٣٤ قاموا بمحاولة أخرى كانت من أشنع المحاولات التى قاموا بها اذ اغتالوا فيها مئات الآلاف من غير اليهود بقسوة معدومة النظير ولكنها أيضا باءت بالاخفاق ، وبعد ذلك تتابعت ثوراتهم وتتابع معها اخفاقهم وتبدد شملهم .

أخذ يهود فلسطين يذوبون شيئا فشيئا فاندمج بعضهم فى الحضارتين اليونانية والرومانية ، وقد تخلوا على الأقل عن تحجرهم الفكرى ، بيد أن فريقا منهم استبقى ايمانه بالديانة اليهودية كرمز للكيان اليهودى فلم يستسغ التفريط فى أحدهما ، فكان لايفتأ يثور على الاحتلال الأجنبى ، وكان قيام الثورات المسلحة ضد الحضارة الهلينية أكبر دليل على جمود الفكر اليهودى . وما لبثت ثورات اليهود أن استنفدت صبر الامبراطورية الرومانية فدمرت أورشليم سنة ٧٠ بعد الميلاد وذبحت عددا كبيرا ، وبيعت النساء والأطفال فى أسواق الرقيق ، وتمكن البعض من الفرار ، فخرجوا الى الأقطار المجاورة ، وكانت الجزيرة العربية مقصد عدد كبير منهم .

اليهود فى الجزيرة العربية قبل الاسلام :

تناثرت الجماعات اليهودية فى أنحاء المعمورة حاملة معها تفكيرها البدائى الذى يذهب الى أن بنى اسرائيل خير الأمم لأنهم شعب (يهوه) وأن أرض اسرائيل أحسن البلاد لأنها موطن يهوه .

توارث اليهود هذا التفكير فأوجد فيهم الغرور والتخريب والانزواء وكان الزمن كفيلا بحل هذه العقدة النفسية واعادتهم الى حظيرة الانسجام البشرى لولا أن تولى مقاليد المسيحية أناس لم يتشبعوا بجوهرها

الخالد (المحبة) وما تعنيه من تسامح ، وانتشر التفكير الذى لم يكن من المسيحية فى شىء وهو الانتقام من القوم الذين أنكروا المسيح واضطهدوه ، ونما عداء متبادل بين اليهود والنصارى وتغلغل فى القلوب وعم معظم أرجاء العالم ، اليهود يؤمنون أنهم مضطهدون مكروهون محسودون ، ولاخلاص لهم الا بالتمسك بدينهم كما أوجدوه ، وربهم كما تصوروه ، وهيكلهم الذى يجب أن يعبدوه ، وغير اليهود يرونهم قوما مغرورين منبوذين مجردين من الانسانية .

كان نصيب الجزيرة العربية من اليهود النازحين عن فلسطين بعد اضطهاد الرومان لهم كبيرا ، فقد كان من هاجر من بنى اسرائيل الى جزيرة العرب فى العهود الأولى التى قاربت عهد موسى لايزالون واقعين تحت تأثير بيئتها ، لذلك ما كادوا يشعرون بنتائج المسئوليات والتبعات حتى فضلوا عيشة بلاد عرفوها واختبروا لقاءها وعرفوا رحابة صدرها فتسرب عدد منهم اليها .

وأصبحت الجزيرة العربية بعد ذلك مهبطا مرغوبا لليهود يسارعون الى الهجرة اليها كلما شعروا بخطر يهددهم فينزلون فى رحاب اخوانهم الذين سبقوهم اليها آمنين شر أعدائهم وقد فصلت بينهم مفاوز الصحراء (١)

اليهودية فى اليمن :

انتشرت اليهودية فى اليمن فى عهد الدولة الحميرية الثانية ، وكان ذلك نتيجة لغزو فلسطين وتحطيم بيت المقدس على يد (قيطس) فى سنة ٧٠ م . واذا حكمنا من واقع الأسماء التى وصلت الينا نستطيع أن نقرر أن معظم اليهود فى بلاد العرب كانوا من الآراميين والعرب المتهودين لا من سلالة ابراهيم . (٢)

كان أول من اعتنق اليهودية من ملوك الدولة الحميرية باليمن هو

---

(١) برانق والمحجوب : محمد واليهود ص١٩ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٧٤ .

أسعد بن كرب (٣٨٥ — ٤٢٠ م) وتروى المصادر العربية القديمة أنه غزا أذربيجان وهزم ملك الفرس كما هزم سمرقند وقتله ودخلت جيوشه بلاد الصين ، وعادت محملة بالغنائم . كما حاصرت جيوشه روما ، وأدت له القسطنطينية الجزية . كذلك تذهب الروايات العربية الى أن أسعد هذا غزا يثرب وكسا الكعبة وأنه كان أول من تهود من العرب (١)

وتروى الروايات العربية قصة اعتناق أسعد بن كرب اليهودية ، فتروى أن أسعد حين قفل من الشرق الى اليمن مر بالمدينة ، وكان قد خلف هناك ابنا له ، فقتل غيلة ، فلما علم بذلك قرر الانتقام بضربها واستئصال أهلها ، وأخذ فى محاربتهم ، وبينما هو فى قتالهم اذ جاءه حبران من قريظة فتكلما معه ، وأعجب بهما ورأى أن لهما علما فترك المدينة وانصرف عنها وعاد الى اليمن مصطحبا معه الحبرين ، ودعا قومه الى اعتناق اليهودية كما اعتنقها هو (٢)

المسيحية فى الجزيرة العربية قبل الاسلام :

نجت بلاد الحجاز ونجد من الغزو والاستعمار الأجنبى ، فلم تكن لهذه البلاد خيرات أو مميزات تجذب الفاتح وتشجعه على تحمل وعورة السطح وقسوة المناخ ، بل ان هذه البلاد لاتجود حتى لسكانها مايمكنهم من حياة رغيدة .

تحدث المؤرخ (واشنجتون أرفنج) (٣) عن مدى تعرض الجزيرة العربية للغزو فقال : ربما تدلنا دراسة أخلاق وطبائع العرب على الأسباب التى جعلت أحوال العرب ثابتة على مر الزمن . فقد كان وضعهم الجغرافى وصحاريهم القاحلة الواسعة تحميهم من الغزو ، كما أدى نزاعهم وصراعهم المستمر ورغبتهم فى الاستقلال الدينى والسياسى الى أن صاروا بعيدين عن الغزو والاستعمار .

---

(١) ابن هشام : كتاب التيجان فى ملوك حمير ص ٢٩٤ وما بعدها .
(٢) التيجان ص ٩٥ ؛ الطبرى حـ ٢ ص ٩٤ وما بعدها .
(٣) أرفنج : حياة محمد ص ١٩ (من ترجمة مؤلف هذا الكتاب) .

كانت كل من الدولتين الفارسية والرومانية تتمنى لو أنها نجحت فى بسط سلطانها على اقليم الحجاز ، فقد كانت الدولتان قبل ظهور الاسلام تتنافسان على مناطق النفوذ ، ولكن وعورة الطرق الموصلة الى الحجاز ، وطول خطوط الامدادات والتموين ، وجدب الصحراء ، وعدم وجود جيش عربى مركزى توجه اليه الدولة الفارسية أو الدولة الرومانية جيوشها وجهودها ، أدى الى بقاء الحجاز فى أيدى أصحابه من العرب بعيدا عن السيطرة الأجنبية .

حتى اذا لمس الفرس والروم عجزهم عن بسط نفوذهم السياسى على بلاد الحجاز ، اتجهوا الى بلاد اليمن ، حيث كانت تحكمها الدولة الحميرية العربية . وأخذ الرومان ينشرون المسيحية كتمهيد لبسط السيادة الرومانية وأدرك الفرس حقيقة أهداف الرومان فعملوا على الوقوف فى وجه السياسة الرومانية وأخذوا يعرقلون التجارة الرومانية فى الخليج الفارسى .

بدأت المسيحية تجد طريقها الى اليمن عن طريق الشام وقد أخذت البعثات السورية الفارة من الاضطهاد تدخل اليمن فى أوقات غير معروفة لنا ، ولكن أول سفارة مسيحية الى جنوب بلاد العرب وصلت الينا أخبارها هى تلك التى أرسلها الامبراطور (كونستاسيوس) فى سنة ٣٥٦ بزعامة (تيوفيلوس أندوين آلاريوس) . وكان الباعث الحقيقى لارسال هذه البعثة ، ظروف السياسة الدولية فى تلك الفترة نتيجة للتنافس بين امبراطوريتى الفرس والروم فى سبيل الحصول على مناطق نفوذ فى جنوب بلاد العرب ، وكانت لهذه البلاد أهمية اقتصادية كبرى ، فقد كانت تنتج كميات كبيرة من البخور والتوابل والأعشاب الطبية ، كما كانت تقع على طرق التجارة الرئيسية فى العالم القديم . ونجح توفيلوس فى انشاء كنيسة فى عدن وكنيستين أخريين فى مملكة الحميريين . وقد اعتنقت نجران الدين الجديد حوالى سنة ٥٠٠ ميلادية. وأصبحت أهم معقل للمسيحية فى جنوب شبه الجزيرة العربية .

أدى التنافس فى بلاد العرب الجنوبية بين معتنقى الدينين الجديدين

الى العداء والصراع . وتسابق اليهود والنصارى فى اليمن لتهويدأوتنصير أهل اليمن الذين ظلوا على دين آبائهم وأجدادهم من عبادة الأصنام ، وحاول كل فريق أن يتغلب على منافسه ويسحقه من غير رحمة ولا شفقة. فوقع بين أتباع الديانتين صراع مؤلم سالت فيه الدماء . وكانت (اللاسامية) فى جملة العوامل التى زادت فى شدتها ، ولا شك اذ سارت الحكومة البيزنطية بعد تنصرها على السياسة القديمة فى مقاومة اليهود باضطهادهم والضغط عليهم . وهذا مما حملهم على توجيه أنظارهم الى خصوم الروم وأعدائهم من الفرس (١) .

وكان الفرس على الغالب باستثناء فترات من الزمن متساهلين مع اليهود ، كما كان من مصلحتهم تأييد كل جبهة معادية للروم ، واليهود كانت جبهة من هذه الجبهات .

صراع اليهود والنصارى حول السيادة فى اليمن :

أحرز اليهود انتصارات كبيرة على النصرانية فى اليمن ، حين اعتنق ملك حميرى اليهودية وبدأ اضطهاده العنيف للمسيحيين ، وتعصب لليهود فأفرط فى التعصب ، فقد حنق لما كان يلاقيه اخوانه اليهود من اضطهاد فى الدولة الرومانية البيزنطية ، وطفق يسوم نصارى مملكته سوء العذاب . (٢)

هاجم الملك الحميرى معقل الجالية المسيحية ، وخير أهلها بين الارتداد عن المسيحية أو القتل ، فاختاروا الاستشهاد من أجل عقيدتهم ، فقتلهم حرقا فى الخنادق . وصور القرآن الكريم هذه الحادثة فى هذه الآيات الكريمة (٣) : (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود .. اذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) . ويعلل المؤرخ العربى المسيحى المعاصر الدكتور فيليب حتى (٤) هذه الواقعة بأن الملك

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام حـ ٣ ص ١٨١ .
(٢) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٤٥ .
(٣) سورة البروج ٨٥ آيات ٤ — ٥ .
(٤) حتى : تاريخ العرب ص ٧٥ .

الحميرى كان يمثل الروح القومية ، فكان يرى فى مواطنيه المسيحيين ما يذكره بحكم الحبشة المسيحية البغيض .

غضب (جستنيان) امبراطور الدولة البيزنطية لما لحق بمسيحيى نجران ، باعتباره حاميا للمسيحيين فى كل مكان ، وطلب من نجاشى الحبشة المسيحى غزو هذه البلاد وانقاذ المسيحيين . وكان جستنيان يرمى من وراء ذلك الى غرضين : أحدهما سياسى ، وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقا لتجارته الى الشرق اذا وقعت فى يد حلفائه الأحباش ، ليقضى على تجارة منافسيه الفرس ، والآخر دينى ، وهو جعل السيادة للدين المسيحى هناك (١) .

كانت الحبشة حينئذ فى ذروة مجدها ، تجرى بأمرها على البحار تجارة واسعة ، ويمخر لها العباب أسطول يجعلها تتسلط بنفوذها على ماحاذاها من البلاد ، وكانت حليفة الامبراطورية البيزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر ، كما كانت بيزنطة رافعة علمها على البحر المتوسط (٢) .

تظاهر الأحباش بأنهم قدموا للانتقام مما حل بالمسيحيين فى نجران ، ولكنهم كانوا يتخذون هذه الحجة ستارا يخفون وراءه أغراضهم الاستعمارية . أرسل النجاشى الى اليمن عبر البحر الأحمر ، جيشا يتألف من سبعين ألف رجل بقيادة (أرياط) . وانتصر الأحباش على الحميريين سنة ٥٢٣ م .

أصبح أرياط حاكما على بلاد اليمن ، وظل يتولى أمور هذه البلاد حتى أخذ عليه قواده انحيازه الى فريق منهم فى توزيع العطاء والغنائم ، فاجتمعوا بقيادة أبرهة وقضوا عليه ، وبذلك خلا الجو لأبرهة ، فولى الحكم فى اليمن بدلا من أرياط . (٣)

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ١ ص ٢٩ .
(٢) هيكل : حياة محمد ص ٣٦ .
(٣) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٤١ .

أقام الأحباش فى اليمن كفاتحين ، وانقلبوا كمستعمرين ، وظلوا من سنة ٥٢٥ الى ٥٧٥ م يهيمنون على بلاد اليمن واستثمروا مواردها الاقتصادية لمصلحتهم .

محاولات الأحباش لنشر المسيحية فى الجزيرة العربية :

اتخذ أبرهة من صنعاء عاصمة للمستعمرة الحبشية الجديدة فى بلاد اليمن ، وبنى فيها واحدة من أعظم كاتدرائيات العالم فخامة وروعة وهى التى يسميها كتاب العرب (القليس) ، وهى مشتقة من الكلمة اليونانية (اكليزيا Ckkleisia) ومعناها كنيسة . وقد أراد الأحباش أن تكون هذه الكنيسة الكبرى نواة لدولة مسيحية كبرى فى بلاد اليمن ، ثم تمد هذه الدولة نفوذها فيما بعد على أرجاء شبه الجزيرة العربية ، فيصلون بذلك بين دولة الأحباش والدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) التى تمتد الى مشارف الجزيرة العربية حيث تقوم امارة الغساسنة .

تميزت كنيسة صنعاء بالضخامة والفخامة ، ويرى الدكتور (حتى)(٢) أن الأحباش المسيحيين كانوا ينوون تنصير البلاد ، وخلق منافس لمكة الوثنية التى كانت مركز الحج فى الشمال لأن الحج كان مورد دخل عظيم لأولئك الذين يسكنون فى تلك المدينة ، التى كان يسافر اليها الحجاج ، أو على مقربة من الطرق التى كانت تؤدى اليها . وقد نجح الأحباش بتأسيس ذلك المعبد الدينى فى الجنوب فى اجتذاب الجماهير ، وأصبح التنافس الاقتصادى عظيما . ويذكر الأستاذ الدكتور طه حسين (٢) أن أبرهة رغم أنه بذل جهدا كبيرا فى ترغيب الناس فى أن يتخذوا من كنيسته بصنعاء كعبة لهم ، الا أن العرب كانوا أهل وثنية ولجاج فى الوثنية ، فكانوا يكبرون من أمر أبرهة ويعظمون سلطانه ويبتغون عنده المعروف ، ولكنهم كانوا يكرهون دينه وتأبى نفوسهم الاستجابة له ، وكان الذين يختلفون الى كنيسته قليلين مهما كثروا .

---

(١) تاريخ العرب ص ٧٦ .
(٢) على هامش السيرة ص ١٤١ .

سميت هذه الكنيسة (القليس) لارتفاع بنائها وعلوها ، وقد استذل أبرهة أهل اليمن فى بنيان هذه الكنيسة ، وجشمهم فيها ألوانا من السخرة ، وكان ينقل اليها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ومن شدته على العمال كان العامل اذا طلعت عليه الشمس قبل أن يبدأ عمله قطعت يده .

كتب أبرهة الى النجاشى أنه يريد أن يصرف حجاج العرب الى كنيسته ، ويحول تجارة قريش الى صنعاء ، وجاء فى رسالته : « بنيت لك بصنعاء بيتا لم تبن العرب ولا العجم مثله ، ولن أنتهى حتى أصرف حاج العرب اليه ويتركوا الحج الى بيتهم » .

أثار مشروع أبرهة حفيظة العرب ، فخرج رجل من بنى مالك بن كنانة حتى قدم اليمن ، ودخل الكنيسة وعبث بأثاثها وانتهك حرمتها . وغضب أبرهة لذلك أشد الغضب ، وأقسم ليهدمن الكعبة وليحملن العرب على أن يحجوا الى كنيسته بالسيف ، بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين . وتحدث ابن هشام (١) عن أثر قسم أبرهة فى العرب فقال : « وسمعت بذلك العرب ، فأعظموه وقطعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام » .

ولم يكد النهار يتقدم حتى رفعت الأنباء الى أبرهة بأن أهل تهامة قد قتلوا ذلك الرجل الذى أرسله اليهم ملكا ، فزادت ثورته ، وأمر بالاستعداد فى الحال للقتال والرحيل الى مكة ، وبعث برسالة الى النجاشى ينبئه باستعداده للحرب ، ويطلب منه أن يمده بالجنود والفيلة ، واستجاب النجاشى لطلبه ، ونجح أبرهة فى تكوين جيش كثيف العدد وكامل العتاد .

ثم جاءت خاتمة المأساة ، ويروى المؤرخون القدامى أن الله قد أرسل من البحر طيورا أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٤٥ .

والعدس ، لاتصيب أحدا منهم الا هلك (١) ووصف المؤرخ المسعودى (٢) مصير الجيش الحبشى فقال : « فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر مع كل طير ثلاثة أحجار ، فأهلكهم الله عز وجل » .

وخلد القرآن الكريم هذا الحدث التاريخى الكبير ، فى سورة الفيل : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول) . وهلك معظم جند أبرهة ، ونجت القلة القليلة . اما أبرهة فقد مسه حجر فصرع ، وظهر على جسمه بلاء عظيم ، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط حتى مات .

يعتبر المؤرخ (براون) عام الفيل فاتحة عصر جديد فى تاريخ حياة العرب القومية ، ولا شك أن هذه الحادثة التاريخية كانت فاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة حتى أنهم أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم . فقد مهدت السبيل لقبول الدعوة الاسلامية ، اذ لو أتيح للجيش الحبشى الانتصار لتغير وجه التاريخ وانتشرت المسيحية فى بلاد العرب ، وانصرف العرب عن مكة الى صنعاء (٣) .

حدث بعد الهزيمة الماحقة التى نزلت بأبرهة وجيشه أن قامت حركة وطنية فى دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش ، وكان على رأس هذه الحركة سيف بن ذى يزن الحميرى الذى سعى لانقاذ قومه ، فسار الى ملك الحيرة العربى ليتوسط له لدى كسرى أنو شروان ليمده بقوة يستعين بها فى اخراج الأحباش من بلاد اليمن .

وكان العرب المسيحيون فى تلك البلاد يتطلعون الى الحماية والرعاية من الروم ، كما كان اليهود والوثنيون يتطلعون الى الحماية والرعاية . كما كان اليهود والوثنيون من العرب يلوذون بالفرس ويطلبون العون منهم .

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٤٦ .
(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ١٣٨ .
(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ١ ص ٥١ .

فلما استنجد سيف بن ذى يزن بكسرى فارس ، أمده بحملة سنة ٥٧٥م بقيادة وهرز . وقد تغلب هذا القائد على الأحباش فى اليمن ، وأنقذ هذه البلاد من حكمهم البغيض (١) .

قامت على اثر ذلك فى بلاد اليمن حكومة مشتركة ، تقلد سيف ابن ذى يزن فيها ولاية اسمية ، وانتحل (وهرز) وظيفة نائب ملك فى تلك البلاد ، حتى اعتنق (باذان) ، آخر ولاة الفرس على اليمن ، الاسلام ودخل فى طاعة الرسول ، وبذلك أسدل الستار على صراع اليهود والمسيحيين فى اليمن ، أو بعبارة أخرى صراع الفرس والروم .

اليهود فى الحجاز :

كان اليهود قبل ظهور الاسلام قد احتلوا أخصب بقاع الحجاز واستغلوها فى الزراعة والصناعة والتجارة . وقد أدى استعمارهم تلك البقاع واعتزازهم بأنفسهم ودينهم الى كراهة العرب لهم ورغبتهم فى اخراجهم من بلاد الحجاز . ونلحظ ذلك بصفة خاصة فى يثرب حيث كان الأوس والخزرج يبذلون جهدهم للحلول محل اليهود فى أراضيهم الخصبة (٢) .

عاش اليهود فى يثرب وخيبر واليمن وجاور اليهود أهل يثرب ، أما مكة والطائف فلم يكن بها غير الوثنية لبعدها عن موطن اليهود . (٣)

كانت يثرب (المدينة المنورة بعد هجرة الرسول) أكثر مدن الحجاز التى قصدها اليهود ، وكان سكانها الأوائل (العمالقة) ، وما لبثت أن تتابعت موجات هجرات اليهود فتغلبوا على العمالقة واستقروا فى يثرب . وصف أبو الفرج الأصفهانى تغلب اليهود على يثرب فقال : « كان يسكن المدينة فى أول الأمر قبل بنى اسرائيل قوم من الأمم

---

(١) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٨ .
(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١١٤ .
(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٧ .

الماضية يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد وكانوا أهل غزو وبغض شديد » .

ولم تظهر هجرة اليهود الى يثرب بشكل واضح الا فى القرنين الأول والثانى الميلاديين على أثر الحروب التى شنها الرومان ضد اليهود فى فلسطين والتى انتهت بطردهم منها وتشتيتهم فى أرجاء متفرقة ، فهاجر منهم بنو النضير وبنو قريظة الى شمال الجزيرة العربية ، واستقر بهم المقام فى يثرب .

اضطر اليهود الى الاندماج فى الحياة العربية ، ليحافظوا على مصالحهم المادية واقتبسوا بعض نظم العرب الاجتماعية ، فانقسم اليهود مثلما انقسم العرب ، الى قبائل واتخذ معظم اليهود أسماء عربية ، وحاولوا اجادة اللغة العربية ، حتى أنه ظهر بعض الشعراء اليهود مثل السموءل بن عادياء .

كانت لغة اليهود فى بلاد العرب هى اللغة العربية ، ولكنها لم تكن عربية خالصة ، بل كانت مشوبة بالرطانة العبرية ، لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركا تاما . بل كانوا يستعملونها فى صلواتهم ودراساتهم ، فكان من الضرورى أن يدخل فى لغتهم العربية بعض الكلمات العبرية .

كما ساهم اليهود فى الحياة الاقتصادية فى يثرب وسيطروا على معظم الموارد الاقتصادية فاحتكروا التجارة وجابت قوافلهم بلاد العرب طولا وعرضا وامتلكوا ضياعا واسعة واهتموا بزراعتها وزيادة الانتاج الزراعى ، كما برعوا فى الفنون الميكانيكية وصناعة الأسلحة والمصنوعات الذهبية وآلات الزراعة .

لم تهدأ الأحوال للقبائل اليهودية (وأشهرها بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير) فى يثرب ، فقد وفد عليها قبائل عربية يمنية ، قدمت من اليمن بعد خراب سد مأرب وتخريب السيول للاراضى الزراعية ، اذ هاجرت القبائل اليمنية الى مناطق مختلفة ، واستقرت اثنتان منها هما الأوس والخزرج فى يثرب .

خضع اليهود للأمر الواقع ، فهادنوا القبيلتين العربيتين (الأوس والخزرج) ، فسمحوا لهم بالاستقرار والنشاط الاقتصادى ، فى التجارة والزراعة ، ولكن الأوس والخزرج أرادوا ضمانا يضمن لهم حسن معاملة اليهود باستمرار فطلبوا أن يعقدوا معهم تحالفا يبذلون فيه الأمان ويضمنون لهم حسن الجوار ، فتحالفوا وتعاقدوا معهم ، واستطاعوا أن يتفرغوا لنشاطهم الاقتصادى وحازوا ثروات كبيرة . وسرعان ما انقلب اليهود على العرب ، فقد حقدوا عليهم مشاركتهم لهم فى استغلال الموارد الاقتصادية فى يثرب ، وحسدوهم على مانالوا من ثراء ، فأعلنوا نقضهم لما بينهم وبين العرب من تحالف وتعاهد .

بدأ اليهود اضطهادهم للعرب (الأوس والخزرج) ، وكانت قبيلتا قريظة وبنى النضير أكثر القبائل اليهودية عداء للعرب مما اضطر العرب للاستنجاد بأخوتهم فى العروبة وهم العرب الغساسنة المستقرون فى امارة لهم بالشام على أطراف الدولة البيزنطية ، ولبى الغساسنة النداء وهرعوا يقفون الى جانب اخوانهم عرب يثرب فى صراعهم مع اليهود .

كان النصر مضمونا لعرب يثرب على اليهود ، طالما يقفون — أى الأوس والخزرج — معا صفا واحدا أمام عدوهم المشترك . ولكن للأسف ما لبث الشقاق أن دب بين صفوف العرب فانقسموا على أنفسهم وبدأ عداء قبيلة الأوس لقبيلة الخزرج . انتصرت الخزرج على الأوس ، وقصدت الأوس قبيلة قريش تطلب منها أن تعاونها ، ولكن قريشا كانت قبيلة تجارية فحرصت على تركيز جهودها فى الأغراض التجارية فامتنعت عن مساعدة الأوس ، فاضطروا الى محالفة أعداء الأمس ، اليهود ، وتحالفوا مع بنى قريظة وبنى النضير .

ودارت حرب عنيفة تسمى (فجار يثرب) أو (فجار الأوس والخزرج ، انتهت بانتصار الأوس ، ثم اتفق الفريقان على الصلح ، واقامة حكومة مشتركة تنظم العلاقات بين أهل يثرب واختاروا عبد الله بن أبى

سلول ملكا عليهم جميعا . ولكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح ، فقد هاجر الرسول الكريم فى ذلك الوقت . (١)

لماذا لم يقبل العرب على اعتناق اليهودية ؟ :

لم يقبل العرب على اعتناق الديانة اليهودية ، ويرجع ذلك الى عدة أسباب :

أولا : لم يهتم اليهود قديما وحديثا ، بالتبشير بدينهم،فهم يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأن سائر الشعوب غير جديرة بالدخول فيما دخلوا فيه ، ولذا وضعوا العراقيل أمام كل من يريد أن يتهود . ويقول (اسرائيل ولفنسون) (٢) : الذى يقرأ تاريخ اليهود يعلم أن الأمة لم ترغب فى ارغام الأمم على اعتناق دينها ، وكان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظورا على اليهود . وهناك عامل آخر حال دون انتشار اليهودية فى الحجاز ، فاليهودية ، كما نفهمها هى خلاصة القانون التلمودى بعقائده وتقاليده وطقوسه . وهكذا صمم اليهود ، الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد ، على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعتنقها ، الا اذا توافرت فيه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها .

ثانيا : كانت التوراة والتلمود تكلف الانسان تكاليف صعبة ، وتربطه بتقاليد كثيرة لم يألفها فلم يستطع العربى الذى لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة ، وكان من العسير على نفسه أن تقبل التقيد بأغلال لا تحصى من القوانين الثابتة الثقيلة وهى المطبوعة على حب الاستقلال والحرية .

ثالثا : ضايق العرب احتكار اليهود لموارد البلاد الاقتصادية ، وخاصة أن العرب كانوا ينظرون الى هؤلاء اليهود باعتبارهم غرباء دخلاء

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى حـ ٥ ص ٢٩٥ وما بعدها ، والسمهودى : وفاء الوفا حـ ١ ص ١٥٢ وما بعدها .
(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٧ .

نزحوا الى بلادهم العربية فأقاموا فيها بالقوة ، وزاحموهم فى أرزاقهم ، وسيطروا على اقتصاديات الجزيرة العربية يذكر (هاريمان) أن اليهود تمكنوا بما كان لهم من مال ، وخبرة فى جمعـه ، وفى أعمال الصـيرفة والاحتكار واكثار المال من تولى الوظائف المالية فى حكومة حمير ، ومن تنظيم ميزانيتها ، وبذلك سيطروا على المواضع الحساسة فى جسم الدولة وعلى الملوك حتى ادخلوا فى نفوسهم بغض دياناتهم القديمة وحب ديانـة اليهـود .

رابعا : كان العرب ، وخاصة فى اليمن ، ينظرون الى اليهود على أنهم عملاء للنفوذ الفارسى الأجنبى . فقد اعتمد الفرس على اليهـود كعمـلاء لهم . ولذا اعتبر بعض العرب انتشار اليهـودية يعنى اتساع النفـوذ الفارسى فى بلاد العرب .

خامسا : كان اليهود لا يتصفون بصفات طيبة تجعل العرب يعجبون بأشخاصهم فيقبلون على اعتنـاق دينهم ، فقد تكرر نقضـهم للعهود ، وتكررت خياناتهم وغـدرهم الى جانب التجائهم الى أسـاليب ملتوية فى معامـلاتهم المادية والاقتصادية .

الفصل الثانى

الرسول والمسيحيون

حاجة العالم الى الاسلام :

الدين بمعناه اللغوى هو الطاعة والانقياد ، والتدين هو الرضوخ والدينوية لعقيدة ، والدين بمعناه العام هو ناموس أبدى مطلق ، كامنة بذوره فى كل نفس حية واعيـة ، وأساسه وحدة الخالق وخلود النفس والحب ، وتنظيم علاقات الأفـراد بعضـهم ببعض ، والايمـان بالبعث والحساب والثواب والعقاب .

والانسان لايمكنه أن يعيش بدون عقيدة سامية ، فالعقيـدة من مقومات انسانيته وارتفاعه عن مستوى الغرائز الحيوانية ، والحضارة فى كل عصر منبعها الأول الدين ، ولا يمكن أن تقوم نهضة اجتماعية الا على أسس دينيـة .

والاسلام دين يتجه الى العقل ، ويوافق الميول الطبيعية فى الانسان وهو أول دعوة عالمية ، توفر المقومات لتعاون انسـانى عالمى ، وتحقـق الانسجام البشرى ، والاسلام هو صمام الأمن والسلام لحيـاة الانسان الروحية والمادية . ويجد الانسان فى الاسلام من المرونة ومجابهة الواقع ومن الوعى الحقيقى الكامل للطبيعة البشرية ومطالب الحياة ، ما لا يجده فى غيره من الأديان أو النظريات الوضعية .

وأثبت النظام الاسلامى الاجتماعى أنه النظام العالمى الوحيد الثابت .. وفى التعـاليم الاسـلامية نجد أسس عـلاج المشـاكل الاجتماعيـة والاقتصادية والسياسية التى تعانى البشرية . والتعـاليم الاسـلامية ، وحضارتها ونظمها ، تقوم على أساسين رئيسيين ، أساس روحى أو عاطفى وأساس عقلى أو منطقى . وقد جعل الاسلام العقل حـكما فى كل شىء ،

والنظم الاسلامية تستند الى العقل . ويكفل الاسلام للجميع السعادة فى حياتهم ، ويضمن لهم التكافؤ الاجتماعى ، والعدالة الاجتماعية .

تحدث المؤرخ (فاليرى) عما امتاز به الاسلام عن غيره من الاديان مما أدى الى سرعة انتشاره فقال : فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها لبعدها عن مدى الافهام ، على حين كان الاسلام عجيبا فى سهولته صريحا فى فروضه ، وهذا كان سببا فى سرعة انتشاره بين الشعوب التى اضطربت نتيجة ما أصابها من الشك المضنى فى عقائدها الدينية ، وهذا أيضا كان ولا يزال السبب فى انتشاره المتواصل بين الأمم فى آسيا وافريقية لنفوذه الى أرواحهم ، دون الحاجة الى التطويل فى شرحه ، والتلطف فى الدعاية له .

وقال (ليودوروش) : ان الاسلام دين انسانى طبيعى اقتصادى أدبى ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الطبيعية الوضعية الا وجدته مشروعا فيه وبحثت عن تأثير الدين فى نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف . وقال (جان مليا) : الاسلام دين سماوى ، وهو دين حب وعاطفة وشرف ، وأكثر الأديان تساهلا (١) .

كانت أحوال الدولتين الفارسية والرومانية البيزنطية وقت ظهور الاسلام سيئة للغاية .

أما الفرس ، فقد ظهرت دولة الفرس الساسانية سنة ٢٢٦ م على يد أزدشير بن بابك الذى اتخذ المدائن عاصمة له ، وقد عظمت دولته فشملت العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع بلاد العجم ، ومازالوا يتوارثون ملكه حتى تولى كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) وفى أيامه ولد الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد اشتبك مع الرومان فى حروب طويلة انتصر فى نهايتها ، لانشغال خصمه جستنيان فى فتوحاته فى ايطاليا

(١) أنظر كتاب الاسلام والحضارة العربية لكرد على .

وشمال افريقية . وقد استمرت الحرب متقطعة بين الدولتين أيام خليفته هرمز ، ثم كسرى أبرويز الذى اكتسح سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى حتى وصل الى البسفور سنة ٦٠٨ م ، فعجز ملك الروم عن صده فخلعه الاهالى واستدعوا هرقل حاكم افريقية وولوه مكانه . ورغم حنكته استمرت انتصارات أبرويز الساحقة ، فاحتل دمشق سنة ٦١٣ م والقدس سنة ٦١٤ م واحتل مصر سنة ٦١٦ م ووصل ثانية قرب القسطنطينية سنة ٦٧١ م ، فاضطر هرقل الى طلب الصلح فرفض ابرويز ، وأثار هرقل حماسة رجال الدين فآزروه بأموال الكنيسة ، فجهز جيشا كثيفا صد الفرس واسترد ما فقده . وأدت هزائم الفرس الى ثورة شيرويه على أبيه أبرويز ثم اغتاله وعقد الصلح مع هرقل . وسادت الفوضى الدولة الفارسية ، نتيجة ضعفها وحروبها المستمرة مع الروم ، لاختلافهم فى الدين وحاجة الفرس الى ميناء على ساحل البحر المتوسط ، ومن جراء النزاع على الملك ، وبسبب ظهور البدع الدينية الهدامة مثل المانوية والمزدكية الاباحية التى أدت الى تدهور الاحوال الاجتماعية والخلقية

كانت عاصمة الروم القسطنطينية ، وشملت الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) الى جانب أملاكها فى أوروبا : آسيا الصغرى ، وسوريا ، وفلسطين ، ومصر ، وشمال افريقية . ومن أشهر أباطرتهم جستنيان الذى اشتبك مع كسرى أنوشروان ، والذى أمر نجاشى الحبشة بغزو اليمن واسقاط الدولة الحميرية العربية . وقد أصاب الدولة الرومانية بعد موته ضعف شديد ناتج عن كثرة حروبه فى الغرب لاستعادة أملاك الامبراطورية الرومانية ، وكثرة ما أنفقه على المبانى ، فكانت خزانة البلاد خاوية ، وجيشها منهكا .

وتوالى على عرش الروم بعده أباطرة ضعاف اشتد فى أيامهم النزاع على الملك ، وتمردت الجند المرتزقة مما أدى الى انتصار الفرس وظلت الحال كذلك حتى أسند العرش الى هرقل (٦١٠ــ٦٤١ م) فاسترد هيبة الدولة وقهر الفرس ولكن كانت هناك عوامل تؤدى الى استمرار ضعف الدولة . فقد كانت الحروب المستمرة قد أدت الى فراغ الخزانة وتأخر

الزراعة والصناعة ، كما كانت هناك خـلافات دينية حاميـة نشبت بين المذاهب الدينية المختلفة ، وهى مذهب الآريـين ، ومذهب النسـاطرة ، ومذهب اليعاقبة ، ومذهب الملكانيين . وكان مذهب الدولة هو المذهب الملكانى ، واضطهدت الدولة اليعاقبة والنساطرة ، وحاولت اجبارهم على اعتناق المذهب الملكانى مما أدى الى نفور السكان فى مصر والشام من الروم واستعدادهم لمساعدة أى فاتح يخلصهم من هذا الاضطهاد الدينى

لم يقبل العرب فى أرجاء شبه الجزيرة العربية على اعتناق المسيحية رغم أنها دين سماوى أفضل من الوثنية ويرجع هذا الى أن المسـيحية ارتبطت بالنفوذ السياسى الاستعمارى ، الرومانى والحبشى . فقد قضى الأحباش المسيحيون على الدولة العـربية الحمـيرية فى اليمن ، وبنـوا كنيستهم فى صنعاء ، وأرادوا هدم الكعبة وتحويل الحجاج العرب الى كنيسة صنعاء ، كما كان البدوى العربى يميل الى الحـرية الدينية ، الى جانب تمتعه بالحرية السياسية والاجتماعية والمكانية ، ولذا لم يرض عن القيود والأوامر والنواهى التى تفرضها المسيحية .

الرسول والراهب بحيرى :

استعد أبو طالب ، عم الرسول ، للرحيل بقافلته الى بلاد الشـام . وكان محمد قد أصبح فى الثانية عشرة من عمره المبارك ، وتقدم الى عمه يطلب منـه أن يصحبه فى رحلته . وكان قلب أبى طـالب زاخرا بالحب والعطف ، وفكر مليا ، فرأى أن محمدا قد بلغ من العمر ما يسمح له بأن يمارس نواحى النشـاط فى الحياة العربية ، وأن يتمـرن على خـدمات وواجبات القافلة ، ولذا وافق على اصطحابه معه الى الشام وقال : والله لأخرجن به معى ، ولا يفارقنى ، ولا أفارقه أبدا (١) .

وصلت القـافلة الى (بصرى) على حـدود سوريا قرب الأردن ، ويسكنها الآن النساطرة المسيحيون ، وكانت سوقا عظيمة ترتادها القوافل

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٩١ .

وفى هذه المدينة توقفت القافلة ونصبت خيامها قرب دير من أديرة الرهبان النساطرة ..

وقف العالم الراهب (بحيرى) على مقدمة دير يعلو جبل حوران يسرح الطرف فى انتباه الى سهول سوريا الشاسعة المنبسطة نحو جزيرة العرب . وفجأة استرعى نظره قطعة من الغيم بيضاء مستطيلة ، تعترض على خلاف العادة ، زرقة السماء الصافية ، وكان هذا الغيم — الذى يشبه طائرا أبيض هائلا — يحلق فوق قافلة صغيرة تتجه نحو الشمال ، يغمرها بظله الأزرق ، ويسير معها أنى سارت .

تحدث ابن هشام (١) عن بحيرى فقال : « وكان اليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهبا ، اليه بصر علمهم عن كتاب فيها ، يتوارثونه كابرا عن كابر » .

كانت قوافل العرب كثيرا ما تمر بهذا المكان ، فلا يهتم بحيرى بمرورها ، ولا يعرض لهم أو يتكلم معهم ، حتى كان ذلك العام . فلما استقرت قافلة أبى طالب على مقربة من صومعته استلفت نظره شىء جديد. فروى ابن هشام (٢) : « أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى صومعته ، فى الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه . فنظر الى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها » .

غادر بحيرى صومعته ، ثم بعث فى طلب أهل القافلة وقال لهم : انى قد صنعت لكم طعاما يامعشر قريش ، فأنا أحب أن تحضروا كلكم ، صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم . وأبدى رجل من قريش تعجبه ، فقال لبحيرى : والله يابحيرى ان لك لشأنا اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟! فأجاب بحيرى : صدقت ،

(١) المصدر السابق .
(٢) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٩٤ .

قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأضع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

وقبل القرشيون ضيافة بحيرى ، واجتمعوا حول مائدة بحيرى ، وتخلف الرسول صلى الله عليه وسلم عن المشاركة فى الطعام ، ومكث فى رحال القوم تحت الشجرة ، فقد كان حدث السن فلم يشأ أن يشارك شيوخ قريش مجلسهم . وجالت عينى بحيرى بين الجالسين حول مائدته ، فافتقد محمدا الذى استضاف القافلة كلها من أجله ، فقال : يامعشر قريش، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى . فقالوا له : يابحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك الا غلام ، وهو أحدث القوم سنا ، فتخلف فى رحالهم. وأبدى بحيرى غضبه فقال : لاتفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش : واللات والعزى ، ان كان للوم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا . ثم قام هذا الرجل الى محمد ، فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

وتفرس بحيرى بنظره فى محمد ، وأخذ ينظر الى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته . حتى اذا انتهى القرشيون من تناول الطعام وتفرقوا ، قام بحيرى الى الرسول ، وتوجه اليه بالحديث فقال : ياغلام ، أسألك بحق اللات والعزى الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

ويفسر ابن هشام (١) حلف بحيرى باللات والعزى فيقول : « وانما قال له بحيرى ذلك ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما » . وكان محمد منذ حداثته نابذا للاوثان ، مؤمنا بالتوحيد والدين الحنيف ، فقال من فوره لبحيرى : لاتسألنى باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما. فقال له بحيرى : فبالله الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . فقال محمد : سلنى عما بدا لك .

فجعل بحيرى يسأل محمدا عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره ، وأشبع محمد حب استطلاعه ، فأجابه على أسئلته بالصدق

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٩٣ .

والحق، فكان بحيرى يبدى سروره لهذه الاجابات اذ كانت توافق «ماعند بحيرى من صفته» (١) . ونظر بحيرى الى ظهر الرسول فرأى خاتم النبوة بين كتفيه .

حتى اذا انتهى بحيرى من أسئلته وفحصه ، أقبل على أبى طالب ، وقال له : ماهو ابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا . فقال أبو طالب : فانه ابن أخى . فسأله بحيرى : فما فعل أبوه ؟ وأجاب أبو طالب : مات وأمه حبلى به ، فقال بحيرى : صدقت ، فارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به الى بلاده.

تقبل أبو طالب نصائح بحيرى ، فخرج بابن أخيه سريعا حتى قدم مكة بعد أن فرغ من تجارته بالشام ، وتروى بعض المصادر أن أبا طالب بعث بمحمد على عجل مع بعض غلمانه الى مكة ، كما تروى أن الراهب زوده بكعك وزيت هدية ومؤونة للطريق .

ويروى ابن هشام (٢) « أن زريرا وتماما ودريسا ، وهم نفر من أهل الكتاب ، قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رآه بحيرى فى ذلك السفر ، الذى كان فيه مع عمه أبى طالب ، فأرادوه فردهم عنه بحيرى ، وذكرهم الله وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم ان أجمعوا لما أرادوا به ولم يخلصوا اليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ماقال لهم ، وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه » .

المسيحيون والتبشير بنبوة محمد :

لم يخل كتاب من الكتب السماوية قبل مبعث الرسول من التبشير بظهور النبى محمد . وكانت الأخبار مستفيضة فى الأمم ، ولعلها من الأسباب التى دعت اليهود والنصارى الى استيطان أرض الجزيرة العربية ، التى وصفتها الأسفار المنزلة بأنها أرض النبى المنتظر .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٩٤ .

قال المؤرخ الهندي المسلم مولاى محمد على (١) : ذكر القرآن الكريم أن مجيء النبى أخبر بهجميع من سبقه من الأنبياء ، وأنهم قطعوا العهد والميثاق على شعوبهم بقبول دعوته لمجرد ظهوره . وقد أبلغوا أقوامهم أن آية صدق النبى المرتقب شهادته واقراره برسالته من سبقه من الأنبياء . واقتضت ارادة الله أن تكون الرسالات الأولى على يد نبى أرسل لهداية شعب معين ، وقتما كانت شعوب الأرض فى حياة معزولة ، لم تعرف بعد وسائل الاتصال الحديثة ، ولكى يستخلص من الأديان دينا واحدا ، ويجمع العالم فى اخاء عالمى واحد ، بعث الله محمدا رسولا ، وجعل رسالته عامة للبشر كافة .

كان فى مكة راهب مسيحى يدعى (عيص) يترقب مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان يقول : « تدين له العرب ، ويملك العجم ، أرضها وبلادها ، هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ، ومن خالفه أخطأ حاجته ، وان نجمه طلع البارحة » حتى اذا ولد محمد قال الراهب لعبد المطلب جد الرسول : احفظ لسانك فانه لن يحسد حسده، ولن يبغى على أحد كما يبغى عليه ، وان طال عمره لايبلغ السبعين ، يموت فى احدى وستين أو ثلاث وستين .

وروى ابن هشام (٢) أن حليمة السعدية ردت الرسول الى أمه وأخبرتها أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامته، فنظروا اليه ، وسألوها عنه ، وقلبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام، فلنذهبن به الى ملكنا وبلدنا ، فان هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره » . وأسرعت حليمة تهرب بالطفل الصغير العظيم .

جاء فى كتاب (الانجيل والصليب) تأليف الأب عبد الأحد داود الآشورى العراقى ، مطران الموصل فى عهد السلطان عبد الحميد ، فى صفحة ٣٣ فى الباب الثانى : « أن المبشر لوقا يبشر بالاسلام وبأحمد ، فقد جاء فى لوقا أنه ظهر فى الليلة التى ولد فيها المسيح عليه السلام جمهور

(١) محمد رسول الله ص ٣٠ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٧ .

من الجنود السماوية للرعاة الذين كانوا فى البرية يترنمون بهذا النشيد (لوقا ٢ : ١٤) « الحمد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وللناس أحمــد » .

وفى الترجمة العربية لهذه الآية « المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة » . والمؤلف يعلم هذا وقد نقله ، ولكن يقول أن الأصل الصحيح هو ما قاله : اسلام وأحمد .

واستطرد المؤلف المطران عبد الأحد داود فى الفصل الثالث ومابعده (ص ٤٥) الى ترجمة كلمة (ايادوكيا) التى معناها أحمد ، وقد ساعده علمه باللغات السريانية والعبرية واليونانية القديمة .

ومعلوم أن اسم أحمد هــو صفة تفضيل من الحمد ، وهو الذى يقع منــه الحمد أكثر مما يقع من غيره ، واسم محمد صفة مبــالغة من التحميد ، ومعناه الذى يحمده غيره كثيرا . واسم محمود صفة مفعول من الحمد ، والثلاثة من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم .

وجاء فى صفحة ٨٦ من الكتاب نفسه : « يقول يوحنا ١٦ : ٢٩ ان المسيح الى آخر ليلة كان يكلم تلاميــذه بالأمثال ووعد أن البــارقليط المرسل من طرف الله والذى سيأتى بعــده سيفسر ويبين كلامه وانجيله الحقيقى » . وكلمة (بارقليط) أو (فارقليط) يونانية قديمة ومعنــاها المعين ، والمدافع والنصير ، والمواسى .

وبديهى أن المسيح لم ينطق بهذه الألفاظ بنصها لأنها عربية ، وهو كان يتكلم بالعبرية ، أضف الى هــذا أن الألفاظ التى نطق بهــا المسيح ضاعت وكل اعتمادنا على ترجمة يونانيــة للانجيل . وقد ذكرت كلمــة (بارقليط) و (ايفــادوكيا) التى يراد بها اســم فى حين أن الترجمة الحرفية لكلمة براقليط هى كما أسلفنا النصير أو المواسى والثــانية تدل دلالة صراحة على معنى الحمد عن طريقى الحقيقة والمجاز ، ولأن النصير والمواسى يستحق الحمد والثناء .

غير أن الذى يدعم التفسير ويدل على أن المقصود بالباراقليط هو

محمد رسول الله استقراء الصفات التى وردت فى انجيل يوحنا ١٤ : ٦و١٦ فانها تنطبق على صفات النبى العربى ، ويؤيد هذا الرأى أن المسيح كان يخاطب حوارييه بالرموز والأمثال ، فقد جاء فى وصف الباراقليط أنه سيبقى الى الأبد ، وهذا هو المشاهد فى رسالة محمد وشريعته ، فانه خاتم الأنبياء ، ولم يأت ولن يأتى بعده رسول بتشريع عالمى . وموصوف بأنه يعلم أمته كل شىء ، وقد جاء محمد بدين كامل وتشريع تام .

وأوضح من هذا ، كلمات يوحنا ١٦ : ١٢ — ١٤ على لسان المسيح نفسه : « لاتزال عندى أشياء كثيرة أقولها ، ولكنكم لاتحتكمونها أو تطيقونها . عندما يجىء روح الحق فانه سوف يرشدكم الى الحق ويدلكم عليه ، لأنه لن يتكلم عن نفسه ، ولكنه سوف يمجدنى) (١) .

عدد المؤرخ الهندى المسلم مولاى محمد على (٢) كثيرا من آيات الانجيل ، وكلها تبشر بظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء فى انجيل يوحنا ، الاصحاح الرابع عشر ١٣ — ١٥ : (ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم معزيا آخر ، ليمكث معكم الى الأبد : روح الحق) وجاء فى انجيل يوحنا الاصحاح ١٦ : ٧ (لكى أقول لكم الحق ، انه خير لكم أن أنطلق ، لأنه ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم) . وجاء فى انجيل يوحنا أيضا الاصحاح ١٤ — ٢٦ (أما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى ، فهو يعلمكم كل شىء) . ثم يقول المؤرخ مولاى محمد على : وجميع هذه النبوءات تشير بوضوح لاريب فيه الى مجىء نبى بعد المسيح .

الرسول وورقة بن نوفل :

ورقة بن نوفل شيخ وقور ، ارتبط تاريخه بظهور الاسلام ، ونزول الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم . وينتمى الى بيت من أشرف

---

(١) أنظر كتاب ثورة الاسلام للطفى جمعة ص ٣١٧ .
(٢) محمد رسول الله ص ٣٥ .

بيوت قريش هو بيت عبد العزى بن قصى ، وهو ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد ، أول من آمنت من النساء ، وشريكة الرسول فى الجهاد

قبل ظهور الاسلام ، ظهر من بين العرب جماعة مستنيرة نبذت الوثنية ، فاعتنق بعضهم المسيحية أو اليهودية ، واعتنق البعض الآخر الحنيفية فعملوا على احياء دين ابراهيم الحنيف وهو دين التوحيد . وكان ورقه ممن اعتنقوا المسيحية ، وقرأ التوراة والانجيل ، وكتب العبرانية ، وأصبح أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة وشاركته أخته (قتيلة بنت نوفل) ميوله الأدبية والدينية واطلعت على الكتب القديمة .

آثر الرسول صلى الله عليه وسلم العزلة ، وألف النسك والعبادة ، فكان يذهب قبل نزول الوحى الى غار حراء ، يتحنث فيه ويتأمل عجائب الكون ، ويفكر فى البعث والحساب والجنة والنار . وفى غار حراء نزل الوحى على الرسول ، وعاد الى خديجة وهو يرتجف ، وأخبرها بما كان من نزول جبريل عليه السلام ، وأسرعت خديجة تزمله وتدثره ، وتطمئنه وتبث السكينة فى نفسه ، ثم رأت أن تخرج لتقص ما سمعته من الرسول على ابن عمها ورقة ، وكانت تعلم مدى علمه واطلاعه ، وما يتحدث به عن قرب ظهور نبى مرتجى .

وقصدت خديجة بيت ورقة ، وكان حينئذ شيخا طاعنا فى السن ، ضعيف الحركة ، أعشى البصر ، حتى اذا انتهت خديجة من حديثها ، شعر ورقة بالفرح والسرور وصاح : قدوس ، قدوس ، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى ياخديجة فلقد جاء الناموس الذى كان يأتى موسى ، وانه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت .

وبينما الرسول يطوف بالكعبة ، سارع ورقة اليه ، رغم شيخوخته وضعفه ، وطلب منه أن يقص عليه قصته بنفسه وقص الرسول عليه ما حدث ، وتبين ورقة صحة كلامه ، فأعاد على سمعه التنبؤات التى أخبر بها خديجة من قبل وأضاف : ياليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك .فقال الرسول : أو مخرجى هم ؟ فأجاب ورقة : نعم ، لم يأت رجل بما أتيت

به الا عودى ، ولئن أدركنى يومك لأنصرنك نصرا مؤزرا . ولكن المنايا لم تمهل ورقة حتى تتحقق أمنيته .

هجرة المسلمين الى الحبشة المسيحية :

اشتد عذاب قريش للمسلمين ، فكانوا يضربونهم ويضعون الصخور العظيمة على صدورهم فى شدة الحر ، فلم يزدهم ذلك الا ايمانا . هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوا الى الله ليلا ونهارا ، سرا وجهرا ، لا يصده عن ذلك صاد . ولما رأى الرسول مانزل بأصحابه من تعذيب واضطهاد ، سمح لهم بالهجرة الى الحبشة ، فقد كان ملكها يشتهر بالتسامح والعدل .

لم يفكر الرسول فى هجرة المسلمين الى احدى القبائل العربية ، لأنها كانت ترفض دعوته فى مواسم الحج مجاملة لقريش أو تمسكا بدينها الوثنى . وكذلك لم يفكر فى الهجرة الى مواطن أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين من العرب ، لأن كلا من الجاليتين اليهودية والمسيحية كانت تنازع الأخرى وتنافسها فى النفوذ الأدبى ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لاتقبلان منافسا ثالثا . أما اليمن ــ وكانت مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوى ــ فلم يطمئن الرسول الى الالتجاء اليها . أما الحيرة وبلاد الشام فكانت بعيدة غاية البعد عن مكة ، كما أن كلا من الشام واليمن والحيرة كانت أسواقا هامة لتجارة قريش . وكانت لقريش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة وزيارات فى أوقات منتظمة ، فاذا علمت قريش أن المسلمين فى بلد منها ، طلبت الى أهل ذلك البلد أن يردوهم اليهم ويخرجوهم منها ، كما حاولت ذلك مع النجاشى لولا تسامحه وعدله (١) .

هاجر المسلمون الى الحبشة مرتين ، وكان لهذه الهجرة أثر كبير فى نشر الاسلام وترغيب الناس فيه ، فقد ذاع بين العرب أن فريقا من القرشيين هاجروا الى الحبشة فرارا بدين تلقوه عن نبى بمكة ، وبذلك

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ١ ص ٨٧ ــ ٨٨ .

سمع عن الدين الاسلامى ما لم يسمع به من قبل ، كما أنه كان لخروج هذه الجماعة أثر فى تخفيف حدة عداء قومهم ، اذ رأوا فريقا يشترك معهم فى العروبة قد أصبح مضطهدا ، أوذى فى دينه حتى اضطر أن يهاجر الى مكان بعيد (١) .

غضبت قريش لهجرة المسلمين الى الحبشة ، فبعثت وفدا محملا بالهدايا الفاخرة يطلب من نجاشى الحبشة رد المهاجرين الى مكة ، ولكن النجاشى كان بعيد النظر ، فطلب من المهاجرين أن يحدثوه عن حقيقة دينهم ، فشرحوا له تعاليم الاسلام ، فبكى النجاشى وقال : ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فلا والله لا أسلمهم اليكما ورجع وفد قريش يجر أذيال الخيبة (٢) . وظل المهاجرون فى الحبشة حتى هاجر الرسول الى المدينة فعاد معظمهم .

موقف الرسول من المسيحيين :

كان فى الدولة الاسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أديان أربعة : (١) الاسلام ، وهو دين الدولة الحنيف ، وعقيدة الغالبية العظمى من أهالى الدولة (٢) اليهودية وكانت دين بعض أهالى اليمن فى الجنوب وبعض أهالى الشام فى الشمال (٣) النصرانية ، واعتنقها بعض أهالى اليمن وخاصة فى مدينة نجران . وبعض أهالى الشام (٤) المجوسية ، وقد اعتنقها بعض أهالى البحرين .

ورغم اختلاف هؤلاء عن معظم رعايا الدولة فى الدين ، فقد كانت الدولة تعاملهم معاملة عادلة ، فتمتعوا بالحقوق الوطنية التى تمتع بها المسلمون ، فكان لهم فيها ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات . وجعل الاسلام أهل هذه الأديان أخوة للمسلمين فى الوطن العربى ، فقد كان نظام الدولة يقضى بأن يعاملوا فيها مثلهم ليشعروا بأن لهم دولة واحدة تجمعهم ، ووطنا واحدا يؤلف بينهم ، وقانونا واحدا يخضع له الجميع .

---

(١) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٦٦ .
(٢) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٣٦٠ .

ويذكر المؤرخ (توماس أرنولد) أن محمدا قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية فى اقامةشعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم فى أمن وطمأنينة . وقد وجد حلف كهذا بين أتباع النبى ومواطنيهم ، مما جعل هؤلاء المواطنين يظهرون ولاءهم للحكومة الجديدة .

أثبتت معاملة الرسول — صلى الله عليه وسلم — لأهل الذمة أن الاسلام دين التسامح ، الذى يحرص على حقوق الانسان . وكانت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الى رهبان دير سانت كاترين فى جبل سيناء دليلا ناصعا على تسامح الحكومة الاسلامية الوليدة فى معاملة رعاياها من غير المسلمين ، مهما كان دينهم . وقد حرص الرسول على أن يملى رسالته على مسمع من صحابته ليعلم الجميع ما يحض الاسلام عليه من تسامح . وهذه هى بعض فقرات هذه الرسالة الكريمة :

(هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله بشير ونذير وأمين الخلق أجمعين لوديعة الله فى خلقه ، كى لا تكون حجة على الله بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما . كتبه لمن هم على دينه عهدا لأولئك القوم الذين هم على دين النصرانية من مشارق الأرض الى مغاربها ، بعيدهم وقريبهم ، عربيهم وعجميهم ، معلومهم ومجهولهم .. فمتى كان راهب أو سائح مجتمعا فى جبل أو واد أو مغارة أو معمورة أو سهل أو كنيسة او معبد ، فنحن من ورائهم وانى لأذب عنهم بنفسى والموالى وأنصارى وشعبى ، هم وأموالهم وأثوابهم ، اذ أنهم من رعيتى وأهل ذمتى ، وأدفع عنهم كل ما يكدرهم من تلك الأثقال التى نعطيها أهل العهد ، فلا يعطون الا ماطابت لهم نفوسهم من الأشياء خراجا ، ولا يكدرون ولا يكون عليهم جبر ولا اكراه ، ولا يتغير من كان عليهم قضاة منهم عن وظيفتهم ، ولا رهبانهم عن رهبانيتهم ، ولا أرباب الخلوات عن الاقامة فى صوامعهم . ولا يسلب أحد سياحهم ، ولا يهدم بيتا من بيوت كنائسهم ولا يتلفه ، ولا يدخل شيء منها الى بيوت المسلمين . وكل ما أخذ شيئا من ذلك فيكون قد أفسد عهد الله وخالف رسوله حقيقة » .

« ولا يطرح خراج على قضاتهم ورهبانهم ، ولا من كان مشغولا فى العبادة منهم ، ولا شيء آخر غرامة كان أو خراجا أو مظلمة أخرى . فانى أنا احفظ ذمتهم فى البحر والبر ، والمشرق والمغرب والشمال والجنوب ، أينـــا كانوا ، وهم فى ذمتى وميثـــاق أمانى من جميـــع الأشـــياء التى يكرهونها » .

« فلا يؤخذ خراج أو أعشار ممن يتعبد فى خلوة فى الجبال ولا ممن يزرع فى تلك الأراضى المباركة ، ولا أحد يشاركهم فى طريقهم ولا يشترك معهم بدعواه أن ذلك لغيرهم . ويعطى لهم من أوقات المواسم من كل أردب قدحا لأجل مأكولهم فلا يقال لهم ان هذا كثير . ولا يطالبون بخراج ، ولا يؤخذ من ذوى الخراجات أيضا ، ولا من الأغنياء وأرباب التجـارة زيادة عن الحد المعين . ولا يكلفهم أحد الى سفر ، ولا يلزمهم الى حرب أو نقل سـلاح » .

« انما المسلمون يحاربون عنهم ، ويجادلونهم على أحسن وجه اتباعا للآيـة (ولا تجادلوا أهل الـكتاب الا بالتى هى أحسـن) فيعيشـون مرحومين ، ويمنع عنهم ما يكدرهم أو يضـيق عليهم من كل راع أينمـا كانوا أو فى أى محل نزلوا . واذا تزوجت نصرانية فلا يكون ذلك الا برضا تلك المرأة ، ولا تمنع من الذهاب الى كنيستها لأجل الصـلاة . وتحترم كنائسهم فلا يمنعون من تعميرها ، ولا من حرمة أديرتهم ، ولا يلتزمون بنقل سلاح أو حمل حجارة ، وانما المسلمون يذبون عنهم ، ولا أحد من الأمة يخالف هذا العهد الى يوم القيامة وانقضاء الدنيا » .

كانت هذه الرسالة دستورا محكما ، وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتبعه سائر الخلفاء والأمراء والولاة فى الدولة الاسلامية ، فعاش أهل الذمة ترفرف عليهم رايات التسامح والعدل والحرية والاخاء .

الرسول والدولة الرومانية المسيحية :

كان المسلمون يعطفون على أهل الكتاب من يهود ونصارى ، وكانوا يتمنون انتصارهم على الوثنيين والمجوس . فلما كانت جحـافل الفرس

المجوس تكتسح ممتلكات الدولة الرومانية المسيحية ، فى آسيا ومصر ، ولما وقفت تدق أبواب بيزنطة ، عاصمة الامبراطورية ، ولما لاحت الساعة الرهيبة ، ساعة انهيار الدولة الرومانية ، نزل الوحى مؤكدا انتصار الرومان فى النهاية : (الم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين) (١) . وقد تحققت النبوءة،ففى عام بدر انتصر المسلمون ، واستعاد الروم ما فقدوه من ممالك ، بل اجتاحوا بلاد الفرس

لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل ان للعالم كله نصيبا منه . ولما لم يكن هناك غير اله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى اليه الناس كافة . ولكى تكون هذه الدعوة عامة ، وتحدث أثرها المنشود فى جميع الناس وفى جميع الشعوب ، نراها تتخذ صورة عملية فى الكتب التى بعث محمد بها فى السنة السادسة من الهجرة (٦٢٨ م) الى عظماء وملوك هذا العصر . فى هذه السنة بعث الرسول كتبا الى هرقل امبراطور الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) ، والى كسرى فارس ، والى حاكم اليمن ، والى حاكم مصر المقوقس ، والى نجاشى الحبشة ، وغيرهم . وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحا وأشد صراحة على ما تردد ذكره فى القرآن من مطالبة الناس جميعا بقبول الاسلام ؟ »

لم يضع انتشار المسيحية بين الرومان حدا للخلاف الدينى ، فظهر الاختلاف المذهبى نتيجة العداء بين الأرثوذكسية والكاثوليكية من جهة ، والخلاف حول طبيعة المسيح وصفته من جهة أخرى ، وخاصة أن الأباطرة تدخلوا فى هذا الخلاف المذهبى ، فعقد الامبراطور البيزنطى مجمعا فى خلقيدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م وقرر أن للمسيح طبيعتين ، وأن مذهب الكنيسة القائل بأن المسيح طبيعة واحدة كفر ، ولذا قرر حرمان بطريرك الاسكندرية . وعارض المصريون المسيحيون هذا القرار وأطلقوا على أنفسهم اسم الأرثوذكسيين ومعناها فى اللغة اليونانية اتباع الدين الصحيح ، بينما اتباع الكنيسة الرومانية البيزنطية يسمون باسم الملكانيين لأنهم يتبعون مذهب الملك أى الامبراطور ، وكان يطلق أحيانا على

(١) سورة الروم آية ١-٤ .

الأرثوذكسيين المصريين اسم اليعاقبة نسبة الى يعقوب البرادعى أسقف الرها ، كما كان اليعاقبة يسمون أيضا (المونوفيزيت Monophgsite أى أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة ، بينما كان الملكانيون ينادون بأن للمسيح طبيعتين

كانت هذه الاضطهادات التى قاسى المصريون الكثير منهم ، سببا مباشرا للتمهيد للدولة الفارسية للاستيلاء على مصر سنة ٦١٦ م ، واستمر الاحتلال الفارسى لمصر الى سنة ٦٢٩ م حينما غزا الامبراطور البيزنطى هرقل الدولة الفارسية فاضطر الفارس للجلاء عن مصر .

حاول هرقل بعد تغلبه على الفرس أن يعيد الى الدولة البيزنطية وحدتها ، فأصدر (صورة توفيق Monothema) ومنع الناس من الحديث فى طبيعة المسيح ، ورأى أن يعترف الجميع بأن للمسيح ارادة واحدة ، وحاول هرقل أن ينشر هذا المذهب الجديد فى مصر ، فولى على حكمها (المقوقس) وأسند له السلطة السياسية والرئاسة الدينية معا سنة ٦٣١ م . وخير المقوقس المصريين بين أمرين : اما اعتناق مذهب هرقل الجديد ، أو الاضطهاد . وأبى المصريون الأمر الأول ، فبدأ المقوقس سياسة الاضطهاد ، وهرب البطريرك القبطى بنيامين .

كان هرقل امبراطور الدولة الرومانية فى مقدمة من وجه الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته اليهم لاعتناق الاسلام ، باعتباره امبراطورا لدولة من الدولتين العظيمتين فى العالم القديم . فبعث الرسول اليه برسالة دعاه فيها الى الاسلام ووعده بثواب الله وحذره من تضاعف الاثم عليه فى حالة الرفض .

جاء فى كتاب الرسول الى هرقل : « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله ، الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فان تتول فانما عليك أثم اليريسين (١) . ويأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد

---

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٨ .

الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (١) .

بعث الرسول هذه الرسالة مع دحية بن خليفة الكلبى الى عامل هرقل فى بصرى الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وعندما وصل اليه أرسله بخطابه الى هرقل ليسلمه له بيده ، وكان قد خرج من حمص فى طريقه الى القدس فوافاه دحية فى مدينة ايليا (بيت المقدس) وسلم اليه الخطاب وترجم له فلم يجد فيه غير دعوة الله خالصة ، فأكرم الرسول ورد عليه ردا حسنا ، ثم أخذ يستقصى عن أمره ويسأل عن خصومه حتى اهتدى الى أبى سفيان وكان اذ ذاك فى تلك المدينة فى تجارة له فجاء به وسأله أن يقول الصدق وتوجه اليه ببعض الأسئلة .

هرقل : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى ؟

أبو سفيان : ايها الملك ما يهمك من أمره ؟

أن شأنه دون ما يبلغك .

هرقل : أنبئنى عما أسألك من شأنه ولا تزد .

أبو سفيان : سل ما بدالك

هرقل : كيف كان نسبه فيكم ؟

أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .

هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

أبو سفيان لا .

هرقل : فهل كان من آبائه ملك ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

أبو سفيان : ضعفاؤهم

(١) آل عمران : ٦٤ .

هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟

أبو سفيان : بل يزيدون .

هرقل : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : هل يغدر ؟

أبو سفيان : لا و نحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها (قال أبو سفيان : ولم أتمكن من كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة)

هرقل : فهل قاتلتموه ؟

أبو سفيان : نعم .

هرقل : فكيف كان قتالكم اياه ؟

أبو سفيان : الحرب بيننا سجال ينال منا وننال منه .

هرقل : فماذا يأمركم به ؟

أبو سفيان : يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

هرقل (للترجمان) : قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فلو قلت نعم لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أنهم ضعفاؤهم وكذلك أمر الايمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته

القلوب ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو انى اعلم انى اخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت قدميه ، انطلق لشأنك !

قال أبوسفيان : فخرجت من عنده وأنا أضرب احدى يدى بالأخرى وأقول لقد بلغ من أمر هذا الرجل حتى أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام وما زلت مرعوبا من محمد حتى أسلمت .

ثم كتب هرقل الى صاحب له في رومية ، وكان نظيره فى العلم يخبره بأمر الكتاب الذى جاءه من محمد، وسار هو الى حمص وهناك وافاه الرد من صاحبه يوافقه فيه على رأيه . فجمع عظماء الروم فى مقصورة له وقال لهم : يامعشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد أن يثبت ملككم فتبايعوا هـذا النبى ففروا منه وهرعوا الى الأبواب فدعاهم أن يفصحوا بالجواب فقالوا له : أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيدا لأعرابى ؟ فلما رأى نفرتهم وأيس من ايمانهم قال : انى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم . فسجدوا له ورضوا عنه . فبقى على دينه . وان لم يقف موقفا معاديا للاسلام . ويدلل بعض الكتاب على ذلك بحادثتين ، أولاهما حينما كتب اليه الحارث بن أبى شمر الغسانى عامله بدمشق بعد ذلك يستأذنه بحرب رسول الله لم يأذن له بذلك وأمره أن يتغافل عنه .

والحادثة الثانية عندما بلغ هرقل ان النجاشى قد أسلم ورفض أن يدفع له ما كان يدفعه له من الخراج لم يغضبه حتى قال البتاق ، أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ فأجاب هرقل : رجل رغب فى دين فاختاره لنفسه ما أصنع به ، والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع .

---

(١) عبد الحميد الخطيب : أسمى الرسالات ص ١٣٩ .

وعلى الرغم من عطف المسلمين على الدولة الرومانية خلال حروبها مع الفرس ، فما كانت هذه الدولة لتستطيع السكوت على اطراد انتشار الاسلام ، وقد وقعت بينها معركة فى مؤته (١) . ولما بلغ الدولة الرومانية أن جزيرة العرب كلها قد دانت للاسلام ، ثارت الغيرة الدينية ، فقد كانوا يمنون النفس بتنصير شبه جزيرة العرب كلها ، فعقدوا العـزم على وقف الاسلام الزاحف والقضاء على الدولة العربية الاسلامية . وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الدولة الرومانية تهيىء جيوشا لغزو حدود العرب لتنسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين ،فعمـل النبى على تجهيز حملة ليسيرها الى حدود سورية، واستنفر النبى جميع القبائل العربية للذود عن ديارهم ، فقد كان خطر الغزو يهدد بلاد العرب جميعا (٢) .

بين الرسول والمقوقس :

وجه الرسول برسـالة الى المقوقس حاكم مصر الرومـانى ، واسمه (جريج بن ميناء) ، وكان هرقل قد بعثـه الى مصر لجمع الجزية ليستعين بها على الحروب المستمرة بين الفرس والرومان (٣) .

جاء فى كتاب الرسول صلى الله عليـه وسلم : « بسم الله الرحمـن الرحيم : من عبد الله ورسوله محمد الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فانى أدعوك بدعوة الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم كل القبط (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضـنا بعضـا أربابـا من دون الله ، فان تولـوا فقولوا اشـهدوا بأنا مسلمون) (٣) » .

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه الرسالة مع حاطب بن أبى بلتعة : فالتقى بالمقوقس فى الاسكندرية ، حيث أكرمه وأحسن استقباله ، وقال المقوقس له .قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظ ن أنه مخرجه

(١) ابن الاثير : أسد الغابة حـ ٢ ص ١٠٢ .
(٢) مولاى محمد على : محمد رسول الله ص ١٦٩ .
(٣) ارفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ٢٠٧ .

الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج فى العرب فى أرض جهد وبؤس ، والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه ، ولا أحب أن يعلم بمحاورتى اياك » .

كتب المقوقس ردا جاء فيه : « لمحمد بن عبد الله ، من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام » .

وبعث المقوقس بهدايا الى الرسول ، منها جاريتان شقيقتان ، هما مارية وسيرين ، وقد دخل الرسول بمارية وأنجب منها ابراهيم ، وأعطى أختها سيرين الى حسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن . وتذكر بعض الروايات أن هذه الهدايا ضمت بعض المنسوجات ، والعسل ، وبغلة شهباء تسمى دلدل ، وبغل أشهب يسمى يعفور ، وتضيف رواية طبيبا رده الرسول وقال : ارجع الى أهلك نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع .

الفصل الثالث

الرسول واليهود

اليهود والتبشير بنبوة محمد :

كان اليهود والنصارى قبل ظهور الاسلام يتنازعون النفوذ الأدبى فى الجزيرة العربية ، ويتنافسون فى كسب احترام العرب ، واعتز كل فريق بدينه ، وكان اليهود يستنصرون على المشركين فى الجاهلية ويقولون : اللهم أنصرنا بنبى آخر الزمان ، ولما سألهم العرب عنه قالوا : ان نبيا قد قرب زمانه سيكون لمن اتبعه العز والنصر الى يوم القيامة ويتوعدون العرب باتباعه والاستنصار به عليهم (١) .

وكان اليهود — وبخاصة أحبارهم — يعلمون من كتابهم أن نبيا سيبعث فى آخر الزمان تكون الجزيرة العربية داره وقراره ، ويحدثنا التاريخ عن (أسعد بن كرب) ملك اليمن الذى قدم الى يثرب (المدينة المنورة بعد هجرة الرسول) ينتقم من أهلها لأنهم قتلوا ابنه غيلة . وبينما ابن كرب ماض فى القتال والانتقام اذ جاءه حبران من أحبار اليهود — من بنى قريظه — عالمان راسخان فى العلم ، فقالا له : أيها الملك ، لاتفعل فانك ان أبيت الا ماتريد حيل بينك وبينها ولم تأمن عليك عاجل العقوبة . ودهش الملك وسأل الحبرين : ولم ذلك ؟! فقالا: ان المدينة — أيها الملك — ستكون مقر هجرة نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان ، تكون داره وقراره . وتأثر الملك بعبارات الحبرين فانصرف عن المدينة .

وتذكر الروايات العربية أن عبد المطلب ، جد الرسول ، رحل الى اليمن ، وهناك رآه أحد أحبار اليهود ، وفحص هذا منخريه ، ثم قال : أنا أشهد أن فى احدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة ، وانما نجد كلا من

(١) أنظر كتابنا (عبد المطلب جد الرسول) ص ١١٧ .

الملك والنبوة فى بنى زهرة فكيف ذاك ؟ وأشار هذا اليهودى على عبد المطلب بالزواج من بنى زهرة ، ولذا تزوج عبد المطلب من هالة ، وزوج ابنه عبد الله من آمنة ، وكان زواج الأب والابن فى مجلس واحد ، والعروسان من بنى زهرة (١) .

كما تذكر هذه الروايات أيضا أنه عند مولد محمد صلى الله عليه وسلم ، كان فى مكة يهودى يدعى (يوسف) ، فقال لبعض وجوه قريش : هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : والله مانعلم . قال : احفظوا ما أقول لكم ، ولد هذه الليلة نبى الأمة الأخيرة ، وهو منكم على كتفيه شامة فيها شعيرات متواترات كأنهن عرف فرس ، وتلك هى خاتم النبوة . وتوجه الجميع الى بيت آمنة وقالوا لها : أخرجى الينا ابنك ، فأخرجته ، وكشفوا عن ظهره ، فرأى تلك الشامة ، فخر مغشيا عليه ، فلما أفاق ، قالوا : ويلك مالك ؟! قال : ذهبت النبوة من بنى اسرائيل !!

وتروى الروايات أن عبد المطلب كان قد توجه الى اليمن على رأس وفد لتهنئة سيف بن ذى يزن الحميرى لنجاحه فى اجلاء الأحباش عن بلاد اليمن ، فقال سيف لعبد المطلب : ولد ولد اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، يخمد النيران (أى نيران المجوس) ، ويكسر الأوثان ، فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه من اليهود فأنهم أعداؤه ، واطو ماذكرته لك عن قريش لئلا تدخلهم النفاسة فينصبون له الحبائل ، وهم فاعلون ذلك وأبناؤهم ، ويثرب دار ملكه ، واستحكام أمره ، وموضع قبره .

كان اليهود العرب يتوقعون ظهور نبى ، وكانوا يتوعدون به الوثنيين ، ولكنهم كانوا يظنون أن النبى يظهر من بين بنى اسرائيل . وحينما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة الى يثرب قال ليهود بنى قينقاع : « يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش ، فوالله انكم لتعلمون أنى رسول الله ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله اليكم »

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٦ ، المقريزى : امتاع الاسماع جـ ١ ص ١٠٤ .

ونحن نجد فى القرآن الكريم آيات مباركة تؤيد فكرة التبشير بنبى جديد ومن هذه الآيات الـكريمة : (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجـدونه مكتوبا عنـدهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغـلال التى كانت عليهم فالذين آمنـوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

عداء اليهود للرسول والاسلام :

كان اليهود مؤمنين بصدق رسالة محمد ، فقد كانوا دائما يتنبأون بنبى جديد ودين جديد . بل كانت نبوءاتهم هذه عاملا ساعد على انتشار الاسلام ، فقال عاصم بن عمر بن نقادة : (ان مما دعانا الى الاسلام ، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ، أنا كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : انه تقارب الزمان بنبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم ، فكنـا كثيرا ما نسمع منهم ذلك ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا الى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم اليه فآمنا به وكفروا » .

صور القرآن الكريم تنبىء اليهود بالرسول ثم تكذيبهم له فى هذه الآيات المباركة : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لمـا معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) (١) .

عارض اليهود الاسلام ومحمدا منذ اللحظة الأولى ، فقـد رأوا فى محمد ودينـه منافسـا جديدا يوشك أن يقضى على نفوذهم وعلى نفوذ النصارى جميعـا ، وأن ينزع من الفريقين لواء الزعامة الدينيـة الذى يتجاذبونه ، فقـد كان من صميم العرب ومن أكرم بيوتات قريش ، فهو لذلك أقرب الى نفوس العرب الذين يبغضـون اليهود ويضيقون ذرعا

(١) سورة البقرة آية ٨٩ .

بافتخارهم عليهم بالعلم وبالتوراة . وكتب بنى اسرائل ، لذلك كان أهل المدينة أسرع الى قبول الاسلام (١) .

صار اليهود فى عداوة مع الرسول على غير هدى، وأخذوا يصرحون بالشك فى رسالته لا لشىء سوى أنه عربى ، والنبوة فى نظرهم مقصورة عليهم ، ولأنه أيضا بعث فى الحجاز ، والنبوة فى رأيهم انما تكون فى الشام موطن الأنبياء (٢) .

لما رأى اليهود ازدياد عدد المسلمين وانتشار الاسلام يوما بعد يوم وأن العرب يقبلون على محمد والاسلام ، وأن جميع مصالح اليهود القائمة على أرستقراطية دينية فرضوها على العرب بقولهم أنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه ، أصبحت مهددة باستقرار الأمر لهؤلاء العرب الأميين. لما رأوا ذلك أيقنوا أن لاسبيل للمحافظة على هذه المصالح وضمان اطمئنانهم فى الجزيرة العربية الا بالقضاء على محمد وأتباعه (٣) .

وهكذا كان اليهود ينظرون الى الرسول والى الاسلام بعين الخوف منذ اللحظة الأولى من هجرته من مكة الى يثرب (المدينة) . ثم ازداد خوفهم منه وظهر حسدهم له عندما رأوا الناس يدخلون فى دين الله أفواجا، فأخذوا يكيدون للاسلام والمسلمين بالدس والارجاف ، ثم بالمراء والجدل فيما يعلمون وما لايعلمون . واذا سئلوا عن شىء مما فى كتبهم حرفوا الكلم عن مواضعه وألبسوا الحق الباطل ليكسبوا ولاء المشركين بالغض من شأن الاسلام ، لا لسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله به من الرسالة (٤) .

صور الله سبحانه وتعالى موقف اليهود فى آياته الكريمة ، فمنها : (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) (٥) . ومن هذه الآيات المباركة أيضا :

(١) انظر كتابنا (الدولة العربية الاسلامية) ص ٢٣ .
(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١١٤ .
(٣) انظر كتابنا (محمد والقومية العربية) ص ١٠٧ .
(٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ١ ص ١٣٢ .
(٥) سورة البقرة ٩٠ .

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عنــد أنفسهم من بعــد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ان الله على كل شىء قدير) (١) .

موقف الرسول من اليهود :

لما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة حرص على تحقيق أحد أمرين : اما أن يجتــذب اليهود المقيمين بها الى الاســلام ، أو ألا يكتسب صداقتهم واخلاصهم مع بقائهم على دينهم ، وتحقيقا لهذه الغاية ، كتب كتابا بين فيه ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات .

جاء فى هذا الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتــاب من محمد صلى الله عليه وسلم ، وانه لا يتحجر على ثأر جرح (٤) وانه من فتك وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس •• وان من تبعنا من يهود فان له النصرة والأسوة (٢) غير مظلومين ولا متنــاصر عليهم ، وأن يهود بنى عوف آمنــة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأنفسهم ، لا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقع (٣) الا نفسه وأهل بيتــه ، وأن يهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس ويهود بنى بطانة يهود كأنفسهم ، وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا ينتحجر على ثأر جرح (٤) وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته الا من ظلم .. الخ » (٥) .

وهذا الكتاب أبطل ما كان بين أهل المدينة قبل الاسلام من المعاهدات الظالمة التى تبث روح الفرقة بين أهلها . فقــد أراد الرسول أن يجعل من المدينة (يثرب) وطنا واحدا للعرب واليهود ، وأن يجعل من الفريقين أمة واحدة تجمعها جامعة الوطن ولا يفرق بينها اختلاف فى الدين فيزول ماكان بينهم من شرور وآثام وتبطل حروبهم ومنــازعاتهم ويرفرف علم الاخاء

---

(١) سورة البقرة ١٠٩ .
(٢) الاسوة : المساواة .
(٣) لايوقع : لا يهلك .
(٤) أى لايلتئم جرح على نار .
(٥) انظر نص الكتاب فى سيرة ابن هشام .

بينهم جميعا ، فلا ينظر العرب الا الى هذا الوطن ، وينسون فيه أنهم عرب ، ولا ينظر اليهود الى هذا الوطن ، وينسون فيه أنهم يهود (١) .

فتحت هذه المعاهدة فتحا جديدا فى السياسة الدينية ، فأقرت حرية العقيدة وحرية الرأى ، وحرمة الوطن ، وحرمة الحياة ، وحرمة النفس ، وحرمة المال، ولم يحدث كل هذا قبلها فيما بين أهل الأديان ، بل كان هناك الاضطهاد والظلم والتفرقة فى الحقوق ، والتفاوت بين الأفراد والطبقات .

حاول الرسول أن يجذب اليهود الى الاسلام ، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة ، ومنحهم الحرية التامة فى اقامة شعائرهم الدينية وساوى بينهم وبين المسلمين فى الحقوق السياسية ، ولكنهم قابلوا صنيعه وكرمه بالجحود والغدر ، وشعر الرسول بأنه لاجدوى من جذب اليهود الى الاسلام .

لم يخلص اليهود قط للمعاهدة التى وقعوها مع الرسول ، ولم يفوا بوعودهم مطلقا ، فما أبرموا هذه المعاهدة الا ليخدعوا المسلمين ويدبروا فى السر ما يفسدون به أمرهم ، وقد عاشوا بين العرب فى الجاهلية ماعاشوا بينهم ولقوا من حسن جوارهم ما لم يلقوه من غيرهم فلم ينسهم هذا بغضاءهم ، فكيف يخلصون لهم ، وقد صاروا الى دين جديد ينهض بهم ، وكيف يرتفعون الى هذه السياسة التى تسمو على الفوارق الكنسية ، وهم لا يعرفون الا جنسهم ودينهم ، وجبلوا على الجشع والطمع ، فلا يهمهم الا أمر المادة ، ولا يهمهم أمر الروح وفضائلها .

وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام كريما فى معاملة اليهود ، الى أبعد حدود الكرم ، فكان يصابرهم ويصبر عليهم ، ويغض الطرف عن كيدهم ويحترم دينهم ، ويساوى بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات ، وكان لا يعاتبهم الا بمقدار ما يكف أيديهم عنه ، وكان يحكم فيهم من يختارونه بأنفسهم وصفوة القول أن معاملة الرسول اياهم كانت أيسر وأخف من معاملته لقريش وغيرها (٢) .

(١) الصعيدى : السياسة الاسلامية ص ٥٦ .
(٢) انظر كتابنا (الدولة العربية الاسلامية) ص ٣٥ .

الصراع السلبى بين المسلمين واليهود :

بدأ يهود المدينة ببث بذور العداء والخصام بين المسلمين فى المدينة، فكانوا يثيرون البغضاء والأحقاد بين المهاجرين والأنصار ، ويوقعون بين فريقى الأنصار والأوس والخزرج فيذكرونهم بما كان بين القبيلتين من معارك ، وخاصة يوم بعاث الذى انتصرت فيه الأوس على الخزرج . كما أعلن اليهود تأييدهم لقريش وحرضوهم على قتال الرسول ، وقام شعراء اليهود يرثون قتلى قريش فى غزوة بدر ، وكان اليهود اذا سئلوا عن شىء مما فى كتبهم حرفوا الكلم عن مواضعه وألبسوا الحق الباطل لينالوا رضاء المشركين بالكيد للاسلام ، لا لسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله به من الرسالة ، وأنزل الله عز وجل فى الآية الكريمة : (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) (١) .

استمر اليهود فى حربهم السافرة حينا والخفية أحيانا ، ضد محمد والمسلمين . وانضم اليهم رجال من الأوس والخزرج ممن بقوا على جاهليتهم وكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، رجال امتلأت نفوسهم حقدا على محمد ، فتظاهروا بالاسلام وقلوبهم مليئة بالكفر والنفاق ، وكان هواهم مع اليهود ، لأن اليهود يكذبون محمدا وينكرون رسالته ، واذن فان الفرصة مواتية لليهود أن يجدوا فى هؤلاء المنافقين المطايا التى يصلون بها الى أغراضهم ويعكرون الجو على محمد والمسلمين (٢) .

على أن كيد اليهود لمحمد والمسلمين لم يقتصر على تحريض أحبارهم المنافقين ، وبث روح الكراهية فى المدينة ضد الرسول ودينه ورسالته بل لقد سلكوا طرقا أخرى خبيثة ملتوية ، فرأينا بعض أحبارهم يتظاهرون بالاسلام نفاقا ورياء . وصور الله عز وجل موقفهم فى آيات كريمة : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله

---

(١) سورة البقرة آية ٩٠ .
(٢) برانق والمحجوب : محمد واليهود ص ٣٩ .

والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) (١) .

حذر الله سبحانه وتعالى اليهود أن ينقضوا المعاهدة التى عقدوها مع الرسول فقال عز وجل : (يا بنى اسرائيل أذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافريه ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون) (٢) .

اكتفى الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الفترة من الصراع السلبى برد كيد أولئك اليهود وافساد محاولاتهم التفريق بين المسلمين ، وتشكيكهم فى دين الاسلام ، وقد جرى فى هذا على السياسة التى استنتها فى مطاولة أعدائه الى أن ينقطع عذرهم ولا يكون هناك شىء فى أخذهم بالحزم والشدة ، ويكونوا هم الذين جنوا على أنفسهم .

لاشك أن هؤلاء اليهود كانوا خطرا عظيما على الدعوة الاسلامية ، اذ كانوا يعملون على اشاعة الفوضى بين المسلمين ، ولذا أنزل الله عز وجل الآية الكريمة : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) ، فهم ان أخفقوا فى شق عصا الطاعة على الرسول فلن تخطئهم الوسيلة الى زعزعة العقيدة فى قلوب المؤمنين بتحينهم الفرصة ، فان لم تحن اختلقوها ، كما صنعوا عند تحويل قبلة المسلمين من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، ثم الى مقام ابراهيم مرة أخرى ، فقد زعم اليهود أن عقيدة المسلمين غير ثابتة (٣) ، وعبر القرآن الكريم عن هذا الأمر فقال : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) .

---

(١) سورة البقرة آية ٨ وما بعدها .
(٢) سورة البقرة آيات ٤٠ ـ ٤٤ .
(٣) محمد عطا : الدعوة التحريرية الكبرى ص ١١٩

شن اليهود حربا عنيفة على المسلمين ، فقد حاولوا قتل الرسول وحرضوا الكفار على قتال المسلمين وحزبوا الأحزاب عليهم ، ونقضوا عهود المسلمين ، فرأى محمد والمسلمون أن يدفعوا عن أنفسهم كيد اليهود ، واضطروا الى مقاومتهم ومحاربتهم ، لأن فرديتهم العدوانية كانت تعارض انسانيته ، كما كانت هذه الفردية تقف حائلا أمام الوحدة الاسلامية والعربية (١) .

الصراع الايجابى بين اليهود والمسلمين :

لم يكن اليهود فى الحجاز متحدين ، ولم تكن بينهم رابطة سياسية تجمعهم ، بل كانوا قبائل متفرقة ، فلما أظهروا عداءهم للمسلمين لم يكونوا جبهة واحدة تقف أمامهم ، فحاصرهم الرسول قبيلة بعد قبيلة وأجلاهم عن المدينة ، ثم أخذ يتتبع حركاتهم بعد أن اجتمع شملهم فى خيبر ، فسار اليهم وأضعف من شوكتهم (٢) .

غيرت موقعة بدر وضع محمد تماما ، فقد أصبح القائد المظفر لجماعة تزداد يوما بعد يوم . وسرعان ما تحولت كثير من القبائل العربية الوثنية الى الاسلام ، وأصبح محمد الآن حاكم المدينة ، كما أصبح مشرعا للقوانين ، وكان من أهم المشكلات التى واجهها الرسول تحديد موقفه من اليهود وكانوا يؤلفون ثلاث قبائل قوية (٣) ..

لم تثمر معاملة محمد الطيبة لليهود ، فقد ظلوا غير مؤمنين بالاسلام كما عاملوا الرسول والمسلمين بقسوة وجفاء . ونظمت أسماء بنت مروان ، الشاعرة اليهودية ، كثيرا من القصائد فى هجاء الرسول ، كما أنشد الشاعر اليهودى كعب بن الأشرف عدة قصائد فى مكة بعد موقعة بدر يحث فيها القرشيين على الأخذ بثأر قتلاهم فى تلك المعركة . بل بلغ من وقاحته أن أنشد هذه القصائد عند عودته الى المدينة وفى حضور بعض المسلمين ،

---

(١) أنظر كتابنا (الدولة العربية الاسلامية) ص ٣٥ .
(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١١٥ .
(٣) أرفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ١٥٧ .

مما أثار غضب الرسول ، فقال يوما ، من لى من ابن الأشرف ؟ وبعد عدة أيام دفع كعب حياته ثمنا لقصائده فقد قتله بعض الأنصار من قبيلة الأوس.

اولا : بنو قينقاع :

كانت قبيلة بنى قينقـاع أول قبيلة يهودية تبدأ الصراع الايجابى . وكانت هذه القبيلة تسيطر على شمال الحجاز ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل بينه وبينهم أمانا ، وشرط عليهم شروطا منها ألا يظاهروا عليه عدوا . فلما قدم الرسول من بدر ، أظهر بنو قينقاع البغى والحسد ونقضوا العهد الذى عقده معهم (١) . فنزلت الآيات الكريمة تخاطب الرسول (واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لايحب الخائنين) ، فجمعهم الرسول بسوق بنى قينقاع وقال : « يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل موقعة قريش فوالله انكم لتعلمون أنى رسول الله ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله اليكم » ، فقالوا « يامحمد ، لايغرنك من لقيت ، انك قهرت قوما أغمارا وانا والله أصحاب الحرب ولئن قاتلنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا » (٢) .

وهكذا أبدى بنو قينقاع عداءهم ، واستعدادهم للقتال ، ثم حدث ما أثار غضب الرسول على بنى قينقاع ، فكان هذا البحث شرارة الحرب فقد حدث أن فتاة عربية من قبيلة عربية تجاور المدينة كانت قد اعتادت أن تجلب اللبن الى المدينة ، وكانت يوما فى الحى الذى يملكه بنو قينقاع وقد ضربت خمارها فوق وجهها كما أمرتها تعاليم الاسلام ، وباعت الفتاة بضاعتها ، ثم اتجهت الى أحد الصاغة اليهود تشترى حلية ، فتعرض لها بعض فتيان اليهود ، فمضوا يتغامزون عليها ويسخرون بخمارها ويهزءون من الاسلام وتعاليمه . وحاول بعض شباب المسلمين فى السوق أن يكفوا شباب اليهود عن الفتاة وعن الهزء بالاسلام ، ولكنهم لم يحفلوا . وفى هذه الأثناء كان الصائغ اليهودى قد أثبت طرف الثوب الى مقعدها بمسمار صغير ، وعندما حاولت الفتاة أن تنصرف تعرى ظهرها ثم تعثرت

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ح ٣ ص ٦٨ .
(٢) ابن هشام ح ٢ ص ٤٢٦ .

ووقعت على الأرض وقد انحسر ثوبهـا عن وجهها وتعرت . وتعالت ضحكات الشباب اليهود . ووقفت الفتاة وسطهم حائرة مضطربة . وشاهد أحد المسلمين موقف الفتاة الحرج ، فتقدم شاهرا سيفه وأغمده فى صدر الصائغ اليهودى ، فهجم الشباب اليهودى على المسلم وقتلوه ، واندفع المسلمون بأسلحتهم كما تزود بنو قينقـاع بسلاحهم ، ورأى الرسول أن يقاتل هؤلاء اليهود ، فقد نقضوا العهد الذى عقد معهم (١) .

لم يكن لبنى قينقاع حصون ولا معاقل ، وانما كانوا تجارا وصاغة ، وهم حفاة لعبد الله بن أبى بن سلول ، زعيم المنافقين ، فسار اليهم الرسول وحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى اضطروا الى النزول على حكمه الذى تضمن أن تكون أموالهم غنيمة له ، وتكون النساء والذرية لهم ثم أخلى سبياهم بعد أن شفع فيهم عبد الله بن أبى ، وأمرهم بالجلاء عن المدينة فساروا صوب شمال الحجاز حتى نزلوا بأذرعات (٢) .

ثانيا :بنو النضير :

ثم جاء دور قبيلة بنى النضير ، فقد فرحت القبائل اليهودية لما نال المسلمين فى موقعة أحد من قريش مما شجعهم على الغدر بالمسلمين . قدم على الرسول وفد من مدينتى (عضل) و (القارة) يعلنون اسلامهم ويطلبون من الرسول أن يبعث معهم نفرا من الصحابة يفقهونهم فى الدين ويعلمونهم شرائع الاسلام . فبعث الرسول معهم ستة من المسلمين ، ولكن خلال الرحلة ، عند مرورهم بمنطقة الرجيع (٣) غدروا بالمسلمين وقتلوا أربعة منهم ، وأسروا اثنين وحملوهما الى مكة حيث سلموها الى القرشيين فقتلوهما .

وتكررت هذه الخيانة ، فقد قدم بعض أهل نجد على الرسول وتظاهروا برغبتهم فى الاسلام ، وطلبوا من الرسول أن يمدهم ببعض المسلمين ليحموهم من أعدائهم ، فبعث الرسول بجماعة من المسلمين

(١) ابن هشام حـ ٢ ص ٤٢٧ .
(٢) أذرعات : مدينة بأطراف الشام قبل الحجاز .
(٣) المقريزى : امتاع الاسماع حـ ١ ص ١٠٥ .

يبلغ عددهم أربعين مسلما من الأنصـار وكانوا يعرفون بالقراء لحفظهم القـرآن الكريم .

وعند بئر مؤتة ، على مسيرة أربعة أيام من المدينة ، هاجم بنو سليم المسلمين وقتلوهم عن آخرهم سوى رجل واحد وهو عمرو بن أمية الذى استطاع الفرار وهرع الى المدينة وفى طريقـه اليها التقى برجلين يهوديين من بنى عامر ، غير مسلحين فظن أنهما ينتميان الى أعدائه وأراد أن يأخذ بثـأر اخوانه المسلمين القتلى ، فقتل هذين اليهودين وطـالب بنو عامر بالدية . ورأى الرسول أن يقوم بنو النضير ، وهم يهود أيضـا . بدفع الدية لبنى عامر ، فقد كانوا على جانب كبير من الثراء ، ويمتلكون حصنا يسمى (زهرة) على بعد ثلاثة أميال من المدينة . وكان بنو النضير قـد عقدوا مع الرسول حلفا عند قدومه الى المدينة . يقضى بالتعاون على أداء الدية ، ودعا الرسول الى عقـد اجتماع للتباحث فى هذا الامر ، وتوجه الرسول الى هذا الاجتماع يصحبه أبو بكر ، وعمـر ، وعلى ، وبعض المسلمين الآخرين ، وجلس الرسول الى جنب جدار من بيوت النضير فى انتظار أن يأتوه بالمال .. ولكن بنى النضير كانوا قد تآمروا على الرسول واتفقوا على أن يقوم أحدهم بالقاء حجر من سطح هذا البيت على الرسول فيقتله ولكن الله سبحانه وتعالى أعلم رسول الله بالمؤامرة فعاد الى المدينة دون أن يعلم أحد بذلك ، ثم لحق به أصحابه (١) .

أثارت هـذه المؤامرة غضب الرسـول وسخط المسلمين ، فطلب الرسول من بنى النضير الجلاء عن المدينـة وأمهلهم عشرة أيام يحاربهم بعدها اذا لم يخرجوا ، ولكن عبد الله بن أبى الخزرجى أرسل اليهم سرا يعدهم بمساعدته لهم . ولكنه لم يستطع أن يبـر بوعده ، كمـا أن بنى قريظه لم تساعدهم . وحاصر الرسول بنى النضير ، وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، ورأى بنو النضير عجزهم عن الصمود فى قتال المسلمين ، فطلبوا الصلح بعد حصار دام خمسة عشر يوما .

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ١٩١ .

وصالحهم الرسول على ألا يتعرض لأحد منهم بسوء ، وأن يجلوا عن المدينة ، ولهم ما حملت الابل من أموالهم ومتاعهم ، ولرسول الله أرضهم ونخلهم وأسلحتهم (١) .

وغادر بنو النضير المدينة ، يصحبهم ستمائة بعير نقلوا عليها أحسن ما فى بيوتهم ثم خربوا ديارهم بأيديهم ، ورحل بعضهم الى الشام ، ونزل معظمهم بمدينة خيبر وهى مدينة يهودية حصينة على مسيرة أيام قليلة من المدينة (٢) .

صور الله سبحانه وتعالى خروج بنى النضير من المدينة وتخريبهم لبيوتهم فى هذه الآيات الكريمة : (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزى الفاسقين) .

كان بنو النضير على جانب كبير من الثراء ، فقد غنم المسلمون كثيرا من الغنائم . وكانت هذه الغنائم مما أفاء الله على رسوله أى أنها خالصة له يضعها حيث يشاء (٣) كما جاء فى القرآن الكريم : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم) (٤) . فدعا الرسول الأنصار وذكرهم بما صنعوا للمهاجرين وانزالهم اياهم فى منازلهم ، ثمقال

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠ — ٣١ .
(٢) اليعقوبى حـ ٢ص ٣٨ .
(٣) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ١٩٤ .
(٤) سورة الحشر آية ٧ .

لهم : « ليس لاخوانكم من المهاجرين أموال ، فان شئتهم قسمت هـذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعا ، وان شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة » فقالوا : بل قسم هـذه فيهم وأقسم لهم من أموالنا ما شئت . فقسم الرسول ما أفاء الله عليه من أموال بنى النضير على المهاجرين دون الأنصار (١) .

ثالثا : بنو قريظة:

بعد اجلاء بنى النضير ، لم يبق فى المدينة من القبائل اليهوديةسوى بنى قريظة ، وكانوا يملكون حصنا منيعا قرب المدينة . وقد نقضوا عهدهم للرسول ، اذ تحالفوا مع أعدائه من المشركين الذين قدموا لغزو المدينة فى غزوة الأحزاب (أو الخندق) (٢) . وأدرك الرسول حرج الموقف ، فكان عليه أن يصد القرشيين وحلفاءهم عن عبور الخندق ، وكان عليه فى الوقت نفسه أن يعمل على تجنب هجوم بنى قريظة وعلى حفظ الأمن داخل المدينة .

وفى ذلك الحين ، جاء الى الرسول نعيم بن مسعود مسلما ، وعرض عليه أن يكلفه بأى عمل يقوم به فى جهاد المشركين وصرفهم عن المدينة . فقال الرسول له : خذل عنا فان الحرب خدعة . فذهب نعيم الى بنى قريظة وحذرهم ان هزمتقريش نجت بنفسها وتركتهم تحت رحمةمحمد، ثم نصحهم بألا يطمئنوا الا اذا أعطوهم رهائن من ساداتهم وأشرافهم . ثم ذهب نعيم الى كل من قريش وغطفان وأوهمهم أن بنى قريظة قد ندموا على نقضهم عهد محمد ، واتفقوا معه على أن يخدعوا له قريشا وغطفان فيأخذون بعض أبناء القبيلتين كرهائن ثم يقدمونهم الى محمد ليضرب أعناقهم . واستعجلت قريش وعد قريظة لها ، فكان جوابهم ما يؤكد عزم بنى قريظة على الغدر بهم .

وقد فعلت هذه الوقيعة فعلها فى الأحزاب ، وتأكدت قريش وغطفان من غدر بنى قريظة بهم ، فعزموا على الرحيل . وبعد جلاء المشركين ،تفرغ

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤ .
(٢) اليعقوبى حـ ٢ ص ٣٩ .

الرسول لعقاب بنى قريظة الذين نقضوا عهدهم ، وحاصرهم الرسول خمسة وعشرين يوما ، حتى نزلوا على حكمه .

وتم للرسول بالقضاء على بنى قريظة السيطرة على المدينة ، وأصبح يأمن فيها على نفسه بعد أن تخلص من العناصر المناوئة ، كما انتفع فقراء المسلمين بصفة خاصة من أنصار ومهاجرين بتلك الأراضى والمنقولات التى كان يمتلكها اليهود .

رابعا : يهود خيبر

على مسيرة خمسة أيام من المدينة تقوم مدينة خيبر ، حيث يسكن اليهود الذين تميزوا بالثراء نتيجة اشتغالهم بالتجارة والزراعة . فقد كانوا يزرعون أرضهم بالحبوب وأشجار النخيل ويمتلكون كثيرا من قطعان الأغنام وعددا من الحصون ، وبلغ تاريخ تلك المدينة من القدم بحيث أكد أبو الفدا ، المؤرخ العربى ، أن موسى بعد عبوره للبحر الأحمر أرسل جيشا لقتال العمالقة فى يثرب وخيبر .

أصبحت خيبر ملجأ لليهود بعد أن أجلاهم الرسول عن المدينة ، واستقروا هناك يتطلعون الى الانتقام ، وأدرك الرسول أهدافهم . وكان الرسول قد بدأ يقاتل أعداء الاسلام فرأى أن يهاجم مدينة خيبر .

وفى مطلع السنة السابعة من الهجرة ، خرج الرسول من المدينة على رأس جيش من المسلمين بلغ ألفا ومائتين من الرجال ومائتين من الخيالة . وصحبه أبو بكر وعلى بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ، وغيرهم من كبار الصحابة (١) .

كان يهود خيبر اذ ذاك يقيمون فى حصون على نحو ما كان يفعل بنو جلدتهم بيثرب ، ولم يدر بخاطرهم أن الرسول سيغزوهم لمنعتهم ووفرة سلاحهم وكثرة عددهم . لكن الرسول ما لبث أن نزل بساحتهم ليلا على حين غفلة منهم ، بحيث لم يستطيعوا أن يضموا اليهم حلفاءهم .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ١٥٢ .

فلما أصبح الصباح وشرعوا يتـأهبون لأداء أعمالهم فوجئوا بمشـاهدة المسلمين أمامهم فذعروا وولوا هاربين الى حصونهم . ثم دار القتال بين الفريقين وهاجم المسلمون حصون اليهود حصنا بعد حصن ، وتمكنوا من فتح بعضها عنوة ، كما أخذوا البعض الآخر صلحا .

أصبحت الحصون التى فتحت عنوة ملكا للمسلمين . أما ما أخذت صلحا فقـد اتفق الرسول مع أصـحابها على أن يبقوا بالأرض يزرعونها مناصفة ، النصف للمسلمين والنصف الآخر لليهود (١) .

لما سمع أهل فدك ، وهى مدينة قرب المدينة بتلك المعـاملة الحسنة التى عامل بها اليهود أهالى حصون خيبر ، أرسلوا اليه يطلبون الصلح ، فصالحهم وصاروا يعطونه نصف غلة أرضهم (٢) وأصبحت فدك خالصة له لأن المسلمين لم يقفوا عليها بخيل ولا ركاب ، أما مغانم خيبر فقسمت على أهل الحديبية . قال الله تعالى (٣) : (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه) (٤) .

كان الاستيلاء على مدينة خيبر من أعظم انتصـارات المسـلمين ، وحينما تقدم الرسول الى خيبر وشاهد أسوارها العالية الحصينة والتلال الصخرية التى تحميها ، توجه بصلاته الى الله بالشكر (٥) .

وكان لانتصار المسلمين فى خيبر أهمية خاصة ، فقد ترتب عليه أن أصبحت لدولتهم الناشئة أراض مملوكة خارج المدينة يجبون منها الخراج كما أدى الى وجود جماعة من اليهود يضمها السلطان السـياسى للدولة الاسلامية . وهكذا وجد تلك الدولة لأول مرة (أهل ذمة) . وقد سمح لهؤلاء الذميين بأن يظلوا على دينهم ويستغلوا أراضـيهم وفق الشروط التى تؤخذ عليهم (٦) .

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ١٥٢ .
(٢) المقريزى : امتاع الاسماع حـ ١ ص ٣١٢ — ٣٢٨ .
(٣) سورة الفتح آية ٢٠ .
(٤) يقصد عز وجل بهذه (خيبر) .
(٥) ارفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ١٩٩ .
(٦) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١٢٠ .

وفوق ذلك ، فقد اســتطاع الرسول أن يقضى على فردية اليهود ، وأن يجعلهم رعايا فى الدولة العربية الاسلامية الناهضة ، يدينون بالطاعة لها ولرئيسها العربى ، ترفرف عليهم جميعا راية تسامح الاسلام .

الفصل الرابع

أحكام أهل الذمة فى الإسلام

تعريف أهل الذمة :

الذمة فى اللغة العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الاسلام من غير المسلمين ، وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعواالجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، وأصبحوا فى ذمة المسلمين . وكانت تقاليد الاسلام تقضى بأنه اذا أراد المسلمون غزو اقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الاسلام ، فمن استجاب منهم طبقت عليه أحكام المسلمين ، ومن امتنع فرضت عليه الجزية ، كقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى أتباع الملك المعترف بها وهى : المسيحية ، واليهودية ، والمجوسية ، والسامرية ، والصائبة .

يوضح معاملة الرسول عليه الصلاة والسلام للمسيحيين عهده لأمير (أبله) المسيحى ، فقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . وهذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ، ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد والنبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فانه لايحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن أخذه من الناس وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » (١) .

ولما تم للعرب من المسلمين فتح الأمصار رحب بهم أهل الذمة ، فقد أملوا فى الخلاص من الانقسامات الدينية والمذهبية ، والخلاص من ظلم

(١) سيرة ابن هشام حـ ٤ ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

حكامهم ، والاعفاء من الخدمة العسكرية ، والتمتع بالحرية الدينية التى يسمح بها الاسلام مقابل دفع الجزية .. فقد دعا العرب المسلمون أهل الذمة الى الاسلام ، وأعلنوا أن المحارب اذا أسلم يصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ولذا دخل فى الاسلام جموع هائلة من أهل الذمة ، وآمن بعضهم أن توفيق العرب المسلمين فى الفتوحات هو مظهر من مظاهر رضاء الله عليهم ودليل على صدق دينهم (١) . وأما من بقى من أهل الذمة على دينه ، فقد عاملهم العرب بتسامح عظيم باعتبارهم أهل كتاب ، وكانت كتب الصلح مرآة صافية انعكست عليها صور كثيرة لتسامح المسلمين .

حقوق وواجبات أهل الذمة :

كان على أهل الذمة فى الدولة الاسلامية واجبات ولهم فى مقابلها حقوق . أما الواجبات : فكان على أهل الذمة ان يدفعوا الجزية ، مع تقديم الزيت والخل والطعام اللازم للمسلمين .. وكان يشترط على أهل الذمة فى عقد الجزية شرطان ، أحدهما مستحق والآخر مستحب . ويشمل الشرط المستحب ستة أمور يجب على أهل الذمة تحقيقها ، فيجب عليهم احترام القرآن والرسول وعدم القدح فى الاسلام ، وألا يصيبوا مسلمة بزنا ولا بنكاح ، وألا يحولوا مسلما عن دينه ، وألا يعينوا أهل الحرب .. أماالشرط المستحب فيشمل أيضا أمورا ستة ، فعليهم لبس الغيار وشد الزنار ، وأن تكون مبانيهم أقل ارتفاعا من مبانى المسلمين ، وألا يسمعوا المسلمين أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم ، وعدم المجاهرة بشرب الخمر أو اظهار الصلبان والخنازير ، واخفاء دفن الموتى وعدم النواح عليهم ، وعدم ركوب الخيل مع السماح بركوب البغال والحمير (٢) . وكان على أهل الذمة ألا يحدثوا بيعة أو كنيسة ، ولكن يجوز بناء ما تهدم من بيعهم وكنائسهم القديمة (٣) . كما كان على فلاحى أهل الذمة العناية بالطرق والجسور والأسواق والارشاد وضيافة أبناء السبيل (٤) .

---

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٧٥ .
(٢) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣٨ .
(٣) المصدر السابق ص ١٤٠ .
(٤) الطبرى حـ ٤ ص ١٨٤ .

أما حقوق أهل الذمة ، فهى الكف عنهم والحماية لهم ، ولأهل العهد الأمان على نفوسهم وأموالهم (١) . وفى الحقيقة كانت معاملة المسلمين لأهل الذمة تنم عن تسامح وعطف وكرم . فقد كان أهل الذمة لا يدفعون سوى عشر التجارة والجزية ، بينما هم معفون من الصدقات (٢) وكانت الجزية تقابل مايدفعه المسلم من صدقة (٣) . وأعفى الصبيان والنساء والمساكين وذوو العاهات والرهبان (٤) .

وكثيرا ما نقض بعض أهل الذمة ما شرطه المسلمون عليهم ، فكان المسلمون لا يقتلونهم أو يغنموا أموالهم أو يسبوا ذراريهم ، بل كانوا يكتفوا بطردهم من بلاد المسلمين (٥) . وعاش المسلمون مع أهل الذمة جنبا الى جنب ، فقد اشتركوا مع المسلمين فى تخطيط المدن الاسلامية الجديدة وعاشوا جميعا فى سلام .

الجزية : أسباب فرضها ، ومقدارها :

فرضت الشريعة الاسلامية على أهل الذمة دفع الجزية ، ولم يكن ذلك — كما يذكر بعض المستشرقين — عقابا لهم على عدم اعتناقهم الاسلام . بل كانت الجزية ضريبة عادلة تماما فى كل صورها . والحياة فى كل مجتمع فى كل عصر تقوم على أساس الحقوق والواجبات ، وقد تمتع أهل الذمة بكثير من الحقوق وعاشوا فى ظل التسامح الاسلامى ، فكان عليهم أن يقوموا ، مقابل هذه الحقوق العديدة ، ببعض الواجبات . كما أن كل فرد فى أى دولة فى أى عصر ، لابد أن يساهم بجزء من المال ، تقوم الحكومة بجمعه للقيام بما يحتاجه المجتمع من خدمات ومرافق . وكان المسلم عليه كثير من الواجبات ، فهو يدفع الزكاة ، ويقوم بالخدمة العسكرية . ولذا كان على الذمى أن يؤدى ضريبة أخرى اذا كان معفى من تأدية الزكاة لأنه

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣٧ .
(٢) ابن آدم : الخراج حـ ١ ص ١٠ .
(٣) الطبرى حـ ٤ ص ١٩٨ .
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩ — ٧٠ .
(٥) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٠ .

غير مسلم ، كما كان الذمى معفى أيضا من أداء الخدمة العسكرية ، ويتمتع بحماية المسلمين وتسامحهم ، ويمارس سائر الأعمال والوظائف فى حرية .

واعترف أحد المستشرقين بهذه الحقيقة ، وهو المؤرخ (توماس أرنولد (١) فقال : لم يكن الغرض من فرض الجزية على أهل الذمة ، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن ، لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام ، وانما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة ، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول دياناتهم بينهم وبين الخدمة فى الجيش ، فى مقابل الحماية التى كفلتها لهم الدولة الاسلامية .

ويرى الماوردى (٢) ، فى كتابه الأحكام السلطانية ، أن دفع غير المسلمين الجزية كان مقابل الكف عنهم وحمايتهم ، وما تمتعوا به من حقوق كثيرة .

لم يكن مقدار الجزية ثابتا أو محددا ، فقد اختلف باختلاف الزمان والمكان . فقد كانت معاهدات الصلح بين العرب والمسلمين وأهل الذمة تحدد هذا المقدار ، فان لم تحدده هذه المعاهدات فكانت العادة المتبعة فرض الجزية تبعا لمقدار دخل كل فرد .

حددت شروط الصلح فى معظم بلاد الشام ومصر مقدار الجزية . جاء فى كتاب (الأموال) لأبى عبيد (٣) : « .. عن نافع عن أسلم عن عمر : أنه ضرب الجزية على أهل الشام ، على أهل الذهب أربعة دنانير ، وأرزاق المسلمين من الحنطة مدين ، وثلاثة أقساط زيت ، لكل انسان كل شهر . وعلى أهل الورق أربعين درهما ، وخمسة عشر صاعا لكل انسان .. ومن كان من أهل مصر فاردب كل شهر لكل انسان » .

جاء فى معاهدة الصلح التى عقدها عمرو بن العاص مع الروم بعد نجاحه فى فتح الاسكندرية ، أن لأهل الذمة فى مصر حرية ممارسة شعائرهم

(١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٧٩ .
(٢) الاحكام السلطانية ص ١٣٧ .
(٣) الاموال ص ٣٩ .

الدينية مقابل دفع دينارين سنويا ، وأعفى من الجزية النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدين ، وكتب عمرو للأقباط عهدا بحماية كنيستهم .

بعد استقرار المسلمين فى الأمصار المفتوحة ، فكر عمر بن الخطاب فى وضع نظام ثابت موحد للجزية يتبعه العمال فى سائر الأمصار ، وليمنع اجتهاد الولاة (١) ، فجعل عمر الجزية على الرجال ، على الموسر ثمانية وأربعون درهما ، وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهما ، وعلى الفقير اثنا عشر درهما (٢) .. أما الموسر فهو صاحب الحرفة المريحة مثل الصيرفى والبزار وصاحب الضيعة والتاجر والطبيب ، أما المتوسط الحال فهو الأقل كسبا ، أما الفقير فهو العامل بيده مثل الخياط والصباغ والاسكافى وما شابههم (٣) .

واتبعت هذه القاعدة فى بلاد العراق وبعض مدن الشام وغيرها من الأمصار . قال أبو عبيدة فى كتابه (الأموال) (٤) : « وهذا عندنا مذهب الجزية والخراج ، انما هما على قدر الطاقة من أهل الذمة ، بل حمل عليهم ، و لااضرار بفىء المسلمين ، ليس فيه حد مؤقت .. ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما كان فرضه على أهل اليمن دينارا على كل حالم ، وقيمة الدينار يومئذ انما كانت عشرة دراهم أو اثنى عشر درهما .. فهذا دون ما فرض عمر رحمه الله على أهل الشام وأهل العراق ، وانما يوجه هذا منه أنه انما زاد عليهم بقدر يسارهم وطاقتهم » .. أى أن مقدار الجزية اختلف باختلاف ظروف المكان ، وأحوال الزمان ، ومقدار ثراء الفرد ودخله ، والقيمة الشرائية للدينار أو الدرهم . فيذكر أبو عبيدة أيضا :

« عن ابن أبى نجيح قال : سألت مجاهدا : لم وضع عمر على أهل الشام من الجزية أكثر مما وضع على اليمن ، فقال : لليسار » ..

حدد أبو يوسف فى كتابه الخراج من تؤخذ منهم الجزية ومقدارها

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣٨ .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٠ .
(٤) الاموال ص ٤١ .

فقال : « الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ممن فى السواد (١) وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ، ماخلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران خاصة ، وانما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان . وعلى الموسر ثمانية وأربعون درهما ، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهما ، يؤخذ ذلك منهم فى كل سنة ، وان جاءوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والمتاع وغير ذلك ، ويؤخذ منهم بالقيمة ، ولا يؤخذ منهم فى الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر » . وهذا النص لأبى يوسف ، يدل على عدالة الجزية ، وعلى تسامح المسلمين ، فقد كانت الجزية على قدر دخل الفرد وكسبه ، كما كان يدفعها الرجل البالغ القادر على العمل والكسب ، وأعفى منها الشيوخ والأطفال والنساء والعجزة ورجال الدين ، فكان الرجل انما يؤدى الجزية عن نفسه وسائر أفراد أسرته التى يعولهم . كما كان يسمح بدفع الجزية عينا ، فكا نبعض أهل الذمة يؤدون جزءا من انتاجهم الزراعى أو الحيوانى .

وأعفى المسلمون من الجزية كل من عجز عن تأديتها ، بل كانت الدولة تعول كل ذمى عجز عن كسب رزقه بكده . فقال أبو عبيد فى كتابه (الأموال) (٢) : « ولو عجز أحدهم لحظة عن دينار لحطهمن ذلك ، حتى لقد روى عنه أنه — أى عمر بن الخطاب — أجرى على شيخ منهم من بيت المال . وذلك أنه مر به شيخ وهو يسأل على الأبواب »

طريقة جمع الجزية وموعدها :

كانت الجزية تجمع مرة واحدة كل سنة بالشهور الهلالية (٣) . وكان يسمح بدفع الجزية نقدا أو عينا ، لكن لا يسمح بتقديم الميتة أو الخنزير أو الخمر بدلا من الجزية . وأمر عمر بن الخطاب بالتخفيف عن أهل الذمة فقال : « من لم يطق الجزية خففوا عنه ، ومن عجز فأعينوه ، فانا لا نريدهم

(١) السواد : أراضى العراق الخصبة السوداء اللون .
(٢) الاموال ص ٤١ .
(٣) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣٨ .

لعام أو لعامين » (١) وكانت الدولة الاسلامية كثيرا ما تؤخر موعد تأدية الجزية حتى تنضج المحصولات الزراعية ، فيستطيع أهل الذمة تأديتها دون أن يرهقهم ذلك ، فقال أبوعبيدة (٢) : «وانما وجه التأخير الى الغلةللرفق بهم » .

واتبعت الدولة الاسلامية الرفق والرحمة فى جمع الجزية ، فقد قدم أحد عمال عمر بن الخطاب عليه بأموال الجزية ، فوجدها عمر كثيرة ، فقال لعامله : انى لأظنكم قد أهلكتم الناس ؟ فقال : لا ، والله ، ما أخذنا الا عفوا صفوا . فقال عمر : بلا سوط ، ولا نوط ؟ فقال : نعم . فقال عمر : الحمد لله الذى لم يجعل ذلك على يدى ولا فى سلطانى (٣) .

تناول المستشرقون بالحديث مسألة ختم رقاب أهل الذمة ، مما يجعلنا ندرس هذه المسألة دراسة علمية منهجية ، حتى تتبين حقيقة الأمر . ويستند هؤلاء المستشرقون فيما يقولون على ماجاء فى المصادر العربية القديمة من أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف الى سواد العراق لجمع الجزية ، وأنهما قالا : « ومن لم يأتنا فنختم فى رقبته فقد برئت منه الذمة » (٤) .

وهذا يجعلنا نتساءل : هل كان هذا الختم وقت جمع الجزية فحسب ، أم كان يتخذ صفة الاستمرار والدوام ؟

وذكر المؤرخ اليعقوبى (٥) أنه كانت تختم رقاب أهل الذمة وقت جباية جزية الرءوس ثم تكسر الخواتيم ، وتستبدل بشارة تعلق حول الرقبة يقدمها عامل الجزية دلالة على دفع الجزية .

وناقش المؤرخ (ترتون) (٦) هذه المسألة فقال : أما ماأشرنااليه من ختم رقاب الذميين على الدوام فأمر مبالغ فيه تمام المبالغة . والحقيقة

---

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق حـ ١ ص ١٧٨ .
(٢) الاموال ص ٤٤ .
(٣) أبو عبيدة : الاموال ص ٤٣ .
(٤) المصدر السابق ص ٥٢ .
(٥) تاريخ اليعقوبى حـ ٢ ص ١٣٠ .
(٦) أهل الذمة فى الاسلام ص ١٣٢ .

تتلخص فى أن عمر بن الخطاب كان قد أنفذ لجمع خراج العراق فختما أعناق جميع الذميين (وهم مائة ألف وخمسون) ، وليس من الثابت تماما أن الختم كان يتعلق بدفع الخراج ، ولا يمكن للمرء أن يتصور دوام بقاء ختم الأعناق ، اذ ليس بين أيدينا شاهد على استمراره ، ويشير أبو يوسف الى أن ختم الأعناق لم يكن يستعمل الا عند جمع الجزية فحسب ، وهذا نص ما يقوله : « ينبغى أن تختم رقابهم فى وقت جباية جزية رءوسهم حتى يفرغ من عرضهم ، ثم تكسر الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف حينما سألوه كسرها » (١) .

ويمضى (ترتون) فى الدفاع عن العرب المسلمين فيقول : ومن الحق ألا نحمل العرب وزر هذا العيب ، اذ لم يكونوا فيه بالبادئين والمبتدعين ، بل كانوا مقلدين لما اصطنعه البيزنطيون قبلهم .

وهكذا يتضح الموقف ، فقد كان المسلمون يتبعون نفس السياسة التى اتبعها الرومان البيزنطيون فى ختم الرقاب وقت تأديةالجزية ، وهى ليست صورة لاضطهاد أو اذلال ، ولكنها وسيلة لمعرفة وتمييز من أدى الضريبة ومن لم يؤدها ، وخاصة أن الطباعة لم تكن قد ظهرت بعد وكان من العسير تدوين ايصالات واضحة ثابتة تثبت تأدية الجزية ولا يمكن تزييفها . وما زالت بعض الدول فى افريقية وآسيا فى القرن العشرين تتبع هذه السياسة فى الانتخابات ، فيقومون بختم أيدى الناخبين بنوع من الأختام لا تزول الا بعد يومين أو أكثر ، حتى لا يعطى الناخب صوته أكثر من مرة .

أحوال الاعفاء من الجزية :

كانت الجزية لا تجبى الا من الذكور القادرين على العمل والكسب ، ولا تجبى من النساء والصبيان ، ويستثنى من أداء الجزية الذى يتصدق عليه ، والشيخ الفقير الفانى الذى لا يستطيع العمل ، كما أعفى الأعمى والأعرج والمريض الذى لا يرجى شفاؤه ، والمغلوب على عقله الا اذا كان من أصحاب اليسار ، كما أعفى المترهبون الذين فى الديارات ، وأهل

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ .

الصوامع اذا كانوا يعيشون على صدقات الموسرين ، أما اذا كانوا قادرين على العمل أو كان لهم غنى أو يسار أخذت منهم الجزية .

وأعفت الدولة الاسلامية كبار السن أو الضعفاء ، بل كانت تعولهم نرى هذا واضحا فى رسالة الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز الى عدى بن أرطأة عامله بالبصرة : « أما بعد ، فان الله سبحانه انما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الاسلام واختار الكفر عتيا وخسرانا مبينا .. فضع الجزية على من أطاق حملها ، وخل بينهم وبين عمارة الأرض ، فان فى ذلك صلاحا لمعاش المسلمين وقوة على عدوهم . وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه . فلو أن رجلا من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق . وذلك أنه بلغنى أن أمير المؤمنين عمر — يقصد عمر بن الخطاب — مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال : ما أنصفناك ، ان كنا أخذنا منك الجزية فى شبابك ثم ضيعناك فى كبرك . ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه » (١) .

كان كل من اعتنق الاسلام يعفى من دفع الجزية .. فقال قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس على مسلم جزية » .. ويذكر (أبو عبيد)(٢) هذا الحديث الشريف ثم يقول : « تأويل هذا الحديث أن رجلا لو أسلم فى آخر السنة ، وقد وجبت عليه الجزية أن اسلامه يسقطها عنه فلا تؤخذ منه ، وان كانت قد لزمته قبل ذلك . لأن المسلم لا يؤدى الجزية ولا تكون دينا عليه ، كما لا تؤخذ منه فيما يستأنف بعد الاسلام . وقد روى عن عمر ، وعلى ، وعمر بن عبد العزيز ما يقوى هذا المعنى » .

أسلم رجل غير عربى ، ولكن الوالى كان يأخذ منه الجزية ، فقدم على عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، انى أسلمت ، والجزية تؤخذ منى . فقال عمر : لعلك أسلمت متعوذا . فقال : أما فى الاسلام ما يعيذنى ؟ فقال

(١) الاموال ص ٤٧ .
(٢) أبو عبيد : الاموال ص ٤٦ .

عمر : بلى . فكتب عمر أن لا تؤخذ منه الجزية . وكتب عمر بن عبد العزيز الى ولاته : « من شهد شهادتنا ، واستقبل قبلتنا ، واختتن ، فلا تأخذوامنه الجزية » (١) .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس على من مات ، ولا على من أبق جزية . ويفسر (أبو عبيدة) (٢) هذا القول فيقول : لاتؤخذ من ورثته بعدموته، ولا يجعلها بمنزلة الدين ، ولا من أهله اذا هرب عنهم منها ، لأنهم لم يكونوا ضامنين لذلك .

كان كل من يعتنق الاسلام من أهل الجزية طوال حكم الخلفاء الراشدين والأمويين حتى فترة حكم الحجاج ترفع عنه الجزية . وسار الخلفاء على سيرة عمر بن الخطاب ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفى أول من أبقى الجزية على من أسلم ، فقد لاحظ أن عددا كبيرا من أهل الذمة قد اعتنق الاسلام وأسرعوا الى سكنى المدن ، ولذا أمر بعدم اعفائهم من الجزية واعادتهم الى قراهم بالقوة (٣) .

أما الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز فقد أمر برفع الجزية عمن أسلم . واختلف المؤرخون المحدثون فى تقدير ما فعله عمر . فيرى المؤرخ العربى المسيحى المعاصر الدكتور فيليب حتى (٤) أن سياسة عمر قدأضرت بيت المال ضررا كبيرا . ويرى (فان فلوتن) (٥) أن اصلاحات عمرناقصة، فقد أيقظت آمالا لم تستطع الحكومة تنفيذها ، بل أدت الى الفوضى المالية بعد موت عمر ويرى (فلهوزن) (٦) أن عمر لم ينجح فى سياسته المالية ، بل أدت هذه السياسة الى الانحطاط المالى . أما (دوزى) (٧) فانه يتهم عمر ويدافع عنه فى نفس الوقت ، فيرى أن سياسة عمر أدت الى ارهاق بيت المال ، كما دفعت بكثير من أهل الذمة الى التظاهر باعتناق

---

(١) أبو عبيد : الاموال ص ٤٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٩ .
(٣) الطبرى حـ ٢ ص ٢٥ .
(٤) حتى : تاريخ العرب حـ ٢ ص ٢٨٥ .
(٥) السيادة العربية ص ٥٨ .
(٧) نظرات فى تاريخ الاسلام ص ١٢١ .

الاسلام دون ايمان حقيقى به فرارا من الجزية ، ثم يدافع (دوزى) عن عمر فيقول انه كان مسلما ورعا تقيا وآثر نصرة الاسلام على أى شىء آخر .

هذه هى نماذج لآراء بعض المستشرقين ، ذكرناها لنرى أساليب معالجتهم للتاريخ الاسلامى ، ولنستطيع الرد عليها . والحقيقة أن عمر ابن عبد العزيز كان يتبع تعاليم الاسلام وأحكامه حرفيا ، وكان يساوى فى المعاملة بين جميع رعاياه ، مسلمين وغير مسلمين ، فقد كتب الى عامله بالكوفة : « قو أهل الذمة فاننا لانريدهم لسنة ولا لسنتين » (١) .

ولم يرض كثير من المسلمين عن سياسة بعض الأمويين فىأخذ الجزية ممن أسلم ، وعبر أحدهم ، وهو يزيد بن حبيب عن رأيهم فقال : أعظم ما أتت هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ، ثلاث خصال : قتلهم عثمان ، واحراقهم الكعبة ، وأخذهم الجزية من المسلمين (٢) .

فرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين ، ومن الواضح أن أى جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء الجزية اذا ما دخلت فى خدمة الجيش الاسلامى وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة ، وهى قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية ، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونا لهم وأن تقاتل معهم فى مغازيهم ، على شريطة أن تؤخذ بالجزية ، وأن تعطى نصيبها من الغنائم . ولما اندفعت الفتوح الاسلامية الى شمال فارس فى سنة ٢٢ هـ ، أبرم مثل هذا الحلف مع احدى القبائل التى تقيم على حدود هذه البلاد ، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية (٣) .

المجوس وأداء الجزية :

اختلف المؤرخون والفقهاء الأقدمون فى اعتبار المجوس من أهل

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧ .
(٢) أبوعبيد : الاموال ص ٤٩
(٣) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٨٠ .

الذمة. فالماوردى (١) يذكر أن « أهل الكتـاب هم اليهود والنصـارى وكتابهم التوراة والانجيل ، ويجرى المجوس مجراهم فى أخذ الجزية منهم وان حرم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم . وتؤخذ من الصائبة والسامرة اذا وافقوا اليهود والنصارى فى أصل معتقدهم » . ويؤكد البلاذرى (٢) أن المجوس من أهل الـكتاب ، فيروى أن عمر بن الخطاب جلس الى بعض صحابة الرسول فقال : ما أدرى كيف أصنع بالمجوس ؟ فوثب عبد الرحمن ابن عوف فقال : أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (سنوا بهم سنة أهل الكتاب . أما الشهرستانى (٣) فذكر أن المجوس لهم شبهة كتاب ، ولكن الثابت تاريخيا أن الرسول صالح مجوس أهل هجر على أن يأخذ منهم الجزية (٤) فذكر أبو عبيد (٥) : « كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مجوس هجر ، يدعوهم الى الاسلام ، فمن أسلم قبل منه ومن لا ضربت عليه الجزية ، على أن لاتؤكل له ذبيحة ولا تنكح له امرأة. كما صـالح الرسول أهل البحرين ومعظمهم من المجوس ، وأمر عليهـم العلاء بن الحضرمى ، وبعث أبا عبيدة بن الجراح ليجمع الجزية منهم » .

روى أبو يوسف : « عن على بن طالب كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر أخذوا الجزية من المجوس . قال على كرم الله وجهه : وأنا أعلم الناس بهم ، كانوا أهل كتـاب يقرأونه ، وعلم يدرسونه فنزع من صدورهم » .

وكان أخذ الجزية من المجوس واعتبـارهم من أهل الكتاب سـببا لاثارة كثير من الجدل والنقـاش ، فروى أبو يوسف (٦) : أن فروة بن نوفل الأشجعى قال : ان هذا لأمر عظيم ، يؤخذ من المجـوس الجـزية وليسوا بأهل كتاب ؟ فقـام اليه المسـتور بن الأخنف فقال ، طعنت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتب والا قتلتك والله . وقال : قد أخذ

(١) الاحكام السلطانية ص ١٣٧ .
(٢) فتوح البلدان ص ٢٧٦ .
(٣) الملل والنحل حـ ١ ص ٨٤ .
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٧٤ .
(٥) الاموال ص ٢١ .
(٦) الخراج ص ١٢٩ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجوس أهل هجر الجزية ، قال:فارتفعنا الى على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، فقال : سأحدثكما بحديث ترضيانه جميعا عن المجوس : ان المجوس كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه ، وأن ملكا لهم شرب حتى سكر فأخذ بيد أخته فأخرجها من القرية واتبعه أربعة رهط فوقع عليها وهم ينظرون اليه ، فلما أفاق من سكره قالت له أخته انك صنعت كذا وكذا وفلان وفلان وفلان ينظرون اليك . فقال : ماعلمت بذلك . فقالت : فانك مقتول ولانجاة لك الا أن تطيعنى . قال : فانى أطيعك . قالت : فاجعل هذا دينا وقل هذا دين آدم ، وقل حواء من آدم ، وادع الناس اليه واعرضهم على السيف فمن تابعك فدعه ومن أبى فاقتله ففعل ، فلم يتابعه أحد فقاتلهم يومئذ حتى الليل . فقالت له : انى أرى الناس قد اجترءوا على السيف وهم على النار لكع فأوقد لهم نارا ثم اعرضهم عليها ، ففعل ، فهاب الناس النار فتابعوه . قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخراج لاجل كتابهم وحرم مناكحتهم وذبائحهم لشركهم) .

وكان هناك من المسلمين من يرى أن المجوس ليسوا من أهل الذمة فلا يجوز أخذ الجزية منهم . فروى أبو عبيد (١) أن أبا موسى الأشعرى قال : لولا أنى رأيت أصحابى يأخذون من المجوس الجزية ما أخذتها . وكتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن يسأله : ما بال من مضى من الأئمة قبلنا أقروا المجوس على نكاح الأمهات والبنات ؟ وذكر أشياء من أمرهم قد سماها . فكتب اليه الحسن : أما بعد ، فانما أنت متبع ولست بمبتدع وكتب عمرو بن الحرث الى ربيعة بن عبد الرحمن يسأله عن المجوس : وكيف يثبت عليهم الجزية ؟ وكيف تركوا مشركى العرب ؟ فكتب ربيعة : قد كان لك فى أمر من قد مضى مايغنيك عن المسألة عن مثل هذا .

ظل الولاة الأمويون يجمعون الجزية من المجوس مثل سائر أهل الذمة ، وقد حفظ أبو يوسف (٢) لنا خبر أخذ عدى بن أرطأة عامل الخليفة عمر بن عبد العزيز فى العراق الجزية من المجوس .

(١) الاموال ص ٣٦ .
(٢) الخراج ص ١٣١ .

تحدث ترتون (١) عن معاملة المسلمين للمجوس فقال : كان المسلمون فى حيرة شديدة بشأن الطريقة التى يتبعونها فى معاملة المجوس ، رغم أن النبى قد حسم الموضوع بما قال وبما رواه عنه عبد الرحمن بن عوف . والواقع أن المجوس كان عددهم كبيرا ، وكانوا يعاملون معاملة الشعوب المعاهدة ، وذلك أن العهود التى أعطيت لهم أباحت لهم مطلق الحرية فى ممارسة شعائرهم الدينية ، ولم يكن ذلك مجرد حبر على ورق. والواقع أن معابد المجوس لم تلق فى بداية الأمر أكثر مما كانت تلقاه الكنائس ، وان نظر الناس الى المجوس على أنهم دون بقية الذميين مكانة، فكانت دية القتيل المجوسى النقدية أقل بكثير من دية سواه من الذميين ، كما حرم على المسلم الزواج فيهم أو أكل لحم حيوان ذبحته أيديهم .

والحقيقة أن الدولة الاسلامية كانت فى سياستها تخطط لأعوام كثيرة مديدة ، وهى وان تركت المجوس بعد الفتوحات الاسلامية على دينهم ، فقد كانت تعلم أن الجيل الثانى أو الثالث من المجوس سيقبل على اعتناق الاسلام ، وقد حدث هذا فعلا ، فقد تناقص عدد المجوس على مر السنين تناقصا ملحوظا ، واعتنقت الغالبية العظمى منهم العقيدة الاسلامية .

عهود عمر وأهل الذمة :

صالح عمر بن الخطاب أهالى حمص على أن « يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنيستهم وأرجائهم ، واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد ، واشترط الخراج على من أقام منهم » (٢)) وجاء فى عهد عمر لأهل القدس أنه « أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لاتسكن كنائسهم ، ولاتهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود .. ومن أحب من أهل ايلياء يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم حتى

(١) أهل الذمة فى الاسلام ص ١٠٣ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣١ .

يبلغوا مأمنهم ... ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله فانه لايؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم » (١) .

دارت مفاوضات بين عمر بن الخطاب وقائده أبى عبيده بن الجراح من جانب ، وبين البطريرك قسطنطين من جانب آخر ، وتم الاتفاق على أن يدفع الموسر ثمانية وأربعين درهما ، ويدفع متوسط المال أربعة وعشرين درهما ، ويدفع فقير الحال اثنى عشر درهما ، واشترط عمر على المسيحيين « ألا يحدثوا كنيسة ، ولا يرفعوا صليبا بين ظهرانى المسلمين ، ولا يضربوا ناقوسا الا فى جوف كنيسة ، وعلى أن نشاطرهم منازلهم فيسكن فيها المسلمون ، وعلى أن آخذ الحد القبلى من كنائسكم لمساجد المسلمين فانها أواسط فى المدائن ، وعلى أن لايعبر أحدهم بخنزير بين ظهرانى المسلمين ، وعلى أن يقروا ضيوفهم ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وعلى أن يحملوا راجلهم من رستاق الى رستاق ، وعلى أن يناصحوهم وألا يغشوهم ، وعلى أن لايتمالوا مع عدو لهم ، والا استحللنا سفك دمائهم وسبى أبنائهم ونسائهم ، لهم بذلك عهد الله وعقده وذمة المسلمين » .

وبعث المسيحيون برسالة الى عمر بن الخطاب يتعهدون فيها ببعض الأمور مقابل الأمان والحماية وأن يصبحوا فى ذمة العرب المسلمين ، وجاء فى هذه الرسالة : « انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وأهالينا وأموالنا وأهل ملتنا ، على أن نؤدى الجزية عن يد ونحن صاغرون ، وعلى ألا نمنع أحدا من المسلمين أن ينزل كنائسنا فى الليل والنهار ، وأن نضيفهم فيها ثلاثا ، ونطعمهم الطعام ، ونوسع لهم أبوابها ، ولا نضرب فيها بالنواقيس الا ضربا خفيفا ، ولا نرفع فيها أصواتنا بالقراءة ، ولا نؤوى فيها ولا فى شيء من منازلنا جاسوسا لعدوكم ، ولا نحدث كنيسة ولا ديرا ولا صومعة ولا قلاية ، ولا نجدد ما خرب منها ، ولا نقصد الاجتماع فيما كان منها فى خطط المسلمين وبين ظهرانيهم ، ولا نظهر شركا ولا ندعو اليه ، ولا نظهر صليبا على كنائسنا ولا فى شيء من طرق المسلمين

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢١٠ .

وأسواقهم ، ولا نتعلم القرآن ، ولا نعلمــه أولادنا ، ولا نمنع أحدا من ذوى قربانا من الدخول فى الاسلام اذا أراد ذلك ، وأن نجز مقادم رءوسنا ونشد الزنانير فى أوساطنا ، ونلزم ديننا ، ولا نتشبه بالمسلمين فى لباسهم ولا فى هيئتهم ولا فى سلوكهم ولا فى نقش خواتيمهم فننقشها نقشا عربيا، ولانكتنى بكناهم ، وعلينا أن نعظمهم ونوقرهم ، ونقوم لهم من مجالسنا، ونرشدهم فى سبلهم وطرقاتهم ، ولا نطلع فى منازلهم ، ولا نتخذ سـلاحا ولا سـيفا ، ولا نحمله فى حضر ولا سـفر فى أرض المسلمين ، ولا نرفع أصواتنا فى جنـائزهم ، ولا نجاور المسلمين بهم ، ولا نضرب أحـدا من المسلمين ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهامهم ، اشترطنا ذلك كله على أنفسنا وأهل ملتنا ، فان خالفنا فلا ذمة لنا ولا عهد ، وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل الشقاق والمعاندة » (١) .

وحدد الخليفة عمر بن الخطاب الأمور التى تفقد أهل الذمة ما تعهد المسلمون به لهم من حرية وتسـامح وحماية وأمان ، فـكتب عمر لأحد بطارقة المسيحيين : « لك ولهم على وعلى جميع المسلمين الأمان ما استقمت واستقاموا بجميع ما أخذنا عليكم ، وذلك أن يجرى عليكم حكم الاسلام، ولا حكم خلافه بحال ما يلزمكم ، ولا يكون لكم أن تمتنعوا منه فى شىء رأيناه نلزمكم به ، وعلى أن أحدا منكم ان ذكر محمدا صلى الله عليـه وسلم أو كتاب الله عز وجل أو دينه بما لاينبغى أن يذكره به فقـد برئت منـه ذمة الله ثم ذمة أمير المؤمنين وذمة جميع المسلمين ، ونقض ما أعطى عليـه الأمان ، وحل لأمير المؤمنين ماله ودمه كمـا تحل أموال الحرب ودماؤهم ، وعلى أن أحدا من رجالهم ان أصـاب مسلمة بزنا ، أو قطع الطريق على مسلم ، أو فتن مسلما عن دينـه ، أو أعان المحـاربين على المسلمين بقتال ، أو بدلالة على عورة المسلمين وايواء لعيونهم ، فقد نقض عهده ، وأحل دمه وماله ، وان نال مسلما بما دون هنا فى ماله أو عرضه ، أو نال به من مسلم فمنعه من كافر له عهد أو أمان لزمه فيه الحكم » ..

ومضى الخليفة عمر فى تحديد الحقوق والواجبات ، وأصبحت هذه

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق حـ ١ ص ١٧٨ .

الرسالة دستورا صريحا واضحا محددا يتبعه كل من الولاة المسلمين وأهل الذمة ، فكتب عمر : « وعلى أن تتتبع أفعالكم فى كل ما جرى بينكم وبين المسلم ، فما كان لايحل لمسلم مما لكم فيه فعل رددناه وعاقبناكم عليه ، وذلك أن تبيعوا مسلما بيعا حرا ما عندكم من خمر أو خنزير أو دم ميتة أو غيره . ونبطل البيع بينكم فيه ، ونأخذ ثمنه منكم ان أعطاكموه ، ولا نرده عليكم ان كان قائما ، ونريقه ان كان خمرا أو دما ، ونحرقه ان كان ميتة ، وان استهلكه لم نجعل عليه فيه شيئا ونعاقبكم عليه ، وعلى ألا تسقوه أو تطعموه محرما ، أو تزوجوه منكم أو بنكاح فاسد عندنا ، وما بايعتم به كافرا منكم أو من غيركم لم نتتبعكم فيه ولم نسألكم عنه ما تراضيتم به ، واذا أراد البائع منكم أو المبتاع نقض البيع وأتانا طالبا له فان كان منتقضا عندنا نقضناه ، وان كان جائزا أجزناه ، الا أنه اذا قبض المبيع لم يرده لأنه بيع بين مشركين » .

وبعد أن انتهى عمر فى هذه الرسالة من تحديد المعاملات الاقتصادية، تعرض للمسائل القضائية فقال : « ومن جاءنا منكم أو من غيركم من أهل الكفر ويحاكمكم أجريناكم على حكم الاسلام ، ومن لم يأتنا لم نعرض لكم فيما بينكم وبينه ، واذا قتلتم مسلما أو معاهدا منكم أو من غيركم خطأ فالدية على عواقكم كما تكون على عواقق المسلمين ، وان قتل منكم رجل بلا قرابة فالدية عليه فى ماله ، واذا قتله عمدا فعليه القصاص ، الا أن تشاء ورثته دية فيأخذونها ، ومن سرق منكم فرفعه المسروق الى الحاكم قطعه ، اذا سرق ما يجب فيه القطع وغرم ، ومن قذف وكان للمقذوف حد حد له ، وان لم يكن له حد عزر ، حتى تكون أحكام الاسلام جارية عليكم بهذه المعانى فيما سمينا وما لم نسم » .

ثم انتقل عمر الى تحديد المظاهر الاجتماعية وسلوك أهل الذمة فى المجتمع ، وأراد عمر أن يحتفظ العرب المسلمون بطابعهم الاجتماعى ، كما يكون لأهل الذمة صفتهم الاجتماعية، فكتب عمر: « ليس لكم أن تظهروا الصليب فى شيء من أمصار المسلمين ، وألا تعلنوا الشرك ، ولا تبنوا كنيسة ولا موضع مجتمع لصلاتكم ، ولا تضربوا بناقوس ، ولا تظهروا

لأحد من المسلمين قولكم بالشرك في عيسى ابن مريم ولا في غيره ، وعليكم أن تلبسوا الزنانير من فوق جميع الثياب والأردية وغيرها حتى لا تخفى الزنانير ، وتخالفوا المسلمين بسروجكم وركوبكم ، وتباينوا قلانسكم وقلانسهم بعلم تجعلونه بقلانسكم ، وألا تأخذوا على المسلمين سروات الطريق ولا المجالس في الأسواق » .

ثم تحدث عمر في رسالته هذه عن الواجبات المادية ، وما يدفعه أهل الذمة من جزية ، كما ترك لأهل الذمة حرية التنقل بين مدن الدولة الاسلامية ، عدا مدينة مكة باعتبارها المدينة المقدسة ، ولهم أن يقيموا في أي مدينة اسلامية ، ما عدا مدن الحجاز فلا يقيموا فيها أكثر من ثلاث ليال ، فكتب عمر : « وأن يؤدي كل بالغ من أحرار رجالكم غير مغلوب على عقله جزية رأسه ، دينارا مثقالا جيدا في رأس كل سنة ، ولا يكون له أن يغيب عن بلده حتى يؤديه أو يقيم به من يؤديه عنه ، وان افتقر منكم فجزيته عليه حتى تؤدى ، وليس الفقر بدافع عنكم شيئا ، ولا ناقض لذمتكم عما بها ، فمتى وجدنا عندكم شيئا أخذتم به ، ولا شيء عليكم في أموالكم سوى جزيتكم ما أقمتم في بلادكم واختلفتم ببلاد المسلمين غير تجار . وليس لكم دخول مكة بحال ما ، وان اختلفتم بتجارة — على أن تؤدوا من جميع تجاراتكم العشر الى المسلمين — فلكم دخول جميع بلاد المسلمين الا مكة ، والمقام بجميع بلاد المسلمين كما شئتم الا الحجاز ، فليس لكم المقام ببلد منها الا ثلاث ليال حتى تظعنوا منه » .

وحدد عمر في رسالته من يعفيهم المسلمون من دفع الجزية فقال : « ومن نبت الشعر منكم تحت ثيابه أو احتلم أو استكمل خمس عشرة سنة قبل ذلك ، فهذه الشروط لازمة ان رضيها ، فان لم يرضها فلا عقد له . ولا جزية على أبنائكم الصغار ، ولا على صبي غير بالغ ، ولا على مغلوب على عقله ولا مملوك ، فاذا أفاق المغلوب على عقله وبلغ الصبي وعتق المملوك منكم فدان دينكم فعليه مثل جزيتكم ، والشرط عليكم وعلى من رضيه ، ومن سخطه منكم نبذنا اليه » .

ثم تحدث عمر عن حقوق أهل الذمة ، وما يتعهد به المسلمون نحوهم

فقال : « ولكم أن نمنعكم ــ وما يحل ملكه عندنا لكم ــ ممن أرادكم من مسلم أو غيره بظلم بما نمنع به أنفسنا وأموالنا ونحكم لكم فيه على ما جرى حكمنا عليه بما نحكم به فى أموالنا ، وما يلزم المحكوم فى أنفسكم فليس علينا أن نمنع لكم شيئا ملكتموه محرما من دم ولا ميتة ولا خمر ولا خنزير ، كما نمنع ما يحل ملكه ، ولا نعرض لكم فيه الا أنا لاندعكم تظهرونه فى أمصار المسلمين ، فما ناله منه مسلم أو غيره لم نغرمه ثمنه لأنه محرم ولا ثمن لمحرم ، ونزجره عن العرض لكم فيه ، فان أعاد أدب بغير غرامة فى شىء منه » .

وختم عمر رسالته بقوله : « وعليكم الوفاء بجميع ما أخذناه عليكم ، وألا تغشوا مسلما ، ولا تظاهروا عدوهم عليهم بقول ولا فعل ، ولكم عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة المسلمين بالوفاء لكم ، وعلى من بلغ من أبنائكم : ما عليكم بما أعطيناكم ما وفيتم بجميع ماشرطنا عليكم ، فان غيرتم أو بدلتم فذمة الله ثم ذمة أمير المؤمنين والمسلمين بريئة منكم ، ومن غاب عن كتابنا ممن أعطيناه ما فيه فرضيه اذا بلغه فهذه الشروط لازمة له ولنا فيه ، ومن لم يرض نبذنا اليه » (١) .

علق المؤرخ (ترتون) على هذه الشروط التى وردت فى عهود عمر ، ومدى وضعها موضع التنفيذ على مر العصور الاسلامية ، فقال : مفروض على الذمى ــ من الناحية النظرية ــ مراعاة جميع شروط العهد اذا أراد الحماية ، أما الواقع فثمة مسائل قليلة تصرف عنه حماية القانون الاسلامى ، وان لم يتفق الفقهاء اتفاقا تاما على ماهية تلك المسائل وموضوعاتها . اذ يذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل للقول بأن امتناع الذمى عن دفع الجزية يمنع المسئولين من حمايته ، ويخالفهم فى ذلك الرأى أبو حنيفة ، ويرى أحمد ومالك أن هناك أربعة أمور تجعل الذمى بريئا من ذمة الشرع ، هى الكفر بالله وذكره بما لايليق بجلاله ، أو ذكر كتابه أو دينه أو رسوله بما لاينبغى ، واذ ذاك ينتقض عهده ، سواء اشترط ذلك أو لم يشترط ،

---

(١) انظر نص هذه الرسالة فى كتاب الام للشافعى حـ ٤ ص ١١٨ .

على حين أن ابن القاسم (١) قال ثمانية تنقض عهد الذميين هى أن يجمعوا على قتال المسلمين ، أو يزنى أحدهم بمسلمة ، أو يصيبها باسم نكاح ، أو يفتن مسلما عن دينه ، أو يقطع على المسلم الطريق ، أو يؤوى للمشركين جاسوسا ، أو يعين على المسلمين بدلالة فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين، أو يقتل مسلما أو مسلمة عمدا . وينصح أبوحنيفة بعدم المبالغة فى القسوة على الذميين الذين ينالون من الرسول ، ويقول الشافعى ان العفو جائز على النادم وحينذاك يرد له اعتباره ، وان يكن ابن تيمية قد ذهب الى وجوب قتل مثل هذا الشخص .

ملابس أهل الذمة :

من المسائل التى تناولها المستشرقون بالنقد ، ما فرضه كل من الخليفتين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز من قيود تتناول ملابس أهل الذمة وبعض المسائل الشكلية . وهم يعتمدون على ما ذكره مؤرخ واحد هو (أبو يوسف) . فأشار المستشرقون الى أن عمر بن الخطاب قد حدد أنواع الملابس وطريقة ركوب أهل الذمة ، فاشترط عليهم لبس الزنار ، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين فى ثيابهم وسروجهم ونعالهم ، وأمرهم أن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات ، وأن تكون قلانسهم مضربة ، وأمر عمر بمنع نساء أهل الذمة من ركوب الرحائل (٢) .

ويتحامل بعض المستشرقين ـ كعادتهم ـ على الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، فيصفه (جولد تسيهر) بالخليفة المتعصب ، ويذهب (وليم ميور) (٣) الى أن غيره عمر على الاسلام هى التى دفعته الى اضطهاد النصارى واليهود ، فكتب عمر الى عدى بن أرطأة عامله على العراق : « مروا من كان على غير الاسلام أن يضعوا العمائم ، ويلبسوا الأكسية ، ولا يتشبهوا بشىء من الاسلام ، ولا تتركوا أحدا من الكفار يستخدم أحدا من المسلمين » . وكتب عمر رسالة أخرى جاء فيها :

---

(١) انظر كتاب الميزان للشعرانى حـ ٢ ص ١٦٢ .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ ـ ٧٣ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ٤ ص ٤٣٦ .

« لا يركب نصرانى سرجا ، ولا يلبس قباء ولا طيلسانا ولا سراويل ذات خدمته ، ولا يمشين بغير زنار من جلد ، ولا يمشى الا مفروق الناحية ، ولا يوجد فى بيت نصرانى سلاح الا أخذ » (١) • وأمر عمر بعزل أهل الذمة من وظائف الدولة . كما أمر عمر أهل الذمة بأن يفسحوا المجال للمسلمين فى الطرقات وأماكن الاجتماع ، وحتم عليهم أن يحملوا شعارا معينا على أكتافهم ، يكون لونه أزرق للمسيحيين وأصفر لليهود ، وأسود أو أحمر للمجوس ، ويجب أن تكون بيوتهم اقل ارتفاعا من بيوت المسلمين ، كما كان عمر يصر على التحاق الذميين بالجيوش الاسلامية .

هذه هى المسائل التى سلط المستشرقون الأضواء عليها للاساءة الى الخليفتين العادلين اللذين اشتهرا بالعدل والتسامح ، بل أن عمر بن عبد العزيز يعتبره المؤرخون الخليفة الراشد الخامس وقد استند المستشرقون فى هذه الأمور الى كتاب واحد ، هو كتاب (الخراج) لأبى يوسف ، ولكننا لانجد مثل هذه الأوامر والنواهى فى كتب المؤرخين الأقدمين الموثوق بهم مثل الطبرى أو البلاذرى أو ابن الأثير واليعقوبى وغيرهم ، ونجد عهود عمر فى كتب هؤلاء المؤرخين القدامى خلوا من هذه الشروط وهذا التحديد للملابس ، مما يهدم كل ما ذهب اليه المستشرقون .

وقد ناقش المؤرخ (ترتون) (٢) هذه المسألة فقال : من الشروط التى اشترطها عهد عمر على الذميين لبس الزنار والنهى عن التشبه بالمسلمين فى ثيابهم وسروجهم التى يستعملونها ، وينسب أبو يوسف (المتوفى سنة ١٨٢ هـ) هذه الأوامر الى عمر بن الخطاب ، على حين أن ابن الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ يقرر أن الخليفة أمر النصارى بلبس (المنطقة) وجز مقادم شعورهم • أما العهود الواردة فى الطبرى والبلاذرى فقد خلت من الاشارة الى الملابس ، واذا ذهبنا الى ما يذهب اليه المستشرق الايطالى (كايتانى) من أن هذه العهود قد وضعت فيما بعد ، كما هو الحال ازاء العهد لبيت المقدس ، فان خلو هذه العهود من الاشارة الى الملابس يدفع الانسان للشك القوى فى حقيقة اصدار عمر لهذه الأوامر .

(١) ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٦٣ .
(٢) أهل الذمة فى الاسلام ص ١٢٢ .

ونحن نرى أنه لو افترضنا جدلا حقيقة هذه الأوامر الصادرة عن الخليفتين ، فقد كان هذا لاغبار عليه ، فهو نوع من التحديد للملابس فى نطاق الحياة الاجتماعية ، للتمييز بين أصحاب الأديان المختلفة ، وخاصة أننا فى وقت مبكر من التاريخ ، ليس فيه بطاقات تثبت الشخصية ، وما تحمله عادة مثل هذه البطاقات من تحديد الجنسية والدين والعمر وغير ذلك . فقد كانت الملابس المتميزة هى الوسيلة الوحيدة لاثبات دين كل من يرتديها ، وكان للعرب المسلمين ملابسهم ، كما للنصارى أو اليهود أو المجوس ملابسهم أيضا ، واذا كان المستشرقون قد اعتبروا أن تحديد شكل ولون الثياب هو من مظاهر الاضطهاد ، فنحن نقول لهم ان الاضطهاد فى هذه الصورة يكون قد لحق بالمسلمين وأهل الذمة على السواء . واذا كان الخلفاء ينصحون العرب والمسلمين بألا يتشبهوا بغيرهم ، فمن المنطقى أن يأمروا غير العرب وغير المسلمين بألا يتشبهوا بالعرب المسلمين

وناقش المؤرخ (ترتون) (١) هذه المسألة أيضا وأبدى رأيه فيها فقال : كان الغرض من القواعد المتعلقة بالملابس سهولة التمييز بين النصارى والعرب ، وهذا أمر لايرقى اليه الشك ، بل نراه مقررا تقريرا أكيدا عند كل من أبى يوسف (٢) وابن عبد الحكم (٣) ، وهما من أقدم الكتاب الذين وصلت كتبهم الينا ، على أنه يجب أن نلاحظ أنه لم تكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام النصارى بلبس نوع معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون ، اذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة ، وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو الزام ، على أن الحاجة استلزمت هذه الفروض فيما بعد حين أخذ العرب بحظ من التمدن ، اذ حمل الاغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم فى ملابسهم والتشبه فى ثيابهم .

ومهما كان الرأى ، فان كانت هذه الأوامر التى تحدد أنواع وأشكال الملابس حقيقية ، فانها لم توضع موضع التنفيذ فى معظم العصور التاريخية

(١) المصدر السابق .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١ .

وهناك فرق بين وجود القانون ومدى تطبيق هذا القانون ، فقد اتنهج معظم الخلفاء والولاة المسلمين سياسة تسامح وأخاء ومساواة ، ولم يتدخلوا كثيرا فى تحديد ملابس أهل الذمة ، ولم ترتفع أصوات مطلقا بالشكوى أو الاحتجاج .

وهناك أدلة تاريخية تثبت هذه الحقائق التى ذكرناها ، فقد كان الأخطل الشاعر النصرانى (المتوفى سنة ٩٥ هـ) يدخل على الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وعليه جبة وحرز من الخز وفى عنقه سلسلة بها صليب من الذهب ، وتنعض لحيته خمرا (١) ، ويحسن الخليفة استقباله . كما أن الاتفاقية التى وقعها المسلمون فى سنة ٩٨ هـ مع (الجراجمة) المسيحيين الذين يسكنون المناطق الجبلية من بلاد الشام تضمنت النص على أن يلبس الجراجمة لباس المسلمين (٢) .

تحدث أبو يوسف عن لباس أهل الذمة وزيهم فقال : « لايترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا فى مركبه ولا فى هيئته » . واعتمد أبو يوسف فى تفسير ذلك على قول عمر بن الخطاب : « حتى يعرف زيهم من زى المسلمين » . أى أن لا اضطهاد فى الأمر ، انما هى وسيلة اجتماعية للتمييز ، مثلما نرى اليوم فى كل مجتمع حديث من تعدد الأزياء ، لكل طائفة أو أصحاب حرفة أو مهنة زى واحد يميزهم .

ويعلق المؤرخ (آدم متز) (٣) على ما يعيبه بعض المستشرقين على المسلمين من أنهم كانوا يختمون على رقاب أهل الذمة عند دفع الجزية فيقول : (ويظهر أن هذا الأمر نادرا ما كان يقع » . كما يذكر (متز) أيضا أن هذه العادة قديمة ترجع الى عصر الأشوريين الذين كانوا يعلقون فى رقاب العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوبا عليها اسم العبد واسم سيده ، وكان اليهود فى عهد التلمود يعلمون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب .

---

(١) الاصفهانى : الاغانى حـ ٧ ص ١٦٩ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦١ .
(٣) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى حـ ١ ص 81 .

قواعد فقهية في التزاوج والقضاء والارتداد والمواريث والتجارة :

لم يكن هناك تزاوج بين المسلمين والكتابيات على نطاق واسع ، وذلك لأن القانون المسيحى لم يكن يجيز المرأة النصرانية أن تتزوج بغير نصرانى ، لئلا تنتقل هى وأولادها الى غير المذهب ، ولا كان يجوز للنصرانى بحسب قانون الكنيسة أن يتزوج بغير نصرانية الا رجاء ادخالها هى وأولادها فى النصرانية .

أما زواج المسيحى من مسلمة فكان محرما ومستحيلا . وكانت الدولة الاسلامية تضمن ككل ديانة من ديانات أهل الذمة كيانها الخاص ، فكان لا يجوز للمسيحى أن يتهود ، ولا لليهودى أن يتنصر ، ولا يكون تغيير الدين الا اذا كان ذلك دخولا فى الاسلام ، ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ولا العكس ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ولا المسلم غير المسلم يهوديا كان أو نصرانيا . وقد أصدر الخليفة العباسى المقتدر فى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣م) يخلف فى المواريث أمر فيه بأن (ترد تركة من مات من أهل الذمة ، ولم يخلف وارثا على أهل ملته) على حين أن تركة المسلم كانت ترد الى بيت المال (١) .

يأمر الاسلام بالرفق بأهل الذمة ، فقد روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال : «من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه» (٢) . وقال أبو بكر : « لاتقتلن أحدا من أهل ذمة الله فيطالبك الله بذمته فيكبك الله على وجهك فى النار » (٣) وحينما توجهت الجيوش الاسلامية الى بلاد الشام خطب أبو بكر فى الجند فقال : « لاتمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرا الا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله » .

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية حـ ١ ص ٥٩ .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧١ .
(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى حـ ٣ ص ١٢٧ .

يستحيل على المسلمة ــ كمــا ذكرنا ــ الزواج من غير المسلم ، أما الرجل فهناك موانع تمنع زواج المسلم من غير المسلمة ، كأن تكون المرأة المراد الدخول بها مجوسية أو وثنية أو زنديقة لاتنسب الى نبى ولا الى كتاب • ويقول الغزالى ان المرأة المسلمة يجب ألا تكشــف جسمها للذمية فى الحمام ، وهو يرى أن ذلك قد يحدث فى الحمام الذى يغشاه الذميون والمسلمون ، والرجال والنساء على السواء (١) •

خضع أهل الذمة لقضاتهم فى المسائل التى تخصهم ، أما المسائل التى يشترك فيها أهل الذمة والمسلمون فقد كان القضــاة المسلمون ينظرون فيهــا .

اذا أسلمت زوجة الذمى وهى ما تزال تحته وكانت حاملا فى الوقت ذاته حقت لها النفقة حتى تضع حملها ، فان أرضعته كان لها أجر الرضاع، واذا أســلم أحد الوالدين أعتبر الأولاد الذين دون الحلم مســلمين . ولا يوافق الشــافعى على ما يذهب اليــه البعض من أن الأولاد الذين يولدون قبل اسلام أبويهم يبقون على غير الاسلام حتى يقفوا على أسرار الدين فيعتنقونه من تلقاء ذاتهم ، واذا أسلمت زوجة الذمى بعــد دخوله بها فلها المهر كاملا غير منقوص ، أما اذا كان اسلامها قبل أن يدخل بهــا الذمى تقاسمته واياه مناصفة . ويحتم الشــافعى على الذمية التى تتزوج مسلما أن تراعى بعض شروط الاسلام كالوضوء والا جردت زوجهــا من حقوقه (٢) .

واذا طلق المسلم زوجته النصرانية ثلاث مرات ، ثم تزوجت نصرانيا ثم طلقها ذلك النصرانى حل للمسلم الزواج منها مرة أخرى بعد انقضــاء عدتها ، واذا أسلمت جارية النصرانى حيل بينها وبينه وأعتقت عند موته . أما اذا أسلمت زوجة النصرانى وزوجهــا غائب فى سفر طويل ، فلهــا أن تنتظر عودته ، لعله يسلم هو الآخر ، أو تتزوج غيره ان أحبت (٣) .

---

(١) احياء علوم الدين حـ ٢ ص ٢٣٥ .
(٢) الشافعى : كتاب الام حـ ٤ ص ١٨٣ .
(٣) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٠٣ .

ويرى الفقهاء أنه اذا اقترف المسلم الفحشاء أو زنا بامرأة ذمية وقع عليه الحد ، أما المرأة فترد الى أهل دينها فيحكمون عليها بما يرون ، ولا يحق للحاكم الاسلامى اتخاذ أى اجراء آخر ، اذ أن ذلك يعد تدخلا فى شئون أهل الذمة . أما اذا اقترف النصرانى الفحشاء فانه لايؤخذ بالشدة التى يؤخذ بها المسلم ، فلا يطبق عليه الشرع من حيث الحد .

واذا أقسم النصرانى ألا يقرب زوجته أربعة أشهر ثم احتكما فى نهاية المدة الى القاضى المسلم أجرى القاضى حكم الشرع الاسلامى ، واذ ذاك يكون له أن يقضى بالعودة الى بيت الزوجية أو بالتفرقة بينهما بالطلاق ، ويشير الشرع على الزوج أن يدفع لزوجته تعويضا ، الا أنه لايملك من القوة ما يرغمه على التزام الحكم بالتعويض . أما اذا قذف النصرانى زوجته فرافعته وتحاكما الى القاضى قضى لهما كما يقضى بين المسلمين ، فان رفض الزوج الخضوع للحكم عزر ولم يحد ، اذ ليس ثم حد على قاذف النصرانية (١) واذا ارتكبت جارية الذمى جريمة عرض على صاحبها أن يعتقها بقيمتها اذا كانت الجناية أكثر من قيمتها ، وان كانت أقل لم يكن عليه الا الذى هو أدنى ، فان أبى أسلمها بجنايتها .

تحدث أبو يوسف عن « الحكم فى المرتد عن الاسلام » ، فقال : « وأما المرتد عن الاسلام الى الكفر فقد اختلفوا فيه ، فمنهم من رأى استتابته ومنهم من لم ير ذلك ، فقال : « وأحسن ما سمعنا فى ذلك والله أعلم أن يستتابوا ، فان تابوا والا ضربت أعناقهم على ما جاء من الأحاديث المشهورة ، وما كان عليه من أدركناه من الفقهاء » (٢) .

واتفق الأئمة على قتل المرتد عن الاسلام ، بيد أنهم اختلفوا حول المدة التى ينفذ بعدها الحد فيه ، فيقول أبو حنيفة انه يجب قتله فى الحال، ولا يتوقف على استتابته ، وان يكن بعض أتباعه يرون أن يمهل ثلاثة أيام، ويقول مالك : ان المرتد يجب أن يستتاب ، فان تاب فى الحال قبلت توبته وان لم يتب أمهل ثلاثة أيام لعله ينيب ، فان تاب كان بها والا قتل . أما

---

(١) الشافعى : كتاب الام حـ ٤ ص ١٨٤ .
(٢) ابو يوسف : الخراج ص ١٠٩ .

أحمد بن حنبل فله رأيان فى هذه المسـألة يتفق أولهما مع مذهب الامام مالك ، وثانيهما يقول انه لاتجب الاستتابة ، كذلك اختلفت الروايات عنه فى وجوب الامهال .

أما اذا ارتدت المرأة عن الاسلام فيرى أبو حنيفـة حبسها ولا يجيز قتلها ، ثم تدعى الى الاسلام وتجبر عليه ، على حين يرى غيره من الفقهاء وجوب معاملتها معاملة الرجل المرتد (١) .

واذا لحق المرتد ـ رجلا كان أو امرأة ـ بدار الحرب أعتبر فىعداد الموتى ، وقسم ما خلفه بين ورثته ، وعتق عبيده وأمهات أولاده ، ويفرق بينه وبين امرأته ، ويحق لها الزواج بعد أن تعتد بثلاث حيضات منذ يوم ارتداده عن الاسلام ، وكل شىء يدخل به المرتد من ماله الى دار الحرب فيصيبه المسلمون فهو غنيمة بمنزلة الغنيمة فى الحرب (٢) .

ويقول المؤرخ (آدم متز) (٣) حول ذلك : وكان تغيير الدينلايجوز الا اذا كان دخولا فى الاسلام ، فكانت الطوائف الدينية منفصلة بعضـها عن بعض ، وكان المسلم اذا ارتد عن الاسلام عوقب بالقتل ، كما أن قانون الدولة البيزنطية كان يقضى بقتل المسيحى اذا هو غير دينه .

وكان تعـديل الدين حائلا دون الوراثة ، وتجـد الرواية الأصل التاريخى لهذا الحكم فى قرار أصدره عمر بن الخطاب ، وذلك أن الأشعث طلب أن يرث أملاك عمته التى تزوجت يهوديا ثم ماتت بلا ولد ، فرفض عمر بن الخطاب طلبه ، ومن هنا جاء الحكم بحرمان ابن الذمى من أملاك أبيه اذا أسلم الابن ، كما تسقط ولاية الذمى على ابنته المسلمة فى الزواج.

قال عمر بن عبد العزيز : أيما ذمى أسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله ، وماكان من أرض فانهـا من فىء الله على المسلمين ، وأيمـا قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن منهم أسلم كانت داره وأرضه لبقيتهم .

ومع أن فكرة استرقاق الذمى للمسلم مكروهة ، الا أن الفقهاء لم

---

(١) الشعرانى : الميزان حـ ٢ ص ١٣١ .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ١١١ .
(٣) الحضارة الاسلامية حـ ١ ص ٥٧ ، ٥٨ .

يستطيعوا أن ينكروا على الذمى حقه فى شراء أى جنس من العبيد يقع عليه اختياره ، فالبيع شرعى ، لكن الشافعى يميل لحمل النصرانى على بيع عبده المسلم لرجل مسلم ، وعلى هذا فان اسلام العبد الذمى يرغم مولاه النصرانى أو قسيمه على بيعه أو بيع نصيبه فيه (١) ، واذا أسلم العبد الذمى وكان مولاه الذمى غائبا باعه السلطان ولم ينتظر عودة صاحبه .

ولا يجوز للمسلم أن يوصى بأى شىء للذمى ، ولكن يحق له أن يقبل مايوصى به الذمى له ، ان لم يكن فى تركته خمر أو خنزير أو مايخاف أن يلتزم به الجزية واذا وهب الذمى مسلما هبة بعهد ثم حاول الرجوع فى هبته حكم عليها بحكم المسلمين وقضى على الذمى بالدفع ، أما اذا كانت الهبة من ذمى لذمى ، وبدا للموهب أن يرجع فيما وهب فلا يقضى بينهما. ولم يكن ينظر بعين الرضا لاستدانة المسلم مالا من نصرانى ، وهذا تطبيق للرأى القائل بأنه لا ينبغى أن تكون للذمى سلطة على المسلم (٢) .

ويسمح بالمشاركة بين ذمى ومسلم فى التجارة ، على أن يكون المسلم حاضرا جميع العمليات التى يقوم بها شريكه . ويرى مالك أن يستئجر المسلم عبده النصرانى ولا يأمره بيع شىء . ويرى مالك أيضا أن ليس من الصواب للمسلم أن يستأجر بستانا من نصرانى على أساس المناصفة فى الربح ، رغم أنه يرى ألا بأس فى أن يدفع المسلم الى النصرانى كرمه مساقاة اذا لم يكن النصرانى يعصر حصته خمرا . واذا كان نصرانى ومسلم يمتلكان دارا واحدة ورغب المسلم فى بيع نصيبه كان للنصرانى حق الشفعة (٣) . ولا يجوز للذمى أن يجبى أرضا بورا ، فان أحياها لم تكن له باحيائها بل أخذ منها عمارتها فقط ، ولا يحل للمسلم أن يرتهن من الذمى خمرا أو خنزيرا . وينص عهد عمر بن الخطاب على أنه لايجوز لذمى أن يبيع لمسلم خمرا أو يعرضها فى السوق ، ورأى الشافعى أنه اذا

---

(١) الشافعى : كتاب الام حـ ٤ ص ١٣٣ .

(٢) أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٣) الشافعى : كتاب الام حـ ٤ ص ١٨٨ .

باع الذمي الخمر لمسلم فعلى الحكومة أن تبطل البيع ويبطل ثمنها اذا كان قد دفع ، وتهرق السائل ، وتعاقبت البائع (١) .

كانت ضريبة عشور التجارة تختلف باختلاف أديان التجار ، فكان يفرض على التاجر المسلم ربع العشر أى درهم عن كل أربعين درهما ، وعلى الذمى نصف العشر أى درهم عن كل عشرين درهما ، وعلى من لا ذمة له العشر (٢) . بشرط أن تزيد قيمة التجارة على مائتى درهم (٣) . ولا تؤخذ الضريبة من كل تاجر الا مرة واحدة كل سنة ، ولو تكرر قدومه بالتجارة الى البلدة ، كما لاتؤخذ من التاجر الا اذا انتقل من بلاده الى بلاد أخرى ، وهذا ما نسميه اليوم بالضرائب الجمركية .

(١) المصدر السابق ح ٤ ص ١٣١ .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٦٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٧ .

الفصل الخامس

أهل الذمة فى ظل التسامح الإسلامى

التسامح فى الاسلام :

نعنى بالتسامح الدينى أن يكون لكل فرد فى الأمة حق فى أن يعتقد ما يراه حقا ، وأن تكون له الحرية فى تأدية شعائر دينه كما يشاء ، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء •

وينظر الاسلام الى الأديان الأخرى نظرة تسامح ، فقد سمى اليهود والنصارى أهل كتاب ، وسماهم أهل ذمة ، وهما تسميتان رقيقتان • والاسلام يعترف بنبوة الأنبياء السابقين ، ونصح الاسلام المسلمين اذا دخلوا فى جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين أن يجادلوهم بالحسنى، فقال الله عز وجل : (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) • كما قال المولى سبحانه وتعالى أيضا : (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) •

دعا الاسلام الى التسامح غير الذليل ، فهو يبنى العلاقات الانسانية سواء أكانت بين الأفراد أم كانت بين الجماعات على التسامح • وقد ذكر الله ــ سبحانه وتعالى ــ ضرورة دفع العداوة بالتى هى أحسن ، وأن هذا الدفع الكريم هو الذى يجلب المحبة • وأمر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أن يصفح المسلم الصفح الجميل عمن يعاديه ، وقد طبق الرسول مبدأ التسامح فى علاقاته بالمشركين وغيرهم فى معاهداته وفى حروبه •

والصفح الجميل أبرز ما يكون ظهوره عند الانتصار ، فما كانت الحرب للثأر والانتقام ، بل لاعلاء الحق ودفع عدوان الباطل .

وبذلك يتبين أن التسامح والصفح الجميل هو السياسة الاسلامية التى رسمتها النبوة فى العلاقة بين الناس بعضهم مع البعض ، وخصوصا بين المسلمين وغيرهم ، وهى السياسة المطلقة فى حال السلم ، والسياسة الشافية للقلوب المجروحة فى أعقاب الحرب .

ويدعو الاسلام الى أنه لا اكراه فى الدين ، ويعترف الاسلام بما قبله من كتب سماوية صحيحة وينصح الناس بالتعايش الاجتماعى السلمى ، ولا ينال الاسلام من عقيدة الآخرين ، بل ينظر دائما الى أهل الذمة بعين الرعاية والتسامح . والاسلام هو آخر أدوار التطور الدينى للتسامى والتكامل بالتطور الدينى ، وهو دين يتجاوب مع أرفع النظم وأسمى التقاليد، ويدعو الى الانسانية ، وهو حضارة عامة شاملة تنتظم كل من يعيش تحت سمائها من أجناس مختلفة ومن أهل ذمة فى حرية وصفاء .

والاسلام يدعو أيضا الى تعاون أبناء المجتمع البشرى جميعا دون تفرقة عنصرية أو عصبية دينية ، ولا تفضيل أمة على أخرى ، الا بالتقوى ، وما تحقق من منافع للبشرية ، ويدعو الاسلام الى الانسانية والتعاون العالمى . وحارب الاسلام كل لون من ألوان العصبية ، فالعصبية تدعو الى الصراع الاجتماعى ، وتفرق بين الناس . ويدعو الاسلام الى أن يعيش العالم كله بشعوبه وعناصره فى مجتمع واحد ، ويكفل الاسلام الأمن والسلام ، والحرية والاخاء . فقد دعا الاسلام الناس ، مع دعوته الى تكوين أخوة اسلامية قوية ، الى أخوة انسانية عامة شاملة .

ودعا الاسلام الى السلم فى كافة أحواله ، واعتبر الحرب من اغراء الشيطان ، ومن يسير فيها انما يسير فى خطوات الشيطان ، وصرح بأن من يلقى السلام لابد من الامتناع عن قتاله ، ولقد صرح فوق ذلك بأن من يلقى السلام لا يصح أن يقاتل بدعوى أنه غير مؤمن .

ان الهدف الأسمى للاسلام هو خلق مجتمع بشرى صالح يعيش فى أمن وسلام . وهذا الهدف ليس نظرية خيالية ، ولكنه حقيقة عملية ، يعمل

الاسلام على تحقيقه ويسوس الناس لايجاده ، والعنصر الهام لضمان صلاح المجتمع وتقدم الانسانية هو طمأنينة الناس فى معاشهم وحياتهم حتى يتفرغوا لعمران الانسانية وتمدن العالم •

والاسلام دين يؤمن بالانسانية العامة الشاملة ، ولا يميل الى استخدام القوة والعنف ، وانما يدعو الى سبيل ربه بالموعظة والحكمة ويجادل الناس بالتى هى أحسن • ولجأت الدولة الاسلامية فى معظم فترات تاريخها الى سياسة التعايش الدينى من أجل تحقيق التعايش السلمى، ذلك التعايش الذى ينشر المحبة والاخاء والتعاون والسلام ، مما يؤدى الى الانسانية فى أسمى صورها ومعانيها •

حقوق الانسان فى الاسلام :

فتح الاسلام صفحة جديدة فى تاريخ البشرية ، وكتب سفرا خالدا حافلا ، بأروع جهاد عرفته الانسانية ، وبأعظم دعوة وصلت الى الأرض من السماء ، وأكبر ثورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا • ثورة على الجمود البشرى واضطهاد الانسان لأخيه الانسان ، مما اعترف به المفكرون والمؤرخون ودعاة الاصلاح •

لقد كانت رسالة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أول اعلان عالمى لحقوق الانسان ، وأكبر حركة لتأييد كرامته وشخصيته فى الحياة ، واصلاحا عاما شمل جميع ميادين الاصلاح (١) •

كانت حياة محمد مرحلة لها أثرها العميق فى تاريخ البشرية جمعاء ، فقد تكشفت عن دين رشيد ، وشريعة غراء ، وأمة مستعدة لحمل مشعل الحضارة ، وفلسفة فى الحياة تتميز بالنقاء والصفاء • واعترف الاسلام للانسان بحريته ، واستقلاله الفكرى والاجتماعى والمالى ، ورفع من كرامة الانسان ومعنويته ، وجعله خليفة له فى الأرض يعمرها ، ويمحو منها الظلام والفوضى والجهل والجمود ، بما وهبه الله من عقل ، وما حث عليه من العلم والعمران والاخاء ، التى هى دعائم كل حضارة ومدنية •

---

(١) خفاجى : الاسلام وحقوق الانسان .

والاسلام يصون حقوق الانسان تماما ، فهـو يؤكد حرية الرأى ، وحرية العقيدة ، وحرية الفكر ، ويحرر الانسان من الخوف ومن العوز ، ويضع شرائع تبطل الفروق بين الناس وتلغى الامتيازات الطبقية ، وتنشر الاخاء والمساواة والمحبة بين الناس . ويصف الرسول عليه الصلاة والسلام الجمـاعة البشرية فى حديث شريف ، فيقول : (الخلق كلهم عيـال الله ، فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله) ، ثم يوصى الرسول الكريم البشر بالأخوة فيقول : (كونوا ــ عباد الله ــ اخوانا) .

ضمن الاسلام حرية الاقامة لمن يستظلون برايته ، وضمن حرية تقرير المصير لمن يخالفونه ، فقرر أنه لا يجوز للمسلمين أن يعتدوا على أحـد ، فالاسلام يدعو الى الحق والخير والعدل والمساواة والحرية ، والى التعاون والاتحاد والشورى ، والى الأخوة العامة ، والزمالة البشرية ، والى المدنية والحضارة والرقى والثقـافة ، والى روح الانسانية فى الفـرد والجماعة والأمة ، والى تطبيق المثل العليا التى دعا الاسلام اليها .

ويعتبر الاسلام الناس جميعـا أمة واحدة لا تفـرقها الألوان ، ولا الأقاليم ، ولا الجنسـية ، واذا اختلفت الأديان فان أهـل كل دين لهم أن يدعوا الى دينهم بالحكمة والموعظة ، من غير تعصب أو اكراه . واذا كان الناس أمة واحـدة فان أخوة الانسانية ثابتـة يجب وصلها ، ولا يصح قطعها ، وقد أمر الله تعالى بأن توصل القلوب والمودة ، فالبر ثابت للمسلم وغير المسلم .

والاسلام دين يتجه الى العقل ، ويوافق الميول الطبيعية فى الانسان، وهو أول دعوة عالميـة توفر المقومات لتعاون انسـانى عالمى ، وتحقيق الانسجام البشرى ، والاسلام هو حمام الأمن والسـلام لحياة الانسـان الروحية والمادية ، ويجد الانسان فى الاسلام من المرونة ومجابهة الواقع ، ومن الوعى الحقيقى الكامل للطباع البشرية ومطالب الحياة ، مما لايجده فى غيره من الأديان أو النظم الوضعية .

وأثبت النظام الاسـلامى الاجتماعى أنه النظـام العـالمى الوحيد الثـابت . وفى التعاليم الاسلامية تجد أسس علاج المشـاكل الاجتماعية

والاقتصادية والسياسية التى تعانى البشرية منها فى كل زمان ومكان • فالاسلام مؤسس على قواعد عمرانية واجتماعية لا نظير لها فى أى مذهب دنيوى من المذاهب الحديثة • ومن مميزات الشريعة الاسلامية أن تعاليمها ونصوصها تجمع بين البساطة والتعمق ، يفهمها العامة والخاصة • وهذه الشريعة الغراء تتمشى مع تطور الحياة الاجتماعية •

والتعاليم الاسلامية ، وحضارتها ونظمها ، تقوم على أساسين رئيسيين ، أساس روحى أو عاطفى ، وأساس عقلى أو منطقى • وقد جعل الاسلام العقل حكما فى كل شىء ، والنظم الاسلامية تستند الى العقل • ويكفل الاسلام للمسلمين وغير المسلمين السعادة فى حياتهم ، ويضمن لهم التكافؤ الاجتماعى ، والعدالة الاجتماعية •

تحدث (ماسينيون) عن مبادى المساواة فى الاسلام فقال : يمتاز الاسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر فى موارد الجماعة • وللاسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام ، ماض كله التوفيق فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات • ولقد برهنت الطوائف الاسلامية الكبرى فى افريقية والهند والهند الشرقية ، والجماعات الاسلامية فى الصين واليابان ، على أن الاسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التى لا سبيل الى التوفيق بينها •

موقف أهل الذمة من الفتوحات الاسلامية :

اختلف المستشرقون فى العوامل التى أدت الى سياسة الفتح التى اتبعها الخليفتان الأولان ، أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، فبعضهم يرى أن الرسول كان يسعى الى انشاء امبراطورية اسلامية عالمية ، وكانت حملة أسامة بن زيد التى أعدها قبل وفاته بقليل أول خطوة لتنفيذ هذه السياسة التى أتمها أبو بكر وعمر • فيرى (دى غويه) أن هناك ثلاثةأسباب دفعت أبا بكر الى الفتح ، أولها رغبة محمد فى نشر الاسلام بين كل العرب ،

داخل الجزيرة العربية وخارجها • وثانيهما رغبة محمد فى أن يسود الاسلام العالم • وثالثها رفض كسرى الفرس وقيصر الروم قبول الاسلام لما دعاهما الرسول الى ذلك فى كتبه التى بعثها اليهما • ويردد بعض المستشرقين أن العوامل الاقتصادية هى الأسباب المباشرة للفتوحات العربية الاسلامية •

من اليسير الرد على آراء هؤلاء المؤرخين المستشرقين ، فهناك نصوص صريحة فى القرآن الكريم تدل على أن الله بعث رسوله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وفى الحديث ما يدل على ذلك أيضا ، ولو مد الله فى عمر رسوله لكان الرسول أول من جهز الجيوش لفتح الأمصار التى حوله • ويؤيد (أرنولد) (١) حقيقة عالمية الدين الاسلامى ، فيقول : لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل ان للعالم أجمع نصيبا فيه ، ولما لم يكن هناك غير اله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى اليه الناس كافة •

قال الله تعالى : (ان هو الا ذكر للعالمين • ولتعلمن نبأه بعد حين) (٢) ، كما قال عز وجل : (ان هو الاذكر وقرآن مبين • لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) (٣) ، وقال سبحانه وتعالى أيضا : (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٤) •

من مميزات الاسلام ملاءمته لجميع الأجناس البشرية ، فلم يكن العرب وحدهم هم الذين أتبعوا الاسلام ، فقد أكد الاسلام منذ الساعة الأولى لظهوره أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان ، واذا كان صالحا بالضرورة لكل جنس كان صالحا بالضرورة لكل عقل ، اذ هو دين الفطرة ، والفطرة لا تختلف فى انسان عن آخر ، وهو لكل ذلك صالح لكل درجة من درجات الحضارة (٥) •

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٤٨ — ٥٠ •
(٢) سورة ٣٨ آية ٨٧—٨٨ •
(٣) سورة ٣٦ آية ٦٩—٧٠ •
(٤) سورة ٣٤ آية ٧ •
(٥) ايتين دينية : محمد رسول الله ص ٣٤٥ •

يزعم المستشرق المتعصب (وليم ميور) أن الدين الاسلامى لم يهيأ الا لبلاد العرب ، ولكن هذا يتنافى مع ما نعلمه من أن الرسول كان يهدف الى نشر الاسلام بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم ، فهو مؤمن تماما أن الاسلام يصلح لجميع البشر ، فقد تكفل القرآن الكريم بتبيان كل شيء ، فقد قال الله عز وجل لرسوله : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (١) ، كما قال سبحانه وتعالى : (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) (٢) .

لم تكن العوامل الاقتصادية ، كما يزعم بعض المستشرقين ، اذا هى دوافع الفتوحات الاسلامية ، فلا شك أن الدافع الأول للفتح هو نشر الاسلام ، كما كان غرضها دفاعيا أو لصد هجوم متوقع ، لينفسح الطريق أمام الدعوة .

دخل الفاتحون العرب بلاد الشام فوجدوا قوميات مختلفة ، فقد تعاقبت على هذه البلاد مدنيات مختلفة فأورثتها علمها وحضارتها وقوميتها، وأمن العرب الفاتحون أهالى الشام ، على اختلاف قومياتهم ، على أنفسهم وأموالهم ، وكانت كتب الصلح العديدة توضح تماما هذه السياسة . بل ان العرب المسلمين لم يكونوا قساة مع الروم ، وهم الذين جابهوهم بالحرب . وقابلوهم بالقوة ، فانهم لا يريدون عداوتهم ما دام غرضهم البعيد أن يتألفوهم فى دعوتهم ، وأن يضموهم الى قوميتهم ، وأن يطووهم فى دينهم بقدر الامكان ، فلذا فهم لم يخرجوهم من الشام أسرى مقيدين (٣) . ولا شك أن هذا اليسر والتسامح قام بدور كبير فى التقريب بين الفاتحين والأهالى ، فلم يشعر السكان أن هناك طبقة من فوقهم ، مما أدى الى اقتراب القوميات ثم امتزاجها ، كما مهد الطريق أمام انتشار الاسلام ، والتقريب الجنسى واللغوى .

وكان للفتح العربى الاسلامى لبلاد العراق أثر كبير فى أهالى هذه البلاد ، فقد رحبوا بالعرب المسلمين كل الترحيب ، ووجدوا فيهم المنقذ

---

(١) سورة النحل ١٦ آية ٨٩ .
(٢) سورة الانعام ٦ آية ٣٨ .
(٣) انظر عهد عمر لاهل بيت المقدس فى تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١٠٥ .

المنشود الذى يخلصهم من ظلم دولة الأكاسرة الساسانيين (١) • وان كان بعض الفرس قد وقفوا الى جانب كسرى فى قتاله للعرب ، الا أن غالبية الفرس كانوا زاهدين فى المظاهر القومية ، اذ قد ضعفت معانى الاستقلال فى نفوسهم ، وهم بما صاروا اليه من سوء الحال يحاولون أن يضعوا أيديهم فى يد كل من يعمل على تيسير سبل المعيشة لهم (٢) • كما وجدوا فى الفتح العربى خلاصا من الخدمة العسكرية ، وأملا فى تمتعهم بالحرية الدينية ، هذا بجانب المميزات الأخلاقية التى تمتع بها العرب الفاتحون .

رحب أهالى مصر بالفتح الاسلامى ، وأتبع الفاتحون العرب سياسة التسامح حتى يحببوا سكان مصر فى الحكم العربى الاسلامى الجديد • وكان هؤلاء السكان طبقتين : الأقباط والروم • أما الأقباط فقد أتاح لهم العرب المسلمون الحرية والأمان ، بل ان الاسكندرية رغم أنها تقضت الصلح مع المسلمين ، ورغب الجند العرب فى جعلها فيئا للمسلمين لأنهم فتحوها عنوة ، لكن عمر بن الخطاب أبى ذلك وأمر عمرو بن العاص ألا يجعل فيئا ولا عبيدا (٣) • أما الروم الذين قاتلوا المسلمين ، فقد خيرهم المسلمون بين أن يدخلوا فى ذمتهم وبين أن يؤمنوهم حتى ينصرفوا عن أرض مصر فلا يعودوا اليها (٤) • أما طبقة الروم المسالمة ، فقد عوملوا معاملة الأقباط • وهناك طبقة ثالثة من الروم كان لها النفوذ قبل الفتح ، وعلى رأسهم المقوقس الذى كان يطمع فى حكم مصر باسم المسلمين كما حكمها من قبل باسم القسطنطينية ، ومنهم القائد كلاجى والقائد سبنديس اللذان انضما الى المسلمين ، وقد استعان العرب بهذه الطبقة فى الحكم والادارة (٥) •

لما بلغ الجيش الاسلامى وادى الأردن ، كتب الأهالى المسيحيون الى

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩ •
(٢) كرد على : الاسلام والحضارة العربية حـ ١ ص ٢٠٢ •
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٧٥ •
(٤) الطبرى حـ ٣ ص ٩ •
(٥) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٣٥ و ٣١٤ •

المسلمين يقولون : « يا معشر المسلمين ، أنتم أحب الينا من الروم ، وان كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا » • وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الروم وتعسفهم •

ولما عقدت دمشق الصلح مع العرب المسلمين ، ولمست سائر مدن الشام تسامحهم وعدلهم ، أسرع أهالى هذه المدن الى طلب الصلح مع العرب ، وكان خوف هؤلاء الأهالى من أن يكرههم الامبراطور الرومانى على اتباع مذهبه ، ووعد المسلمين لهم بمنحهم الحرية الدينية من عوامل ترحيبهم بالفتح الاسلامى وعدم الارتباط بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية (١) •

تحدث المستشرق (كايتانى) عن موقف المسيحيين من الفتح الاسلامى ، فقال : قبل السكان عن ارتياح واضح تغيير الحكومة ، وذلك بمجرد أن علموا أن العرب المسلمين سيحترمون حقوقهم الشخصية ، وسيتركون لهم الحرية العامة فى اقامة شعائرهم الدينية • وفى الشام أسرعت مدن ومقاطعات بأكملها الى التفاهم مع العرب حتى قبل أن تقع هزيمة الروم النهائية • وفى العراق قبل أهلها الحكم الاسلامى دون قيد أو شرط •

مظاهر التسامح الاسلامى مع أهل الذمة :

تمتع أهل الذمة بالحرية والتسامح والعدل ، مقابل أداء جزية عادمة معقولة ، وارتبطت بالفعل قضاياهم فى الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين مادامت القضية لاتمس المسلمين ، أما الشريعة الاسلامية فلم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم • وتعهد المسلمون لأهل الذمة بحمايتهم وتوفير العدل والسلام لهم ، وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم ، فكانوا لايدفعون سوى عشر التجارة والجزية ، بينما هم معفون من الذكاة

---

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٨٨ •

والصدقات • وكانت الجزية تساوى ما يدفعه المسلم من صدقة ، وأعفى من الجزية الصبيان والنساء والمساكين وذوى العاهات والرهبان •

كتب ميخائيل الأكبر بطريق أنطاكية اليعقوبى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر يشيد بمعاملة المسلمين للمسيحيين وقت ألفتوحات الاسلامية ، فتحدث عن اضطهاد هرقل لأهالى الشام ثم قال :

« •• وهذا هو السبب فى أن اله الانتقام الذى تفرد بالقوة وبالجبروت والذى يديل دولة الشر كما يشاء ، فيؤتيها من يشاء لما رأى شرور الروم الذين لجأوا الى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء اسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا من قبضة الروم •• لم يكن كسبا هينا أن تتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام » •

وقد حوى تاريخ الخلفاء الراشدين أمثلة كثيرة للتسامح الدينى نحو أهل الذمة ، وكثيرا ما كان هؤلاء الخلفاء يوصون الجند الفاتحين بالتعاليم الحكيمة • وهم فى ذلك يحتذون حذو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقد منح الرسول أهالى نجران من النصارى عهدا حوى احترام منشآت النصارى ، ثم قال لمعاذ بن جبل عند توجهه الى بلاد اليمن : « لا يزعج يهودى فى يهوديته » •

ويدخل فى نطاق التسامح ، عهود الصلح التى أعطيت للنصارى الخاضعين للدولة البيزنطية التى اندمجت فى الاسلام ، وبموجبها كانوا — فى مقابل دفع الجزية — يستطيعون مباشرة شئونهم الدينية فى حرية تامة وتسامح كبير • كما أبدى المسلمون تساهلا كبيرا فى المعاملات المدنية والاقتصادية بالنسبة لأهل الذمة •

وضرب المؤرخ (أرنولد) كثيرا من الأمثلة التى تثبت تسامح المسلمين ، ثم قال : ومن هذه الأمثلة التى قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون الى العرب المسيحيين فى القرن الأول من

الهجرة ، واستمر فى الأجيال المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الاسلام ، انما فعلت ذلك عن اختيار وارادة حرة وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح •

ويصف (أرنولد) موقف المجتمع الاسلامى من المسيحيين فيقول : ولما كان المسيحيون يعيشون فى مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذى منحهم حرية التفكير الدينى ، تمتعوا بحالة من الرفاهية والرخاء •

كانت أهداف الدولة الاسلامية تخالف أهداف غيرها من الدول ، فالدول كانت ولا تزال تهدف الى سيادة شعبها على غيره من الشعوب ، مما يؤدى الى الحروب والصراع • أما الدولة الاسلامية فكانت لا ترمى فى أهدافها الا الى تبليغ الدعوة الاسلامية ،ولم يكن يقصد من هذه الدعوة سيادة شعب على شعب ، ولا طمع فى ملك أو امارة ، وانما كان يقصد منها الدعوة الى توحيد الله ، والى الحكم بالعدل بين الناس ، وهما غايتان من أشرف الغايات •

ونصح الاسلام المسلمين بأنهم اذا دخلوا فى جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين بأن يجادلوهم بالحسنى فقال الله عز وجل (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) • ونرى فى العهد المدنى فى أول الأمر مثل قوله سبحانه وتعالى : (فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن أتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) • كما قال الله عز وجل (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) •

اعتراف المستشرقين بتسامح المسلمين :

الحقيقة التاريخية هى أن أهل الذمة تمتعوا بالحرية الدينية تماما ، فضلا عن حسن المعاملة ، فقد كان التسامح هو شعار الاسلام ، ولم يكن الفتح العربى حربا صليبية مثل الحروب الصليبية التى شهدتها بلاد الشام وبعض بلدان الشرق العربى ويدلل (توماس أرنولد) (١) على تسامح المسلمين برسالة لأحد رجال الكنيسة ، وهو البطريق النسطورى (يشوع ياف الثالث) كان قد بعث بها الى رئيس أساقفة الفرس ، وقد تضمنت هذه الرسالة الدليل القاطع على طابع الهدوء والمسالمة التى أتبعها العرب فى نشر الاسلام ، فقد احترم المسلمون عقائد أهل الذمة وعاداتهم وعرفهم مقابل جزية زهيدة تقل عما كانوا يدفعونه الى سادتهم السابقين من الفرس والروم من الضرائب (٢) ولم يطبق العرب على أهل الذمة ما كانوا يوقعونه على المسلمين من عقوبات لشرب الخمر (٣) .

اعترف معظم المفكرين المسيحيين بأن العرب المسلمين عاملوا دائما غير المسلمين معاملة تنطوى على التسامح ، وقد عاش المسلمون والذميون جنبا الى جنب فى مجتمع واحد تربطه صلات المودة والمحبة والتعاون ومن هؤلاء المفكرين (جولد تسيهر) الذى قال : ان مايشاهد اليوم من تسامح الحكومات الاسلامية يرجع الى ما كان فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى من مبادىء الحرية الدينية ، التى منحت لأهل الكتاب فى مباشرة أعمالهم الدينية . وروح التسامح فى الاسلام قديما ، هى تلك الروح التى اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضا ، كان لها أصلها فى القرآن : (لا أكراه فى الدين) .

أشاد معظم المستشرقين بحسن معاملة المسلمين لأهل الذمة ، فيقول (أرنولد) (٤) أن المسلمين لم يألوا جهدا فى معاملة رعاياهم من المسيحيين كما أكد (باروتولد) (٥) أن النصارى كانوا أحسن حالا تحت حكم

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٧٥ .
(٢) لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩ .
(٣) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١٦٦ .
(٤) الدعوة الى الاسلام ص ٦٥ .
(٥) الحضارة الاسلامية ص ١٩ ــ ٢٠ .

المسلمين ، اذ أن المسلمين ــ كما يذكر جولد تسيهر ــ اتبعوا فى معاملاتهم المدنية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل . ويذكر (شد) أن العرب عاملوا النصارى واليهود معاملة تمتاز بالتسامح • ويمتدح (جوزى) (١) بنى أمية لأنهم ساووا بين طبقات الفرس وعاملوا أهل الذمة معاملة حسنة •

لم يكن النظام المالى الذى عومل به أهل الذمة فى العصر العربى الاسلامى قاسيا أوظالمافذكر (فونكريمر (٢) أنه لم يلاحظ فى نظام الضرائب شيئا مجمعا ، ويرى (فان فلوتن) (٣) أن الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما الى ذلك من ضروب الاصلاح ، والحقيقة أن الجزية لم تكن عقابا لأهل الذمة ، فهى نظير اعفائهم من الجندية ومقابل حماية المسلمين لهم ، وقد فرض الاسلام على المسلم الزكاة حتى يتكافأ الذمى والمسلم فى الواجبات• وكان نظام الجزية عادلا ، كان حسب مقدرة الفرد المالية ، ففرق بين الغنى والفقير ومتوسط الحال ، كما أعفى النساء والصبيان وذوى العاهات والرهبان ، وكان لأهل الذمة نصيب من العطاء •

قال (جان مليا) : الاسلام دين سماوى ، وهو دين حب وعاطفة وشرف ، وأكثر الأديان تساهلا • وتحدث الكاتب الانجليزى (برنارد شو) عن الاسلام فقال : ان أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد ، وبدأت تعشق دينه ، كما أنها ستبرىء العقيدة الاسلامية مما اتهمت به من أراجيف رجال أوروبا فى العصور الوسطى ، وسيكون دين محمد هو النظام الذى يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة ، ويستند على فلسفته فى حل المعضلات والمشكلات ، وان كثيرين من مواطنى ومن الأوروبيين الآخرين

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٤٥ .
(٢) الحضارة الاسلامية ص ٨٢ .
(٣) السيادة العربية ص ٢٠ .

يقدسون تعاليم الاسلام، ولذلك يمكننى أن أؤكد نبوءتى فأقول أن بوادر العصر الاسلامى الأوروبى قريبة لا محالة .

وخلاصة القول : نادى الاسلام بالحرية والأخاء والمساواة ، ورسم وسائل تحقيقها ، وأقام موازين الحق والعدل والانصاف ودعا الى التعاون على البر والخير والاصـــلاح ، كل ذلك فى ظل المحبة والوئام والســـلام العـــام .

الفصل السادس

أهل الذمة فى مجتمع صدر الإسلام

اقبال أهل الذمة على اعتناق الاسلام :

أدى الاسلام الى امتزاج واندماج العرب بالعناصر الأخرى فى الأمصار المفتوحة • فقد منح الاسلام العناصر المختلفة التى كانت تسكن الأمصار ما تحتاجه من المثل العليا التى اكتسبوا بها من الحمية ما استعدوا به للتضحية بأنفسهم فى سبيله • وقد منحت هذه المثل العليا أهالى الأمصار مشاعر مشتركة وآمالا مشتركة وايمانا يندفع به كل واحد من أبنائها فى التضحية بنفسه فى سبيل نصره • وكانت الدولة التى أسسها العرب هى الدولة العظمى الوحيدة التى قامت باسم الدين والتى اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية (١) •

هل نشر العرب الاسلام بالقوة وحد السيف ؟ والجواب بالنفى ، فالاسلام هو الدين الوحيد الذى لم يفرض بالقوة ، بل أقبل الناس على اعتناقه بارادتهم واختيارهم (٢) فانه من المستحيل أن يفوز الاسلام بقلوب الناس بالسيف . ويعترف (جوستاف لوبون) (٣) بذلك فيقول : « والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا دينا سمحا مثل دينهم » • ولم يعمل العرب لنشر الاسلام، ولم يكن عندهم مبشرون ، ولا كانوا يحسنون التبشير ، والذين كانوا يحسنون التبشير منهم هم المسيحيون الذين أسلموا والذين تعلموا التبشير من المسيحية •

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٧١٨–٧١٩ •

(٢) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٨٢ •

(٣) حضارة العرب ص ٧٢٠ •

ما أسباب الانتشار السريع الذى صادف الاسلام •

يعلل (جوستاف لوبون) (١) هذا الانتشار السريع بسهولة الاسلام التى كانت سر قوته ، فهو يخلو مما نراه فى الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض ، وكل مسلم يستطيع أن يعرف أصول الاسلام فى بضع كلمات سهلة ، على عكس المسيحى الذى لا يستطيع حديثا عن التثليث وغيره من الغوامض التى لا يعرفها غير علماء اللاهوت •

أما المؤرخ (ستانلى لينبول) فهو يتساءل عن سبب سرعة انتشار الاسلام بين أهل الذمة : هل هو القانون الأخلاقى الذى تحويه العقيدة ، وما يعد الاسلام المؤمنين به من جنات • ولكن (لينبول) يعود فيقول أن هذه الأسباب كلها كافية لتعلق عدوا قويا ، فلم تكن ولكن العامل الأول فى سرعة الانتشار هو أن الاسلام لم يقابل عدوا قويا فلم تكن اليهودية أو المسيحية بالقوة التى تحول دون انتشاره ، بل لم يكن هناك ما يمنع هذا الانتشار ، وكان هذا سبب انتصار الاسلام ، هذا بجانب ما حواه الاسلام من مبادىء وتعاليم سامية •

ويعلل المؤرخ (دوذى) (٢) اقبال أهل الذمة على الاسلام بأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة ، مما لم يألفوه فى دياناتهم السابقة • أما (توماس أرنولد) (٣) فيرجع سبب انتشار الاسلام الى عاملين : أولهما نجاح العرب الواسع الذى زعزع عقيدة المسيحيين ، فقد رأى أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله ، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم فى الدنيا وبين التوفيق الالهى • أما العامل الثانى ، فهو ما كان ينادى به الاسلام من مثل عليا ترمى الى أخوة المؤمنين كافة فى الاسلام •

وينفى (أرنولد) (٤) تماما أن يكون الاضطهاد هو الدافع لأهل

---

(١) حضارة العرب ص ٥٨ •
(٢) نظرات فى تاريخ الاسلام ص ٤١١ — ٤١٢ •
(٣) الدعوة الى الاسلام ص ٧٠ •
(٤) الدعوة الى الاسلام ص ٨٨ •

الذمة على اعتناق الاسلام ، فيقول : « واذا نظرنا الى التسامح الذى امتد على هذا النحو الى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الاسلامى ، ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس الى الاسلام بعيدة عن التصديق » • وينسب (أرنولد) اقبال أهل الذمة على اعتناق الاسلام ، الى عاملين أولهما تدهور الكنيسة وثانيهما اعجاب أهل الذمة بالعقيدة الاسلامية ، فيقول : « ويرى كثير من علماء اللاهوت المسيحيين أن حالة الكنيسة الشرقية التى تدهورت فى ذلك الوقت — من الناحيتين الخلقية والروحية — لابد أن تكون قد دفعت كثيرين الى أن يلتمسوا جوا روحيا أسلم وأصح فى ذلك الدين الاسلامى الذى جاءهم وهو فى أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وعنفا » •

ويرى المستشرق الايطالى (كايتانى) أن اقبال أهل الذمة على اعتناق الاسلام كان بسبب سوء أحوال الكنيسة الشرقية ، وتعقيد التعاليم المسيحية ، فيقول : « ان انتشار الاسلام بين نصارى الكنائس الشرقية انما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهيلينية الى اللاهوت المسيحى • أما الشرق الذى عرف بحبه للافكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية ، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية الى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة ، مليئة بالشكوك والشبهات ، فأدى ذلك الى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها• فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء ، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى تمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتزعزعت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة اغراء هذا الدين الجديد — أى الاسلام — الذى بدد كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا

مادية جليلة الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لاتقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبى بلاد العرب » (١) .

وأوضح المؤرخ (كانون تايلور) (٢) فساد العقائد المسيحية ، وبين كيف نجح الاسلام فى الخلاص من هذا الفساد فقال : « كان أئمة اللاهوت فى افريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائدميتافيزيقية عويصة ، ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة فى السماء وسمو البكورية الى مرتبة الملائكة . فكان اعتزال العالم هو الطريق الى القداسة ، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة . وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة ، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب ، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم . فأزال الاسلام ، بعون من الله ، هذه المجموعة من الفساد والخرافات . لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى . ولقد بين الاسلام أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته ، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس الى الامتثال لأمره والايمان به وتفويض الأمر اليه . وأعلن الاسلام أن المرء مسئول ، وأن هناك حياة آخرة ويوما للحساب ، وأعد للاشرار عقابا أليما ، وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير ، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين فى الدين ، وأحل الشجاعة محل الرهبنة ، ومنح العبد رجاء ، والانسانية اخاء ، ووهب الناس ادراكا للحقائق الأساسية ، التى تقوم عليها الطبيعة البشرية » (٣) .

ويؤكد المؤرخ (توماس أرنولد) (٤) أنه لم تحدث محاولة واحدة لارغام أى ذمى على اعتناق الاسلام ، فيقول صراحة : « لم نسمع عن

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٨٩ — ٩٠ .
(٢) ألقى (كانون تايلور) هذا البحث فى مؤتمر الكنائس فى (ولفير هامبتون) فى ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧ .
(٣) الدعوة الى الاسلام ص ٩٨ .
(٤) الدعوة الى الاسلام ص ٩٨ — ٩٩ .

أية محاولة مدبرة لارغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الاسلام ، أو عن أى اضطهاد منظم قصد منهاستئصال الدين المسيحى • ولو اختار الخلفاء تنفيذ احدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرديناند وايزابلا دين الاسلام من أسبانيا ، أو الذى جعل به لويس الرابع عشر المذهب البروتستنتى مذهبا يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا ، أو بتلك السهولة التى ظل بها اليهود مبعدين عن انجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة • وكانت الكنائس الشرقية فى آسيا قد انعزلت انعزالا تاما عن سائر العالم المسيحى الذى لم يوجد فى جميع أنحائه أحد يقف فى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين • ولهذا فان مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الاسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم » •

اعتنق كثير من أهل الذمة فى صدر الاسلام العقيدة الاسلامية ، ويمكننا أن نكون فكرة عن تحول جموع كثيرة من أهل الذمة الى الاسلام ، اذا علمنا أن ايراد الضرائب فى عهد عمر بن الخطاب كان يتراوح بين مائة مليون ومائة وعشرين مليون درهم ، بينما هبط فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، أى بعد حوالى خمسين عاما ، الى أربعين مليون درهم •

تعلم اهل الذمة اللغة العربية :

أقبل معظم أهل الذمة على تعلم اللغة العربية ، مما أدى الى التقارب بينهم وبين العرب المسلمين وسائر أهالى الأمصار المفتوحة • واللغة ليست كلمات أو حروف ، بل هى تعبير وشعور ، ووحدة اللغة تؤدى الى وحدة الثقافة ، والى الوحدة العقلية والنفسية ، مما يحقق شخصية عربية واحدة • وأدى تعميم استخدام اللغة العربية فى هذه الأمصار الى اندماج سائر الأجناس على اختلافها اندماجا قويا فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم (١) . اذ ربطت اللغة العربية جميع

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٦٨ •

البلاد برباط معنوى (١) كما أن أهل الأمصار وقد أصبحوا شعبا اسلاميا فانهم كانوا يزدادون اسلامية كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن (٢) .

أقبل أهل الذمة على تعلم اللغة العربية واتقانها • فقد كانت رغبة هذه العناصر فى قراءة القرآن الكريم ، دستور الدولة العربية الاسلامية وتولى المناصب من العوامل التى دفعتهم الى اجادة اللغة العربية (٣) كما كانت رحمة العرب الفاتحين بأهل الذمة وتسامحهم من العوامل التى شجعتهم على اتقان اللغة العربية والتمسك بالنظم العربية (٤) .

كان قيام امارة الحيرة العربية على حدود الدولة الفارسية ، وامارة الغساسنة العربية على حدود الدولة الرومانية ، عاملا هاما على بقاء العروبة واللغة العربية والتمكين لها ، وكانت الامارتان قبل الفتوحات الاسلامية على صلة دائمة بالجزيرة العربية •

هل انتشرت اللغة العربية بالقوة وحد السيف •

والاجابة على هذا السؤال بالنفى ، بل سار العرب فى نشر لغتهم على نفس المنهاج الذى ساروا عليه فى نشر دينهم فلم يحارب العرب لغات البلاد الأصلية على رسوخها فيها ، بل ساروا فى نشر لغتهم بتعقل وروية ، وراعى المسلمون سنن الطبيعة والنشوء ، وعملت قاعدةالانتخاب الطبيعى عملها فى اللغة ، كما عملت فى العناصر ، فبقى ماهو مفيد للناس فى مصالحهم على اختلاف نحلهم ومللهم (٥) .

ويرى المؤرخ (بارتولد) (٦) أن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة ، ويذكر أن تسامح العرب أدى الى انتشار اللغة العربية اذ أن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح كالجرمان والمغول والفرس •

---

(١) جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٥٠ .
(٢) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١١ .
(٣) حتى : تاريخ العرب جـ ١ ص ٩ .
(٤) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢٠ .
(٥) كرد على : الاسلام والحضارة العربية حـ ١ ص ١٨٠ .
(٦) بارتولد : الحضارة الاسلامية ص ٣٠ .

وكان أهل الذمة مضطرين الى تعلم اللغة العربية ، فقد كانوا يتصلون بالعرب المسلمين فى شئون الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، كما أدى تعريب الدواوين فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الى انتشار العربية على نطاق واسع بين أهل الذمة ، فقد كان عليهم اتقان هذه اللغة حتى يحتفظوا بوظائفهم .

تحدث (توماس أرنولد) (١) عن نتائج انتشار اللغة العربية بين أهل الذمة فقال : « كان لتعميم استعمال اللغة العربية فى كافة أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الاسلامية ، وبخاصة المدن والمراكز الكبرى الآهلة بالسكان ، كما كان كذلك للتماثل الذى تم تدريجيا فى الأخلاق والعادات ، والذى أدى فى خلال ما يقرب من قرنين الى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجا قويا فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم — كان لهذا كله من غير شك صدى فى الحياة الدينية والفكرية لدى كثيرين من أفراد الديانات التى دخلت فى حماية العرب الفاتحين . ومن المحتمل جدا أن تكون الحركة الفكرية التى أثرت فى العقيدة الاسلامية تأثيرا بالغا ، ابتداء من القرن الثانى حتى القرن الخامس للهجرة ، قد أثرت فى المفكرين المسيحيين وصرفتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح فى ذلك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية » .

فرضت اللغة العربية كتابتها على الفرس وغيرهم ، وقضت نهائيا على الألف باء القديمة لهذه اللغات القديمة . فقد اقتبست اللغة الفارسية ثلث ألفاظها من اللغة العربية وأضافتها الى مجموعة كلماتها الهندو — أوروبية (٢) وكان الزرادشت هم أول من اتخذوا الحروف العربية ، وأوجدوا لغة فارسية حديثة محتوية على كثير من الكلمات العربية (٣) .

أدت اقامة العرب فى المدن الاسلامية الجديدة فى الأمصار المفتوحة الى امتزاجهم بأهالى البلاد وأهل الذمة ، فقد تعاونوا جميعا فى الحياة

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٩٢ .
(٢) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١٢ — ١٣ .
(٣) بارتولد : الحضارة الاسلامية ص ٦٨ .

الاجتماعية والاقتصادية ، ولم تكن عناصر الأمصار المفتوحة غريبة على العرب الفاتحين ، كما أن فروقهم الدينية لم تقف حائلا فى سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم اللغة العربية واعتنق الاسلام (١) .

اقبال أهل الذمة على الحضارة الاسلامية :

ترتبط الحضارة البشرية بالدين ، بل هى من خلقه ومن نتائجه ، فالأديان ليست نظرية فلسفية أو مجرد عقائد أو أعمالا يختص بمعرفتها فريق من البشر دون فريق آخر ، بل هو وجود اجتماعى واضح يقوم على أقدار مشتركة من العلم والعمل والعقائد ، يشارك الأفراد فيها جميعا .

وكان ظهور الاسلام ايذانا بظهور حضارة اسلامية عريقة ، فقد عمل الاسلام على تخليص البشر من شوائب ورذائل الجاهلية ، ومنح الناس مثلا عليا فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وأنار أمامهم السبيل ليصلوا الى الرخاء والى السعادة والرفاهية . وانتشرت مراكز الحضارة فى العالم الاسلامى ، فكانت هناك دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ، وانتقلت الحضارة من الشرق الاسلامى الى القارة الأوروبية بطريق بلاد الأندلس وجزيرة صقلية ، ونتيجة اختلاط الشرقيين بالأوروبيين خلال الحروب الصليبية وفى التجارة . وحرصت الحضارة الاسلامية على التجديد والابتكار ، وتجنبت التقليد والمحاكاة ، وأصبح الشرق الاسلامى أستاذا لأهالى أوروبا ، واعترف المفكرون الأوروبيون بذلك .

أصبح الطابع البارز للحضارة الاسلامية هو تقديس حرية الفكر ، واعزاز حرية الانسان وكرامته ، وتشجيع العلم والمعرفة والنظام ، والمساواة بين الناس جميعا فى ظلال أخاء شامل وعدل تام ، وروحانية صافية ، واعتزاز بالمثل العليا والقيم الأخلاقية السامية .

كانت الحضارات زمن الفتح العربى الاسلامى متقاربة فى مختلف

(١) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ٩ .

المواطن ، فالحضارة الاغريقية غلبت الحضارة الرومانية فى القسطينية وهذه أخذت الكثير من الحضارة الفارسية لاتصالهما السياسى والحربى، كما أخذ الفرس عن اليونان من قبل (١) .

وكان الطريق ممهدا أمام امتزاج الحضارات ، ولما كان العرب المسلمون وقت الفتوحات أميين فقد اعتمدوا على أهل الذمة فى الادارة والكتابة والشئون المالية ، مما أدى الى حتكاك واتصال أهل الذمة بالحضارة العربية الاسلامية .

وتميزت الفتوح العربية بطابع خاص ، لا نجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب ، فالبرابرة الذين استولوا على العالم الرومانى، والترك وغيرهم ، وان استطاعوا أن يقيموا دولا عظيمة ، الا أنهم لم يؤسسوا حضارة ، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التى قهروها . ولكن العرب أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها ، وتمكنوا من حمل العناصر المختلفة الموجودة فى الأمصار على اعتناق دينهم وتعلم لغتهم فضلا عن حضارتهم الجديدة ، ولذا ظل نفوذ العرب بها ثابتا (٢) .

كانت حضارة العرب بعد الفتوحات العربية الاسلامية حضارة عظيمة ، ويرجع سبب عظمتها الى عاملين : أولهما بيئة العرب الحديثة التى تتيح للعرب فرصة التحضر والتمدن ، وشتان بين الهلال الخصيب فى العراق والشام ووادى النيل وبين صحراء الجزيرة العربية . والعامل الثانى ذكاء العرب وحضارتهم الاسلامية وثقافتهم الأولى ، فقد استطاعوا أن يهضموا ويتمثلوا الحضارات التى وجدوها فى الأمصار المفتوحة ، فى حين فشل غيرهم من الفاتحين ، كالبرابرة مثلا ، فى هضم ما بقى من الحضارة اللاتينية (٣) .

---

(١) عمر أبو النصر : الحضارة الأموية ص ١٩٤ .
(٢) لوبون : حضارة العرب ص ١٧١ — ١٧٢ .
(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٧٢١ .

يرجع الى العرب الفضل فى نظام الطبقات البغيض الذى كان موجودا فى معظم الأمصار المفتوحة ، وخاصة فى الدولة الفارسية ،فضلا عن اخراج الفرس من ظلمات المجوسية الى نور الاسلام (١) •

وصف المؤرخ العربى المسيحى المعاصر (الدكتور فيليب متى (٢) الاسلام بأنه حضارة عامة شاملة ، تنتظم كل من يعيش تحت سمائها فى حرية وصفاء ، ويعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة ، وتربطهم بروابط المحبة والأخوة ، وقال أن المسيحيين قد استأذنوا السلطات الدينية فى أن تكون المواريث فى الشرق العربى هى نفس المواريث التى قررها الاسلام ، فأذنت السلطات العربية بهذا •

تحدث (لوثرب ستودارد) فى كتابه (حاضر العالم الاسلامى) عن الحضارة العربية الاسلامية وازدهارها ، وقارن بينها وبين حضارة الغرب ، فقال : ما كان العرب قط أمة تحب اراقة الدماء وترغب فى الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك ، أمة موهوبة عظيمة الأخلاق والسجايا ، تواقة الى ارتشاف العلوم محسنة فى اعتبار نعم التهذيب ، تلك النعم التى قد انتهت اليها من الحضارات السالفة ، واذ شاع بين الغالبين والمغلوبين والتزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعا ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة وهى الحضارة العربية ، ونفخ العرب فيها روحا جديدة فازدهرت وأينعت ، وألفوا بين عناصرها بالعبقرية العربية والروح الاسلامى ، مما أدى الى اتحادها وتماسكها • وقد سارت الممالك الاسلامية فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ ــ ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقيا وتقدما وعمرانا ، وما انفك الشرق الاسلامى خلال هذه القرون الثلاثة يرسل على الغرب النصرانى نورا •

وأوضح (جوستاف لوبون) فى كتابه (حضارة العرب) أثر الفتح الاسلامى فى بلاد الشام ، فقال : استردت سورية أيام الحكم

---

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٦٤ •
(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب •

العربى ما أضاعته من الرخاء منذ زمن طويل ، وبلغت درجة رفيعة من الرقى فى العهد الأموى والصدر الأول من العهد العباسى ، وكان العدل بين الرعية دستور العرب السياسى ، وترك العرب الناس أحرارا فى أمور دينهم ، وأظل العرب أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم ، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقا من الدعة والطمأنينة ، وبلغت الصناعة والزراعة درجة رفيعة فى سورية ، وازدهرت بسرعة كبريات المدن السورية كالقدس وصور وصيدا ودمشق .

وتحت عنوان (طابع السيادة فى الحضارة الاسلامية) ، كتب المؤرخ (توماس أرنولد) (١) : ان ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق ، قد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التى أصبحت تحت حكمهم ، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله ، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم فى الدنيا وبين التوفيق الالهى ، وأن اله الحرب لم يجعل النصر الا فى أيدى عباده المختارين ، وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلا على صدق دينهم .

اهل الذمة يساهمون فى الحياة الاجتماعية :

العاطفة الاجتماعية هى العنصر الدائم فى الشعور الدينى ، حتى ليمكن أن نعرف الكائن المتدين بأنه كائن محب للاجتماع ، ويرى (جان مارى جويو) (٢) أن اختلاف الأديان انما يرجع خاصة الى اختلاف النماذج الاجتماعية التى يتصور الانسان الكون على مثلها ، وتتجلى الصفة الاجتماعية التى للدين فى العبادات التى بواسطتهايتصل الناس بآلهتهم مجتمعين .

اتبع المسلمون سياسة التعايش الدينى مما أدى الى السلام والأمن ، وقد نص القرآن الكريم على وجوب الحرص على هذا التعايش وحرص الخلفاء على هذه الروح الطيبة . وقد حدثنا تاريخ عمر بن

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٩٤ .
(٢) الدين ، منشأه وعلاقته بالمجتمع والحياة (ترجمة سامى الدروبى) .

الخطاب بأنه قد أوصى رجاله بأن يعيشوا وأبناء الديانات الأخرى فى وئام وسلام ، وأن ينظروا الى الانسانية نظرة مشاركة ، وأنها ميراث لكل فرد يعيش على الأرض نصيبه منه • كما أعطى عمر أهل بيت المقدس الأمان العام للارواح والأموال وسائر الملة والكنائس ، فأصدر أمرا مشددا بألا تسكن الكنائس ، وألا ينقص منها ، وألا يكره المسيحيون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم • كما أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج بغير المسلمة من أهل الذمة ، وجعل لها من الحقوق ماللزوجة المسلمة ، فرخص لها بالبقاء على دينها ، وعلى معتقداتها ، بل وحرم على الزوج أن يكرهها على ترك دينها أو يمنعها من الذهاب الى معبدها أو كنيستها ، ولها الحرية فى القيام بشعائر دينها (١) .

احتفل أهل الذمة بأعيادهم فى جو من الحرية والتسامح ، وكان المسلمون يشاركون فى أعيادهم وخاصة النصارى منهم ، فقد كانت هذه الأعياد فرصة طيبة لنزهة المسلمين ، وخاصة أن الأديرة كانت تحفل بالحدائق الغناء والبساتين اليانعة (٢) ومزج المسلمون بين أعياد المسيحيين وأعياد الفرس ، وبين الأعياد المسيحية والفصول ، فقالوا أن الفصح وقت النيروز ، والعنصرة وقت الحر ، والميلاد وقت البرد ، وعيد بزيارة وقت الأمطار ، وعيد الصليب وقت قطاف العنب . ومن أمثال الناس فى ذلك : (اذا جاء عيد بزيارة فليتخذ البناء زمارة) أى ليمكث كل فرد فى بيته ، (واذا جاء القلندس فتدفأ واحتبس) (٣) .

أما اليهود فكانوا يحتفلون بعيد رأس السنة اليهودية ويسمونه (عيد رأس هيشا) ، كما يحتفلون بعيد (صوماريا) وهو عيد الصوم العظيم ومدته خمس وعشرون ساعة ، وعيد (المظال) ومدته ثمانية أيام يجلسون فيها تحت ظلال النخل وأشجار الزيتون ، وعيد الفصح أو العطر وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير (٤) .

---

(١) التعايش الدينى فى الاسلام ص ٣٧ .
(٢) الشابشتى : الديارات ص ٦٠ .
(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٢ .
(٤) الالوسى : بلوغ الارب حـ ١ ص ٣٩١ .

وحرص الفرس على الاحتفال بأعيادهم القديمة ، وأبرزها النيروز والمهرجان • وكان النيروز أول أيام الربيع ، وفيه يرش الناس بعضهم بعضا بالماء ويتبادلون الهدايا (١) أما المهرجان فهو ابتداء أيام الشتاء ، وكان الفرس يقدمون لولاتهم المسلمين ، ما جرت عليه عادتهم زمن الدولة الفارسية ، بعض الهدايا فى عيدى النيروز والمهرجان (٢) .

وصف المؤرخ (ترتون) (٣) حياة أهل الذمة الاجتماعية فقال : « وانا لنسمع عن الحياة التى كان الأقباط يحيونها فى بيوتهم من حيث الترف والاسراف ، وتقلبهم فى بلهنية من العيش واتساع الأموال وكثرة النفقات » • ثم يقول : (ولقد ساهم الأقباط فى حياة المسلمين الاجتماعية وأخذوا منها بنصيب » •

ويشيد المؤرخ (آدم متز) (٤) بتسامح المسلمين مع أهل الذمة ، مما لم يكن معروفا فى أوروبا ، مما أدى الى رقى الحضارة والعلم ، فقال : (كان وجود النصارى بين المسلمين سببا لظهور مبادىء التسامح التى ينادى بها المصلحون المحدثون • وكان الحاجة الى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الأمر نوعا من التسامح الذى لم يكن معروفا فى أوروبا فى العصور الوسطى ، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان ، أى دراسة الملل والنحل على اختلافها ، والاقبال على هذا العلم بشغف عظيم » (٥) •

لم يكن فى المدن الاسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لا يتعدونها ، وان آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين • وكانت الكنائس والأديرة منتشرة فى كل أحياء المدن الاسلامية وكان موتى المسلمين وأهل الذمة يدفنون كل على حدة ، ولكن يحكى أنه فى عام ٣١٩ هـ (٩٣١ م) جاء الى تكريت سيل كبير ، ففرق منها أربعمائة دار

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٥ .
(٢) اليعقوبى حـ ٢ ص ١٩٤ .
(٣) أهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٨ .
(٤) الحضارة الاسلامية حـ ١ ص ٥٧ .
(٥) الحضارة الاسلامية حـ ١ ص ٧٥ .

وغرق خلقا كبيرا من النـــاس ، ودفن المســـلمون والنصـــارى مجتمعين لايعرف بعضهم من بعض (١) .

ولما كان الشرع الاســـلامى خاصا بالمســـلمين فقــد خلت الدولة الاسلامية بين أهل الذمة ومحاكمتهم الخاصة بهم ، ولكن كان يجــوز للذمى أن يلجأ للمحاكم الاسلامية .

وفى كتاب (أهل الذمة فى الاســـلام) للمؤرخ (ترتون) نجــد كثيرا من العبارات ، كلها تدل على أن أهل الذمة عاشوا حياة اجتماعية طيبة فى ظل التسامح الاسلامى ، نقتبس منها هــذه العبارات القليلة : « والروايات الواردة عن عمــر بن الخطاب ورأفتــه بالذميين كثيرة » : (كان العرب يلتزمون جادة الصبر والأناة ، اذ كثيرا ما نقرأ عن مــدن استسلمت بشروط ، ثم ثارت وتمردت ، ثم استسلمت مرة أخرى فأعاد العرب لها عهودها الأولى ، « وكان بعض الولاة شديد الحب للنصارى يظهرون لهم المودة البالغة » ، « كانت معاملة الذميين تنطوى على مايشير الى مساواتهم التامة بالمسلمين فى كافة الحقوق » .

اشتهر الخوارج بالتســـامح مع الذميين فأباحــوا للذميين الجهر بدينهم (٢) ولذا ساعد أهل الذمة الخــوارج فى حروبهم ضــد الدولة الأموية .

---

(١) ابن الاثير جـ ٨ ص ١٧٤ .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٣٣ .

الفصل السابع

أهل الذمة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين

عمر بن الخطاب وأهل الذمة :

قسم عمر الدولة الاسلامية ، وعين فى كل ولاية واليا عربيامسئولا أمامه مباشرة ووظيفته قيادة الجيش والامامة وادارة الولاية ، وقاضيا يحكم فى المنازعات الدينية والمدنية عند المسلمين ، والمدنية فقط عند أهل الذمة ، اذ وكلت أمورهم الدينية الى رؤساء الدين عندهم • وكان القاضى مستقلا عن الوالى ومسئولا مباشرة أمام الخليفة • وجابيامسئولا أمام الخليفة رأسا • ولكى يضمن الخليفة العدل فى الولاية ، عين مفتشين لمراقبة الولاة فى أعمالهم وموافاته بكل ما يحدث ، وكانت هذه الوظيفة لا تسند الا لمن اشتهر بالصدق والأمانة وغزارة العلم • وكان عمر يطلب من الولاة أن يوافوه كل سنة فى موسم الحج ليتشاور معهم فى الأمور الادارية • وهيأت هذه السياسة الادارية لأهل الذمة ، وسائر الرعية ، الأمن والعدل والسلام •

ووضع عمر سياسة مالية عادلة ثابتة ، فعدد مقدارا عادلا للجزية ، وأعفى منها النساء والشيوخ ورجال الدين والعجزة والصبيان • وجعل على الأرض التى فتحت عنوة ضريبة سماها (الخراج) وأبقاها فىأيدى أصحابها يفلحونها ، وكانت تلك الضريبة تعتبر كأجرة للارض التى آلت الى المسلمين بحكم الفتح • ولكى يعين الخليفة مقدار الخراج بالعدل أمر بمسح الأرض • وكان الخراج يؤخذ نقدا أو عينا ، ومقداره نقدا يختلف باختلاف نوع الزرع ، فهو يتراوح بين عشرة دراهم ودرهمين للجريب الواحد ، ومقداره عينا حوالى خمس المحصول • وكان مايجمع من الجزية والخراج ينفق على ادارة الدولة فتدفع منه رواتب الجيش

ومصاريف بناء الطرق والترع وما اليها من المرافق العامة ، وجبى عمر الزكاة من المسلمين فقط وأنفقها فى الوجوه التى عينها القرآن الكريم (١) •

عرف الماوردى (٢) الخراج فى الاسلام بأنه « هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عليها » وقد اهتم الخلفاء والولاة بالخراج أكثر من اهتمامهم بالجزية لأن الخراج أكثر ثباتا من الجزية وأكثر دخلا، حيث أن الجزية تسقط بالاسلام •

جمع العرب الخراج من الأمصار الاسلامية منذ اللحظة الأولى للفتح العربى الاسلامى ، وأراد عمر بن الخطاب أن يحدد مقدار الخراج الذى يفرضه على كل نوع من الزرع ويحدد طرق الجباية ، فاستدعى اليه بعض أصحاب الأراضى فسألهم عن النظم التى كانت متبعة قبل الفتح الاسلامى ، حتى يتحقق العدل • ثم جعل عمر على كل جريب قفيزا ودرهما ، وكان القفيز وزنه ثمانية أرطال وثمنه ثلاثة دراهم يوزن المثقال ، وهو نفس ما فرضه كسرى بن قباذ من قبل (٣) • وفرق عمر بين أنواع الزرع ، فكان على كل نوع مقدار معين من المال مقابل الخراج (٤) وأمر عمر عماله بأن أهل الخراج اذا احتملوا أكثر من ذلك فلا يزداد عليهم ، وان عجزوا عن ذلك خفف عنهم ، وألا يكلفوا فوق طاقتهم (٥) •

والحقيقة أن نظام عمر كان نظاما عادلا ، فقد كانت الأرض تحتمل ما وضعه عمر من خراج بل وتفيض (٦) ، وكان عمر يسمح بتقسيط الخراج ودفعه عينا .و نقدا (٧) .. وسار على بن أبى طالب ومعظم الخلفاء الأمويين على سياسة عمر بن الخطاب •

---

(١) أنظر كتابنا (الدولة العربية الاسلامية) ص ٨٦–٨٧ •
(٢) الاحكام السلطانية ص ٤٠ •
(٣) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤١ •
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٨ •
(٥) أبن آدم : الخراج حـ١ ص ٩ •
(٦) أبو يوسف : الخراج ص ٢١ •
(٧) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٧٧ •

ضرب عمر بن الخطاب أمثلة كثيرة فى حسن معاملة أهل الذمة ، فقد مر يوما على قوم قد أقيموا فى الشمس فى بعض أرض الشام ، فقال ما شأن هؤلاء ، فقيل له أنهم أقيموا فى الجزية فكره ذلك وقال : هم وما يعتذرون به . قالوا : يقولون لا نجد . قال : فدعوهم ولاتكلفوهم ما يطيقون . ثم أمر بهم فخلى سبيلهم (١) .

ومر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وكان شيخا ضرير البصر ، فضرب عمر عضده وقال له : من أى أهل الكتاب أنت . فقال : يهودى . قال : فما ألجأك الى ما أرى . قال : أسأل الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده ، وذهب به الى منزله وأعطاه مما وجده ، ثم أرسل به الى خازن بيت المال وقال له : أنظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم الفقراء المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب . ثم وضع عنه الجزية (٢) .

وعندما شعر عمر بقرب وفاته ، أوصى وهو على فراش الموت ، بأهل الذمة خيرا ، فقال : أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرا ، وأن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفهم فوق طاقتهم (٣) .

أهل الذمة فى عهدى عثمان وعلى :

تمتع أهل الذمة فى عهدى عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب بما تمتعوا به فى عهد عمر بن الخطاب ، من تسامح وعدل وأمن ، ماداموا يؤدون الجزية والخراج . وكان عدد كبير من أهل الذمة يشتغل بفلاحة الأرض ، فقد ترك عمر أرضهم مقابل دفعهم الخراج فضلا عن الجزية . ومن المهن التى اشترك فيها النصارى واليهود الطب ، فقد كان القسس يعالجون المرضى ، وكانت الأديرة مراكز للعلاج من الأمراض ، واشتهرت

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧١ .
(٢) المصدر السابق ص ٧١ .
(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق حـ ١ ص ١٧٨ .

بعض الأديرة بالمياه الكبريتية (١) كـذلك نبغ أهل الذمة فى التجـارة والصناعة ، فكان اليهود يحترفون الصياغة ونسج الحرير وصناعة الزجاج وادارة السفن (٢) وكان الصناع وأصـحاب الحرف ، وأهل الطبقـة العاملة من أهل الذمة أسرع الناس الى الاسلام ، فقد اعتنقه عدد عظيم فى حماسة كبيرة (٣) .

سار عثمان بن عفان وولاته بالأمصار الاسلامية على سيرة ولاة عمر فى التسامح مع أهل الذمة ، فقد كان ـــ على سبيل المثال ـــ الوليد بن عقبة ، أحد ولاة عثمان بالعراق ، يدخل النصارى المساجد ويجرى عليهم كل شهر ، وضمن لهم أرزاقهم شهريا (٤) .

كما تمتع أهل الذمة فى خلافة على بن أبى طالب بالمعاملة الحسنة ، فقد أعطى النصارى من العطاء وساواهم بالعرب والمـوالى (٥) . وكان يوصى عماله فى كل مكان بأهل الذمة خيرا ، وأمر عاملا له بحفر نهر لأهل الذمة يروون منه أرضهم . واشتكى يهودى على بن أبى طالب الى شريح قاضى البصرة فأنصـفه شريح من الخليفة مما أدى الى اسـلام اليهودى وقتاله فى صفوف على (٦) .

اهل الذمة فى العصر الأموى :

افتتح معاوية بن أبى سفيان عهـدا جديدا من التسامح مـع أهل الذمة ، فقد عين لولده يزيد مربيا مسيحيا ، وبالتـالى كلف يزيد كاهنا مسـيحيا بتثقيف ولده خالد وعامل المختـار بن أبى عبيـد الثقفى أهل الذمة بالعراق معاملة حسنة ، وكان يزعم أنه سيزوج ابنته للمسيح . أما الحجاج بن يوسف الثقفى الذى اتهمه المستشرقون باضطهاد أهـل الذمة فقد كان عامله بخراسان يبنى لأهل الذمة البيع ، وقد سـمح له الحجاج

---

(١) الشابشتى : الديارات ص ١٩٦
(٢) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٠٥ .
(٣) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢ .
(٤) البلاذرى : أنساب الاشراف حـ٥ ص ٣١ .
(٥) اليعقوبى حـ ٢ ص ١٥٩ .
(٦) الاصفهانى : الاغانى حـ ١٦ ص ٣٦ .
(٧)

بذلك (١) وكان الأخطل الشاعر المسيحيى يدخل المساجد فى دمشق والكوفة فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان فيقف المسلمون له اجلالا (٢) .

ذكر المؤرخ (ترتون) كثيرا من القصص والأخبار التى تدل على تسامح المسلمين من أهل الذمة ، فذكر أن عمرو بن العاص قد صلى فى مصر فى احدى الكنائس ، كما ذكر أن معاوية بن أبى سفيان حين تولى الخلافة بالشام سنة ٤٠ هـ صلى عند جبل الجلجلة ببيت المقدس ثم صلى عند قبر مريم ، وكان معاوية يستقبل رجال الدين المسيحى ويكرمهم . وأشار ترتون الى ما جاء فى كتاب الأغانى من أن الوليد بن عقبة المسلم والشاعر أبا زبيد المسيحى دفنا معا فى قبر واحد . وأشاد ترتون بتسامح الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، فقد أمر ببناء دار مساورة لقصره لاقامة البطرك وليسمع الصلاة والعظة ، وكان يقول للبطرك اذا بدأت الصلاة بالليل تنالنى راحة عظيمة ويزول عنهم الهم بأمر المملكة ثم يأتينى النوم براحة .

كذلك امتاز عهد عمر بن عبد العزيز بالتسامح مع أهل الذمة .فنفى بارتولد (٣) عن عمر منعه النصارى من بناء كنائس جديدة واصلاح الكنائس القديمة . كما ذكر دوزى (٤) أن المسلمين لم يتمسكوا بتنفيذ شرط تجديد بناء الكنائس التى تهدم ، ويرى أن هذا الشرط وغيره لم يكن يطبق بحذافيره الا فى أحوال استثنائية نادرة ، والحقيقة أن أهل الذمة تمتعوا بالكثير من عدل عمر ورحمته ، فقد أمر عماله بألا يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صولح أهل الذمة عليه (٥) كما نهى عمر عامله على الكوفة عن اتباع سياسة الحجاج التى تقضى بارجاع أهل الذمة الى قراهم (٦) وكتب عمر الى عامله بالكوفة أيضا أن يعطى أهل الذمة ما بقى

(١) ابن النديم : الفهرست حـ ٢ ص ٤٦٧ .
(٢) الاصفهانى : الاغانى حـ ٧ ص ١٧١ .
(٣) الحضارة الاسلامية ص ٧١ .
(٤) نظرات فى تاريخ الاسلام ص ٤٠٢-٤٠٣ .
(٥) الطبرى حـ ٨ ص ١٤١ .
(٦) الطبرى حـ ٨ ص ١٣٩ .

من خراج الكوفة ، فيسدد ديونهم ويساعد من أراد الزواج منهم ، ثم ختم رسالته بقوله : « قو أهل الذمة فاننا لانريدهم لسنة ولا لسنتين » (١) . وكان عمر يجعل صدقات بنى تقلب ـــ القبيلة العربية المسيحية ـــ فى فقرائهم دون ضمها الى بيت المال (٢) .

ارتفعت الأسعار فى عهد عمر بن عبد العزيز ارتفاعا كبيرا ، وقد سأله أحدهم عن سر هذا الغلاء ، فقال : ان الذين كانوا قبلى يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدون بدا من أن يبيعوا ويكسد ما فى أيديهم ، وأنا لا أكلف أحدا ، الا طاقته ، فباع الرجل كيف شاء . واقترح البعض على عمر تسعير الحاجيات ، فقال عمر : انما السعر الى الله (٣) .

وهكذا عرف عمر بن عبد العزيز نظرية العرض والطلب ، وهى من أبرز النظريات الاقتصادية ، فقد كان معظم الولاة الأمويين يلقون كثيرا من الأعباء على الأهالى مما أدى الى سوء أحوالهم فأقبلوا على بيع انتاجهم الزراعى والصناعى ، مما أدى الى النشاط التجارى من جهة ، وانخفاض الأسعار من جهة أخرى ، فقد زاد العرض على الطلب ، ولكن عدل عمر خفف الأعباء عن أهل الذمة والمسلمين على السواء فشعروا بالرخاء الاقتصادى ، فأقبلوا على التمتع بمحصولاتهم ومصنوعاتهم دون بيعها ، كما أقبلوا على شراء ما يحتاجونه من أنواع التجارة ، فزاد الطلب على العرض (٤) .

أهل الذمة والوظائف الحكومية :

تمتع أهل الذمة فى الدولة العربية الاسلامية بنصيب كبير من الوظائف الحكومية ، وقد أيد (ديسومبين) (٥) هذا الرأى فقال : ان أهل الذمة احتلوا مكانة بارزة فى حياة الدولة الأموية وكثر عددهم فى

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧ .
(٢) ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٥٢ .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٧٦ .
(٤) انظر كتابنا (الحضارة العربية الاسلامية) ص ٢٥٨ .
(٥) النظم الاسلامية ص ١٦٧ .

الدواوين والمصالح . وزاد بارتولد ١) عليه بأن النصارى والفرس كانوا يقومون ببناء المساجد والقصور • وكذلك كان لليهود نصيب فيالوظائف العامة ، فقد كان كاتب أبى موسى الأشعرى والى العراق يهوديا ، وكان يركن اليه ولا يثق بغيره ، ورفض أبو موسى ما أمره به عمر بن الخطاب من عزل هذا الكاتب اليهودى (٢) ويكفى اليهود فخرا أن سمير اليهودى قام بضرب الدراهم فى خلافة عبد الملك بن مروان وأنها سميت باسمه (الدراهم السميرية) (٣) .

أشاد المؤرخ الهندى المسلم (صلاح الدين خودابخش) فى كتابه الذى قمنا بترجمته وهو (الحضارة الاسلامية) (٤) ، يتولى أهل الذمة وظائف الحكومة ، فقال : يجدر بنا ألا نغلق عيوننا عن حقيقة ، هى أن أهل الذمة ظلوا عدة سنوات يديرون المصالح الحكومية التى تدبر مالية الدولة وايراداتها ، كما كانت الوظائف فى هذه المصالح مقتصرة عليهم • كان أبرز الموظفين فى عهد الخلافة اثنان : الوزير والكاتب ، وقد تولى ، فى عهد أكثر من خليفة ، غير المسلمين هذين المنصبين • كان كاتب عبد الملك (ابن سرجيون) مسيحيا ، كما تولى أبو اسحاق الصابى نفس المنصب فى العصر العباسى • كما كان نصر بن هارون وزير عضد الدولة مسيحيا • وعلى من يوجهالنقدالى الاسلام أن يعرف أن عمر بن عبدالعزيز كتب الى أبى بكر بن محمد يأمره برفع الظلم عن المسلمين والذميين وأن يعيد اليهم ممتلكاتهم المغتصبة •

ظل النظام الادارى للحكومة الاسلامية فى الجملة على ما كان عليه فى بلاد الفرس والروم ، حتى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان• فقد وجد العرب بعد الفتوحات أن هذه الأمم ذات تاريخ مجيد عريق فى الحضارة والمدنية والنظم السياسية • فلم يكن بد اذن من قبول هذا النظام وابقائه على ما كان عليه من قبل ، ثم احداث ما يتطلبه الاصلاح من

---

(١) الحضارة الاسلامية ص ٢١ .
(٢) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠٣ .
(٣) المقريزى : كتاب النقود القديمة الاسلامية ص ٣٥ .
(٤) الحضارة الاسلامية ص ١١٥ .

التغيير الذى يتفق وعقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التى دانت للحكم الاسلامى .

وعدد (ترتون) أسماء كثيرين من أهل الذمة تولوا المناصب الكبرى فى الدولة ، فقد أبقى العرب بعد فتح مصر الموظفين البيزنطيين فى وظائفهم ، وذكر ترتون أسماءهم . كما ذكر أن الخليفة عبد الملك بن مروان عهد الى مسيحى بتعليم أخيه الصغير عبد العزيز . كما ذكر أن مسيحيا تولى حكم الاسكندرية فى عهد الخليفة يزيد ، واتخذ الخليفة سليمان بن عبد الملك كاتبا نصرانيا يسمى (البطريق ابن النقا)واستعمله ناظرا على مبانيه فى الرملة من أعمال فلسطين ومراقبة القنوات والآبار والمسجد القائم بها ، وغير ذلك من الأمثلة .

اهل الذمة والخراج :

كانت أراضى الأمصار الاسلامية عدة أنواع ، وكان لكل نوع منها وضع خاص بالنسبة للخراج . أما النوع الأول فهو الأرض التى ملكت عنوة وقهرا والتى فارقها أهلها بالقتل أو الأسر أو الاجلاء . فهذه الأرض ان قسمها الامام بين من غلب عليها فهى أرض عشر وأهلها رقيق ، وان لم يقسمها الامام وردها للمسلمين عامة ، كما فعل عمر بن الخطاب بسواد العراق ، فعلى رقاب أهلها الجزية وعلى الأرض الخراج ، وليس أهلها برقيق (١) وقد فتحت أرض سواد العراق عنوة واعتبرت فيئا للمسلمين ولكنها تركت لأهلها مقابل الخراج (٢) .

أما النوع الثانى من الأرض ، فهى أرض الفىء التى صولح عليها أهلها ، فيوضع عليها الخراج وهى بدورها قسمان : أحدهما أرض صولح أهلها على زوال ملكهم عنها وهذه لا يجوز بيعها ويكون خراجها مقابل ايجار لها ، ولا يسقط هذا الخراج باسلام أصحابها بل يؤخذ من المسلم ومن أهل الذمة ، والقسم الثانى الأرض التى صولح أهلها على بقاء ملكهم

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥١ .
(٢) ابن آدم : الخراج حـ١ ص ٦ .
(٣) يعرف ابن آدم الفىء بأنه ما صولح عليه المسلمون من الجزية والخراج بغير قتال

عليها ، وهذا يجوز بيعها ، ويسقط خراجها باسلام أصحابها (١) وكان العرب اذا صالحوا قوما فانهم يفرضون عليهم الجزية على الرءوس والخراج على الأرض (٢) .

أما النوع الثالث من الأرض فهى الأرض التى أسلم عليها أهلها ، فتصبح أرضا عشرية يدفع أهلها عنها عشر الزرع (٣) وهناك فرق كبير بين الخراج والعشر ، فالخراج مقابل ايجار الأرض ، أما العشر فيؤخذ من المسلمين كزكاة على الزرع والثمر . وكانت الأرض التى يستأنف المسلمون احياءها لايجوز أن يوضع عليها الخراج (٤) أما الأرض الموات اذا شربت ماء الخراج أصبحت أرض خراج سواء أكان صاحبها مسلم أو ذمى . أما اذا حفر صاحبها بئرا أصبحت أرضا عشرية (٥) وكان لايجوز أن يجتمع العشر والخراج ، بل يسقط العشر بالخراج (٦) .

أما النوع الرابع من الأرض فهو ما ملكه المسلمون عفوا أو فرأهلها عنها ، فيفرض عليها الخراج كأجرة لزراعتها سواء زرعها مسلم أو ذمى (٧) أما النوع الخامس فهى أرض بنى تغلب ، القبيلة العربية المسيحية ، وقد فرض عليها ضعف ما يؤخذ من المسلم فى أرضه وماشيته وأمواله مقابل اعفائهم من الجزية والخراج (٨) .

وخلاصة القول ، أن أرض الخراج هى كل أرض مسحت ووضع عليها الخراج ، وكل أرض روتها أنهار الخراج ، وخصصت لزراعة الغلات المختلفة أو جعلت بساتين للنخل والكروم وغيرها ، أو شغلت بالطواحين (٩) .

كان الخراج يظل مفروضا على الأرض المفتوحة عنوة بعد اسلام صاحبها لأن هذه الأرض فىء للمسلمين وملك لهم جميعا ، وما يدفعه

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٢٣ .
(٢) ابن آدم : الخراج حـ ١ ص ١٢ .
(٣) أبو يوسف : ص ٣٣ .
(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٣ .
(٦) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٠ .
(٧) المصدر السابق .
(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩١ .
(٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧ .

صاحبها هو ايجار مقابل زراعته لها (١) . فقد توجه رجل الى عمـــر بن الخطاب فقال : اني قد أسلمت فارفع عن أرضى الخراج • فقال عمـــر : ان أرضك أخذت عنوة (٢) وكان عمر بن عبد العزيز يقول : من أسلم من أهل الأرض فله ما أسلم عليه من أهل ومال ، فأما داره وأرضـــه فانها كائنة فى فىء الله عز وجل على المسلمين (٣) .

أما الأرض التى صولح أهلها على زوال ملكهم عنها فلايجوز بيعها ويعتبر خراجها ايجارا ، ولا يسقط الخراج باسلام أهلها انما ترفـع عنهم الجزية (٤) ويرى المؤرخ (جوزى) (٥) أن الأمويين أبقوا الخراج على هذه الأرض لحرصهم على المال وليس رغبة منهم فى مخالفة سنة عمر بن الخطاب • أما الأرض التى صولح أهلها على بقاء ملكهم عليها فيجوزبيعها ويسقط خراجها باسلام أهلها وتصبح أرضا عشرية (٦) وكان عمـــر بن الخطاب ينهى عن شراء أرض أهل الذمة ، أما على بن أبى طالب فـــكان يكره أن يشترى المسلمون أرض الخراج ويقول : عليها خراج المسلمين(٧) وكان الحجاج بن يوسف والى العراق فى العصر الأموى يقول :ماأبغض الى أن تكثر العرب فى أرض الخراج (٨) ولذا أعاد الحجاج الخراج على كل أرض أسلم أصـــحابها أو اشتراها مســـلمون ، مما ادى الى هـــرب أصحابها من القرى الى المدن ، فأعادهم الحجاج الى أرضهم رغما عنهم(٩)

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، أمر باعفاء كل من أسلم من الخراج ولكن عمـــر لاحظ أن هذه السياسة تضر ببيت المال ، فوضـــع حلا وسطا لتلك المشكلة بأن رفع عن الأرض التى يملكها المسلمون حتى سنة ١٠٠ هـ ، ثم قرر أن شراء المسلمين وامتلاكهم الأرض بعد هذا التاريخ

---

(١) ابن آدم : الخراج حـ ١ ص ٨ •
(٢) النويرى : نهاية الارب حـ ٨ ص ٢٥٤ •
(٣) ابن آدم : الخراج حـ ١ ص ١١ •
(٤) المصدر السابق حـ ١ ص ٧ •
(٥) من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٤٩ •
(٦) ان آدم : الخراج حـ ١ ص ٧ •
(٧) الطبرى حـ ٧ ص ٢٦٥ •
(٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد حـ ٢ ص ٤١٦ •
(٩) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ •

غير جائز ، لأن المسلمين حينما يشترون تلك الأرض تصبح أرضا عشرية ويسقط عنها الخراج ، وبذلك تقل الموارد المالية . وتبعا لهذه السياسة ، كان اذا أسلم رجل من أصحاب تلك الأرض الخراجية ، فان ملكيته تزول عن هذه الأرض وتصبح ملكا مشاعا للمسلمين . ومادامت الأرض ليست ملكا لشخص بعينه ، فكان يؤخذ منها الخراج والعشر معا : أما الخراج فلأنه مقابل الايجار لتلك الأرض ، وأما العشر فلأنه مسلم تجب عليه الزكاة فى الزروع والثمار . ولذا قال عمر بن عبد العزيز : « لايحل لأحد أن يحول أرض خراج الى أرض عشر ، ولا أرض عشر الى أرض خراج ، وذلك أن يكون للرجل أرض عشر والى جانبها أرض خراج فيشتريها فيصيرها مع أرضه ويؤدى عنها الخراج ، فهذا حد ما لا يحل فى الأرض والخراج » (١) .

كانت هناك عدة عوامل تؤثر فى اختلاف جملة الخراج من ناحية الى أخرى ، ومن سنة الى أخرى ، ومن عهد الى آخر . وقد ذكر الماوردى (٢) ربعة من هذه العوامل : أولها اختلاف جودة الأرض من مكان لآخر ، وزيادة هذه الجودة أو يقصانها تبعا لعناية الولاة والفلاحين بها . وثانيها نوع المحاصيل من حيث الجودة ، وهذه الجودة تتبع اهتمام الولاة بالزراعة ومكافحتهم للآفات الزراعية . وثالثها نظام الرى ، ومن البديهى أن تختلف نظم الرى ومشاريعها من عهد الى آخر ، ورابعها اختلاف حالة الأسواق ، ولا شك أنه كلما زاد عدد الأسواق زاد رواج المحصولات وبالتالى زاد الخراج .

الجزية فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين :

الجزية ليست من محدثات الاسلام ، بل هى قديمة من أول عهد التمدن القديم . وقد وضعها (يونان أثينا) على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين ، وفينيقية يومئذ من أعمال الفرس ، فهان على سكان تلك

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ .
(٢) الاحكام السلطانية ص ١٤٢ .

السواحل دفع المال فى مقابل حماية الرءوس • ووضع الرومان الجزية على الأمم التى أخضعوها ، وكانت أكثر كثيرا مما وضعه المسلمون بعدئذ فان الرومان لما فتحوا غاليا (فرنسا) وضعوا على كل واحد من أهلها جزية يختلف مقدارها ما بين ٩ جنيهات و١٥ جنيها فى السنة » ، أى نحو سبعة أضعاف جزية المسلمين • وكان الفرس يجمعون الجزية من رعاياهم (١) .

وذكر ابن خرداذبة (٢) أن الروم كانوا يأخذون من اليهود والمجوس دينارا فى السنة كذلك فرض النصارى على المسلمين الجزية لما فتحوا بلادهم ، فعند استيلاء الامبراطور باسيل على مدينة حلب سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) فرض دينارا عن كل رجل بالغ •

يشبه المؤرخ (آدم متز) (٣) الجزية فى العصر الاسلامى بضريبة للدفاع الوطنى ، فكان لايدفعها الا الرجل القادر على حمل السلاح ، ولا يدفعها ذوو العاهات ، ولا المترهبون وأهل الصوامع الا اذا كان لهم يسار •

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقدر الجزية بحسب الأموال ، وعلى مقتضى التراضى الذى كان يقع بين المسلمين وأعدائهم • وما زالت الجزية بلا تعيين الى آخر أيام أبى بكر ، فلما تولى عمر بن الخطاب وكثرت الفتوحات حدد مقدار الجزية ، فكتب الى أمراء الأجناد يأمرهم أن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى ، وأن يجعلوها على أهل الفضة كل رجل أربعين درهما ، وعلى أهل الذهب أربعة دنانير . وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة ، وثلاثة أقساط زيتا كل شهر لكل انسان فى الشام والجزيرة • ثم تعدلت الجزية ، فأصبحت تبعا لدرجة ثراء الذمى ، فيدفع الموسر ٤٨ درهما على أقساط ، ٤ دراهم فى كل شهر ، ويدفع متوسط الحال ٢٤ درهما ، كل شهر درهمان ، ويدفع فقير الحال

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى حـ ١ ص ٢٢٨ •
(٢) المسالك والممالك ص ١١١ •
(٣) الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ حـ ١ ص ٧٨ •

١٢ درهما كل شهر درهم مع اعفاء النساء والأطفال ورجال الدين والشيوخ والعجزة •

وفى بعض البلاد المفتوحة كانت شروط الصلح تحدد مقدار الجزية مثلما حدث فى مصر حين اتفق عمرو بن العاص مع الأقباط على أن يدفع الذمى دينارين كل سنة ، وعليه اضافة من ينزل عليه من المسلمين ثلاثة أيام ، مع اعفاء النساء والصبيان والشيوخ ورجال الدين أيضا من الجزية •

وكثيرا ما كانوا يقدرون الجزية باعتبار ما يبقى فى أيدى الناس من دخلهم بعد نفقاتهم ، كما حدث فى بلاد العراق والجزيرة ، فقد حدد الفاتحون دينارا على كل رأس فلما تولى الخليفة عبد الملك بن مروان استقل ذلك ، فبعث الى عامله هناك فأحصى الناس ، وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ، وطرح من ذلك نفقته فى طعامه وأدمه وكسوته ،وطرح أيام الأعياد فى السنة كلها ، فوجد الذى يحصل بعد ذلك أربعة دنانير لكل واحد ••

ويذكر المؤرخ (آدم متز) (١) أن الجزية بوجه عام قد ظلت عند المقدار الذى فرضته الشريعة ، وانما كانت تتغير تغيرا يسيرا بحسب تغيير العملة •

كان كل من يعتنق الاسلام من أهل الذمة طوال حكم الخلفاء الراشدين والأمويين حتى فترة حكم الحجاج بن يوسف الثقفى ، ترفع عنه الجزية • وسار الخلفاء على سيرة عمر بن الخطاب • وكان الحجاج أول من أبقى الجزية على من أسلم ، فقد لاحظ أن عددا كبيرا من أهل الذمة قد اعتنق الاسلام ، وأسرعوا الى سكنى المدن ، ولذا أمر بعدم اعفائهم من الجزية واعادتهم الى قراهم بالقوة (٢) • أما عمر بن‌عبدالعزيز فقد أمر برفع الجزية عمن أسلم •

---

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ حـ ١ ص ٧٩ •
(٢) الطبرى حـ ٢ ص ٥ ٣ •

ولذا شهد عهد عمر بن عبد العزيز حركة تحول الى الاسلام واسعة النطاق ، تحدث عنها المؤرخ (توماس أرنولد) (١) فقــال : فقام عمــر بتنظيم حركة ملؤها الحماسة فى نشر الدعوة ، وقدم للشعوب المحتلة كل لون من ألوان الاغراء لقبول الاسلام ، حتى بمنحهم هبات من الأموال،

وقد قيل انه أعطى فى احدى المناسبات بطريقا نصرانيا ألف دينــار تألفه بها على الاسلام ، كما أمر عمال الولايات الاسلامية بدعوة الذميين الى الاســلام • حتى أن الجراح بن عبــد الله والى خراسان أدخــل فى الاسلام نحو من أربعة آلاف شخص • بل قيل ان عمــر كتب الى ملك الروم (لاون الثالث) يدعوه الى الاسلام •

ثم يقول (توماس أرنولد) : ومع ذلك فــلا ينبغى أن نفترض أن مثل هذه الاعتبارات المادية كانت هى المؤثرات الوحيدة الفعالة فى تحول المسيحيين الى الاسلام •

الحرية الدينية وبناء الكنائس :

تذكر بعض المصادر العربية أن عمر بن الخطاب اشترط على النصارى ألا يستحدثوا من الكنائس شيئا ، وألا يجددوا ما خرب منها وما تهدم ، أو يعيدوا بناء البيع القائمة فى نواح من المــدن الآهلة بالمسلمين • ويرى (ترتون) (٢) أن هذا الشرط لم يوضع موضع التنفيذ بعــد عهد عمر ، وأن الكنائس ظلت تبنى ، ويشير (ترتون) الى عبــارة لابن عبــاس جاء فيها : « ان كل مصر مصرته العرب فليس للذميين أن يحدثوا فيه بنــاء بيعة ولا كنيسة ، ولا يضربوا فيه بناقوس •• وكــل مصر مصرته العجم ففتحه الله على العرب ، فنزلوا على حكمهم فللعجم ما فى عهدهم ،وللعرب أن يوفوا لهم بذلك » (٣) .

ويمكن تلخيص المذاهب فيما يتعلق بالكنائس ، بأن الأئمة يتفقون على عدم اســتحداث بيع أو كنــائس فى دار الاســلام ، ويرى مالك

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٠٢ •
(٢) أهل الذمة فى الاسلام ص ٣٩ •
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٨٨ •

والشافعى وابن حنبل أنه لا يجوز احداث كنيسة فيما قارب المدن والامصار بدار الاسلام . أما أبو حنيفة فيقول بالمنع اذا كان المكان قريبا من المدينة ولا يبعد عنها بأكثر من ميل ، فان زاد عن ذلك جاز للذميين البنـاء ، أما اذا انهدم شيء من كنائسهم وبيعهم فى دار الاسـلام وأرادوا ترميمه أو تجديده جاز لهم ذلك فى رأى ابن حنبل والشافعى ومالك أما أبو حنيفة فيجيزه لهم اذا كانت الكنيسة أو البيعة فى أرض فتحت صلحا ، أما اذا كانت الكنيسة أو البيعة فى أرض فتحت عنوة فانه لا يجـوز لهم ذلك ، وقد ذهب بعض أصحاب أحمد وجماعة من أعلام الشافعية كأبى سـعيد الاصطخرى وأبى على بن هريرة أنه لا يجوز الذميين ترميم ما تشعث ، ولا تجديد بناء على الاطلاق ولأحمد رواية ثانية أنه يجوز ترميم ماتشعث دون ما استولى عليه الخراب أما الرواية الثالثـة فهى تجـوز لهم عـلى الاطلاق (١) .

ويذكر المؤرخ ابن العبرى أن البطرك النسطورى أبرم اتفاقا مـع العرب كان من بين ما اشتمل عليه شرط ينص عـلى أن يمد العـرب يد المساعدة للنساطرة فى تجديد كنائسهم القديمة .

وقد اختلف تطبيق هذه القواعد والآراء على مر العصور ،باختلاف سياسة الخلفاء والولاة ومدى تسامحهم . فقد بنيت عدة كنائس فى مصر مثل كنيسة (مار مرقص) بالاسكندرية ما بين عامى ٣٩ و٥٦ هـ ، كمـا بنيت أول كنيسة بالفسطاط فى حارة الروم فى ولاية مسلمة بن مخلد على مصر بين عامى ٤٧ و ٦٨ هـ . كما سمح عبد العزيز بن مروان حين أنشأ مدينة حلوان ببناء كنيسة فيها ، كماسمح لبعض الأساقفة ببناء ديرين ، كما سمح لكاتبه المسيحى أثناسيوسر ببناء كنيسة فى قصر الشمع ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة . وقد ذكر المؤرخ (المقريزى) فى كتابه (الخطط) أمثلة عديدة ثم ختم حديثه بقوله : « وجميع كنائس القاهرة المذكـورة محدثة فى الاسلام بلا خلاف .

---

(١) الشعرانى : كتاب الميزان جـ ٢ ص ١٦٣ ، أهل الذمة فى الاسلام ص ٤٠ .

ومن المسائل التى تناولها المستشرقون مسألة كنيسة القديس يوحنا بدمشق ، وقد ناقش المؤرخ الهندى المسلم (خودابخش) (١) فى كتابه الذى قمنا بترجمته ، ثم قال فى هذا المجال لا يسعنا الا أن نذكر حادثة تتعلق بكنيسة القديس يوحنا ، فى دمشق ، ونستند فى مناقشتها على كتاب فتوح البلدان للبلاذرى ، وهى تدل على معاملة المسلمين ، ونستطيع أن نقول فى اطمئنان أن العرب لم ينتهجوا سياسة « انتزاع الملكية »ولم يستعملوا القوة فى الأقاليم التى يحكمونها طالما السياسة أجدى .

أما رواية البلاذرى (٢) فهى : « ولما ولى معاوية بن أبى سفيان أراد أن يزيل كنيسة يوحنا فى المسجد بدمشق ، فأبى النصارى ذلك فأمسك ، ثم طلبها عبد الملك بن مروان فى أيامه للزيادة فى المسجد وبذل مالا فأبوا أن يسلموها اليه ، ثم ان الوليد بن عبد الملك جمعهم فى أيامه وبذل لهم مالا عظيما على أن يعطوه اياها ، فقال لئن لم تفعلوا لأهدمنها، فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ان من هدم كنيسة جن واصابته عاهة . فأحفظه قوله ودعا بمعول وجعل يهدم بعض حيطانها بيده وعليه قباء خز أصفر ، ثم جمع الفعلة والنقاضين فهدموها وأدخلها فى المسجد . فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكى النصارى اليه ما فعل الوليد بهم فى كنيستهم ، فكتب الى عامله يأمره برد ما زاده فى المسجد عليهم : فكره أهل دمشق ذلك فقالوا : نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربى وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها فرضوا بذلك وأعبجهم ، فكتب به الى عمر فسره وأمضاه »

اعترف المؤرخ (ترتون) (٣) بالحرية الدينية التى تمتع بها » أهل الذمة ، فقال : « على أن العرب كانوا لا يلتزمون على الدوام شروط عهودهم التزاما حرفيا) فلم يطبق المسلمون النواهى التى جاءت فى هذه

---

(١) الحضارة الاسلامية ص ١١٦ .
(٢) فتوح البلدان ص ١٣١ — ١٣٢ .
(٣) أهل الذمة فى الاسلام ص ٤٧—٤٨ .

العهود ، وكانت سياستهم مرنة متسامحة . كما قال (ترتون) أيضا : «ولم يكن من المجهــول أن المسلمين والنصارى كانوا يلتقون فى الكنائس على مودة واتفاق .

النصارى العرب من بنى تغلب

ذكر أبو عبيد حديثا شريفا عن الحسن نصه : « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقاتل العرب على الاسلام . ولا يقبل منهم غيره، وأمر أن يقاتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . ثم قال أبو عبيد (١) : « وانما نرى الحسن أراد بالعرب ههنا أهل الأوثان منهم الذين ليسوا بأهل كتاب ، فأما من كان من أهل الكتاب فقــد قبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ، وذلك بين فى أحاديث » . وقــد كتب الرسول الى أهل اليمن « انه من كان على يهودية أو نصرانية فانه لا يفتن عنها ، وعليه الجزية . عــلى كل حالم ، ذكرا أو أنثى ، عبــدا أو أمة ، دينار واف أو قيمته من المعامر . فمن أدى ذلك الى رسلى فان له ذمة الله وذمة رسوله ومن منعه منكم فانه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين ».

ويعلق أبو عبيد على ذلك فيقول : فقد قبل رسول الله صلى اللهعليه وسلم الجزية من أهل اليمن ، وهم عرب ، اذ كانوا أهل كتــاب ، وقبلها من أهل نجران ، وهى من بنى الحرث بن كعب .

وروى أبو عبيد أيضا : « عن النعمان بن زرعة : أنه سأل عمــر بن الخطاب ، وكلمه فى نصارى بنى تغلب وكان عمر قد هم أن يأخــذ منهم الجزية ، فتفرقوا فى البلاد . فقال النعمان لعمر : يا أميــر المؤمنين ، ان بنى تغلب قوم عرب يأنفون من الجزية ، وليست لهم أموال ، انمــا هم أصحاب حروث ومواش ، ولهم نكاية فى العدو ، فلا تعن عدوك عليك بهم ، قال : فصالحهم عمر بن الخطاب ، على أن أضعف عليهم الصدقة ، واشترط عليهم أن لاينصروا أولادهم » .

---

(١) الاموال ص ٢٦ .

عن أبى حنيفة أنه قال : « أما نساؤهم فهن بمنزلة رجالهم فى كل شىء ، وأما صبيانهم فانما يكونون مثلهم فيما يجب على الأرض خاصة ، فأما المواشى وما يمرون به من أموالهم على العاشر فلا شىء فيه عليهم ان أسلم التغلبى أو اشترى مسلم أرضه فان العشر عليه مضاعفا ، على الحال الأولى) .

ويعلق (ترتون) (١) على ذلك فيقول : والظاهر أن عمر بن الخطاب رأى أنه مما يعيب العرب أن تبقى جماعة منهم على غير الاسلام ، فقد أمر زياد بن جرير الأسدى متولى الخراج أن يشتد فى معاملة التغالبة لأنهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب . ولم يكن معنى ذلك عدم معاملتهم بالعدل ، بل ان العدالة كانت ملموسة موفورة .

---

(١) أهل الذمة فى الاسلام ص ٩٤ .

الفصل الثامن
أهل الذمة في العصرين العباسي والعثماني

تسامح الخلفاء العباسيين مع أهل الذمة :

تمتع أهل الذمة بالتسامح والحرية فى العصر العباسى ، وامتلأت بغداد بكثير من الأديرة أشهرها دير العذارى ، وكان فى قطيعة النصارى على نهـر الدجاج ، ودير درمايس الذى وصـفه الشـابشتى فى كتابه (الديارات) ، وكان به البساتين الكثيفة الأشجار ، ويقصـده النـاس للنزهة ، ودير الروم شرقى بغداد ، الذى أشار أحد رهبانه على أبى جعفر المنصور ببناء مدينته فى هذا الموضـع ، وكان بالنسـطوريين . وكان النصارى واليهود يقيمون شعائرهم الدينية فى أديارهم وبيعهم فى بغداد وخارجها فى أمن وسلام ، مما يدل على أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الدينى مع أهل الذمة .

وقد أوجدت الحاجة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعا من التسامح ، ولم تتدخل الحكومة الاسلامية كذلك فى شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بحمايتهم (١) .

تولى كثير من المسـيحيين المناصب الكبرى فى العصر العباسى ، فتولى أبو اسحاق الصابى منصب (الكاتب) وكان من أسمى المناصب ، كما كان نصر بن هارون وزير عضد الدولة مسيحيا . وبرز رجال مسيحيون فى بلاط الخلفاء العباسيين ، أمثال : جبريل ، سلامية ، حنين بن اسحق ، يوحنا بن ماسويه . أما الخليفة المعتضد الذى لم يكن يسمح لأحد ، مهما

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام حـ ١ ص ٢٩١ .

كانت منزلته ، بأن يجلس فى حضرته ، فقد أعطى هذا الحق لوزيره الذمى ثابت بن قرة .

كان المتوكل حقيقة أول خليفة عباسى يفرض على المسيحيين واليهود أن يرتدوا أزياء تختلف عن أزياء المسلمين . ويعلق المؤرخ الهندى المسلم (خودانجش) (١) على هذه السياسة فيقول : ولكن يجب ألا ننسى أن ذلك الخليفة هو الرجل الذى اعتدى على قبر الحسين وخالف أبرز تعاليم الاسلام ، فهل يمكن أن نعتبره نموذجا لمعاملة قادة المسلمين ؟ فقد أدت أعماله الشيطانية الى اشتهاره بأنه رجل فاسد . وفيما يتعلق بهذا الموضوع ، يجدر بنا أن نتذكر أن المسلمين تعلموا من الشعوب المغلوبة كل ما استطاعوا أن يتعلموه ، عدا محاكاتهم فى عاداتهم وملابسهم ، وان كان هناك بعض الخلفاء قد اقتبسوا بعض أزيائهم ، وخير مثال على ذلك المأمون والمعتصم بالله .

ولكن المتوكل لم يكن متعصبا ، بل استعان ببعض الموظفين المسيحيين مثل دليل بن يعقوب النصرانى . وكان لخلفه المقتدر أربعة كتاب من المسيحيين . وكان الكتاب المسيحيون منتشرين فى كل مكان ، حتى ان محمد بن عبد الله بن طاهر فى القرن الثالث الهجرى اتخذ له قهرمانيا نصرانيا . وكان الحسين بن قاسم وزير الخليفة المقتدر (٣١٩هـ) يتقرب الى النصارى الكتاب ويحسن معاملتهم (٢) وكان للخليفة الطائع (٣٦٣ — ٣٨١ هـ) كاتب نصرانى . وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى اتخذ كل من عضد الدولة (المتوفى سنة ٣٧٢ هـ) فى بغداد ، والخليفة العزيز فى القاهرة وزيرا نصرانيا . وقد استأذن نصر بن هارون وزير عضد الدولة سيده فى عمارة البيع والأديرة وفى اطلاق المال لفقراء النصارى ، فأذن له .

وقد أفتى بعض فقهاء الاسلام بأنه يجوز أن يكون وزير التنفيذ ، لا وزير التفويض ، من أهل الذمة . فقد كان وزير التنفيذ لا يباشر الحكم

(١) الحضارة الاسلامية (من ترجمتنا) ص ١١٨ .
(٢) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ جـ ١ ص ٨٩ .

ولا يقلد العمال ولا يدبر الجيش . أما وزير التفويض فهو الذى يفوض الخليفة اليه تدبير المملكة برأيه ، ولم يكن وزير التنفيذ الا سفيرا بين الخليفة والرعية .

اعترف المؤرخ (ترتون) (١) بحسن معاملة أهل الذمة فى العصر العباسى ، فقال : « على أن ذمية المرء لم تكن تحول قط بينه وبين تولى المناصب الدينية الرفيعة بين المسلمين ، ولنسق دليلين على ذلك أحدهما هو الصوفى صاحب الكرامات معروف الكرخى المتوفى سنة ٢٠٠ هـ ، فقد خرج من صلب أب نصرانى ، وأما الآخر فهو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافى القاضى المجوسى الأب ، وقد توفى الحسن سنة ٣٦٨ هـ . وعلى أية حال ، فقد كان النصارى فى بعض الأحايين يؤثرون العيش فى ظل الحكم الاسلامى على العيش فى ظل اخوانهم المسيحيين » .

أهل الذمة والمناصب الكبرى :

اشتهر من بين أهل الذمة فى العصر العباسى كثير من العظماء ، مثل جرجيس بن بختيشوع طبيب الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، وقد وثق الخليفه فيه وأكرمه . ومن هؤلاء جبرائيل بن بختيشوع طبيب هارون الرشيد ، الذى قال الرشيد عنه : كل من كانت له حاجة الى فليخاطب بها جبريل لأنى أفعل كل ما يسألنى فيه ويطلبه منى . وكان مرتب الطبيب عشرة آلاف درهم شهريا . ومن هؤلاء أيضا (ماسويه) الذى كان الرشيد يجرى عليه ألف درهم سنويا ، ويصله كل سنة بعشرين ألفا . وأشاد (ترتون) (٢) بتسامح المسلمين فقال : والكتاب المسلمون كريمون فى تقدير فضائل هؤلاء ممن على غير ملتهم حتى ليسمون حنين بن اسحق برأس أطباء عصره ، وهبة الله بن تلميذ بأبو قراط عصره وجالينوس دهره .

وكان بختيشوع بن جبرائيل ينعم بعطف الخليفة المتوكل حتى أنه كان يضاهيه فى ملابسه وفى « حسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة

---

(١) أهل الذمة فى الاسلام ص ١٦٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٠ .

ومباراته فى الطيب والجوارى والعبيد » . ولما مرض (سلمويه) بعث المعتصم ابنه لزيارته ، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته الى القصر ، وأن يصلى عليه بالشموع والبخور جريا على عادة النصارى ، وامتنع المعتصم، يوم موته ، عن أكل الطعام .

أما يوحنا بن ماسويه ، فقد خدم الخلفاء العباسيين منذ الرشيد الى المتوكل ، وكان لا يغيب قط عن طعامهم ، فكانوا لا يتناولون شيئا من أطعمتهم الا بحضرته ، ومن ثم لم تكن هناك أدنى كلفة بينه وبين الخليفة المتوكل ، فكان الخليفة يداعبه فى رفق ولين .

واشتهر من بين أهل الذمة كثير فى ميدان الآداب والفنون ، فيقول (ترتون) : ظلت علاقات العرب برعاياهم فى ميدان الآداب والفنون علاقات طيبة قائمة على المودة خلال القرنين الأول والثانى للهجرة ، بل ان كثيرا من هذه المودة استمر بعد هذه الفترة ، وقد اصطنعت الحكومة مهندسين وعمالا من غير المسلمين .

درس كثير من الذميين على أيدى مدرسين وفقهاء مسلمين . من ذلك أن حنين بن اسحق درس على يد الخليل بن أحمد وسيبويه حتى أصبح حجة فى العربية (١) . وتتلمذ يحيى بن عدى بن حميد — أفقه رجال عصره فى المنطق — على يد الفارابى . ودرس ثابت بن قرة على محمد بن موسى الذى قدمه الى الخليفة المعتضد العباسى . وتلقى ابن جزلة علومه على يد على بن الوليد من رجال المعتزلة ، وكان حسن الخط متمكنا من الأدب ، وتدل مؤلفاته وكتبه على عمق تفكيره وقوة معرفته ، وما لبث أن اعتنق الاسلام (٢) .

ويضرب المؤرخ (ترتون) (٣) لتسامح العباسيين مع أهل الذمة مثلا فيقول : يمكن اتخاذ ابراهيم بن هلال مثالا لما قد يصير اليه الذمى من

---

(١) الاصفهانى : الاغانى حـ ٨ ص ١٣٦ فى الحاشية .
(٢) ابن أبى أصيبعة . طبقات الاطباء حـ ١ ص ١٨٥ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان حـ ٣ ص ٢٥٦ .

بلوغ أرفع المناصب فى الدولة ، فقد تقلد ابراهيم الأعمال الجليلة فامتدحه الشعراء ، وعرض عليه عز الدولة بختيار بن معز الدولة البويهى أن يوليه الوزارة أن أسلم فامتنع ، وكان ابراهيم بن هلال حسن العشرة مع المسلمين عفيفا فى مذهبه ، وكان بينه وبين الصاحب اسماعيل بن عباد والشريف الرضى مراسلات ومواصلات ، رغم اختلاف الملل ، وكان ابراهيم حافظا للقرآن .

واهتم الكتاب المسلمون بالأديان والمذاهب ، فكان ابن حزم الأندلسى (٤٥٦ هـ = ١٠٦٤) ملما بالانجيل واللاهوت المسيحى الماما تاما . وألم ابن خلدون بالانجيل والتنظيمات الكنسية ، وتحدث عن بعضها فى مقدمته . وكان القلقشندى يرى ضرورة معرفة الكاتب بأعياد الذميين الدينية . وذكر المقريزى كثيرا من التفاصيل عن أعياد النصارى واليهود ، وتحدث عن فرقهم المختلفة ، وذكر أسماء بطارقة الاسكندرية . وتحدث كل من القزوينى والمسعودى عن طوائف أهل الذمة ، نرى هذا واضحا فى كتاب (التنبيه والاشراف للمسعودى) .

واعترف (ترتون) (١) بتسامح الحكام المسلمين فقال : كان سلوك الحكام المسلمين فى الغالب أحسن من القانون المفروض عليهم تنفيذه على الذميين ، وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة فى المدن العربية الخالصة ، ولم تخل دواوين الدولة قط من العمال النصارى واليهود ، بل انهم كانوا يتولون فى بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها ، فاكتنزوا الثروات الضخمة وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة ، كما اعتاد المسلمون المساهمة فى الأعياد المسيحية .

اقبال أهل الذمة على الاسلام فى عهد المأمون العباسى :

من الوثائق التاريخية ، وثيقة اسلامية تعود الى عصر المأمون العباسى (١٩٨ - ٢١٨ هـ) ، وهى رسالة كتبها عبد الله بن اسماعيل الهاشمى ، وهو ابن عم الخليفة ، الى عربى مسيحى كريم المحتد ، هو المسيح بن

(١) أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٥٦ .

اسحاق الكندى ، وكان له منزلة كبيرة فى البلاط ، وموضع احترام وتقدير الخليفة . وهذه الوثيقة هى صورة واضحة من صور الدعوة الى الاسلام ، وقد تحدث المؤرخ (توماس أرنولد) (١) عن هذه الوثيقة فقال : « وفى هذه الرسالة يرجو ابن عم الخليفة من صديقه المسيحى أن يدخل فى الاسلام ، وكان رجاؤه فى لهجة تنم عن الود ، وفى لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين السمح تجاه الكنيسة المسيحية فى ذلك العصر».

وان كان الخليفة المأمون يرغب غير المسلمين فى اعتناق الاسلام ، الا أنه لم يكن يرضى أن يعتنقه أحدهم الا عن اقتناع تام وقبول حقيقى، وكثيرا ما هاجم المأمون فى مجالسه هؤلاء الذين اعتنقوا الاسلام لغرض دنيوى ، وكا نيشبهم بالمنافقين فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . ويعلق (أرنولد) على موقف المأمون هذا فيقول : « وهذا يدلنا على أن المسلمين كانوا ينتظرون ويرجون ممن دخلوا الاسلام حديثا ، اقتناعا بريئا خالصا ، كما تدلنا على أن اكتشاف الأنانية والبواعث الدنيئة فى اعتناقه للدين قد جرت عليهم أشد ألوان اللوم والتقريع » .

ووجه المأمون اهتمامه الى الشعوب التى كانت تسكن فى الأطراف الشرقية من الدول العباسية وخاصة بلاد ماوراء النهر ومرغانة ، تعمل على تحويلها من أديانها المجوسية الى الاسلام . أما أهل الذمة فقد ترك لهم الحرية الدينية التامة فى اعتناق الاسلام ، وكانت لهذه السياسة الرشيدة الحرة أثرها فى اقبال كثير من الذميين على الاسلام فى حرية تامة .

وتحدث المؤرخ (ترتون) (٢) عن التسامح فى عهد المأمون العباسى وضرب لهذا التسامح مثلا فقال : وفى زمن خلافة المأمون ، كان هناك نصرانى يدعى بكام من أثرياء بورة من أعمال مصر ، فاذا كان يوم الجمعة لبس السواد — وهو شعار العباسيين — وتقلد السيف ، وامتطى حصانه ومضى الى الجامع وبين يديه رجاله ، حتى اذا بلغ باب المسجد وقف وأنفذ رسولا مسلما من قبله دخل الجامع وصلى بالناس . ويضرب المؤرخ

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٠٤ .
(٢) أهل الذمة فى الاسلام ص ١٢٥ .

(ترتون) (١) أيضا مثلا آخرا ، فيقول : وفى عهد المأمون أعيد ترميم الديارات فى وادى النطرون ، وقام بعض حجاب المأمون باعادة بناء كنيسة العذراء بناحية القنطرة ، واستطاع مسيحيان الحصول على اذن يخول لهما بناء كنيسة على جبل المقطم ، لأن الكنائس الموجودة بالقلعة كانت شديدة البعد ، وفى هذه الحقبة شيد) بكام) أحد أثرياء قصارى) بوره) عدة كنائس رائعة فى بلدته .

المجوس فى العصر العباسى واقبالهم على الاسلام :

تناقص عدد المجوس فى العصر العباسى ، وأقبـل كثير منهم على الاسلام . وان بقاء طائفة المجوس طوال العصر الأموى وفترة من العصر العباسى لدليل واضح دامغ على تسامح المسلمين وعدم لجوئهم الى القوة فى نشر الاسلام . وقد شهر أواخر القرن الثالث الهجرى (نهاية القرن الثامن الميلادى) دخول أعداد كبيرة من المجوس فى الاسلام . فقد أسلم سامان أمير بلخ ، وكان مجوسيا زرادشتيا ، وأسس مملكة اسـلامية هى الدولة الســامانية . وفى سنة ٨٧٣ دخـل جمـع كبير من أهـل الديلم الزرادشتيين فى الاسلام على يد ناصر الحق أبى محمد . وفى سنة ٩١٢م دعا الحسن بن على — من الأسرة العلوية التى كانت تحـكم الشاطىء الجنوبى لبحر قزوين — أهل الديلم وطبرستان الى الاسلام ، فاستجاب معظمهم ، وكان بعضهم وثنيين والبعض الآخر زرادشتيين . وفى سـنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) اعتنق الشاعر المشهور مهيار الديلمى الاسلام على يد الشريف الرضى ، وكان من عبدة النار . وقبله وفى أوائل القرن الثانى للهجرة خرج من الزرادشتيين الى الاسلام عبد الله بن المقنع .

تحدث المؤرخ (توماس أرنولد) (٢) عن تحول المجوس الى الاسلام فقال على الرغم من قلة المعلومات التى وصلت الينا عن تحول المجوس الى الاسلام فيبدو أن انتحالهم لهذاالدين كان بمحض ارادتهم كما يظهر ، أن اتباع ديانة ذرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية الى نهاية العصر

---

(١) المصدر السابق ص ٥١ .
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٣٤٠ .

العباسى ، وعومل المجوسى فى القرن الرابع الهجرى كأهل ذمة فكان لهم كاليهود والنصارى رئيس يمثلهم .

فى قصر الخلافة وعند الحكومة . وعاش المجوس فى هذا القرن فى ظل التسامح الاسلامى ، وذكر الرحالة (المقدسى) أنه لم ير فى مدينة شيراز مجوسيا يرتدى رداء يميزه عن غيره ، وكانت الأسـواق تزين فى أعياد المجوس .

صداقة الدولة العباسية لدولة الفرنجة :

كانت الدولة العباسية أحسـن دول العـالم وأكثرها هيبة وحضارة ، وأوسعها رقعة ، وقد أخذت بفكرة الدبلوماسية الاسلامية التى تربط الأمم والحكومات بعضها ببعض ، فتبادل الخلفاء مع ملوك هذه الدول الهدايا والرسائل ،كما ظهر تبادل ثقافى ظهر واضحا فى حركة ترجمة واسعة من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية ، ونقل أمهات المؤلفات العربية الى لغات أجنبيـة ، ووقف الملوك الأجانب على حقيقة روح الاسـلام القائمة على التسامح والمودة والحرص على السلام .

تقرب (شارل مارتل) ملك الفرنجـة الى الخليفـة العباسى المهدى ليكتسب شيئا من النفوذ فى بلاده ، وجنى (شارلمان) ثمار هذه السياسة ، فاكتسب محبة هارون الرشيد . وخطب شارلمان ود الرشيد فأرسل اليه وفدا مؤلفا من رجلين من النصارى ورجلا من اليهود ، لتسهيل سبيل الحج الى بيت المقدس ، ونشر التجـارة بين البلدين ، والحصـول على علوم الشرق . وأدت هذه السفارة الى ارسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس الى شارلمان ، وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد . وكان من الهدايا التى أرسلها الرشيد الى شارلمان تلك الساعة المائية الدقاقة التى ظنوا أنها آلة سحرية ، وغيرها من هدايا الشرق النادرة .

ورغم أنه كثيرا ما كانت الدولة العباسية تصطدم بالدولة البيزنطية ، الا أنه أحيانا تسود فترات هدوء ومهادنة . ومن أمثـلة ذلك الرسـالة التى بعث الأمبراطور (ثيوفيل) الى الخليفة المأمون العباسى بصدد تبادل

الأسرى ، وقد قال فيها : « وقد كتبت اليك داعيا الى المسالمة ، راغبا فى فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ويكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ، مع اتصال المرافق والفسيح فى المتاجر وفك الأسرى وأمن الطريق » .

ومن أمثلة المودة الطيبة بين المسلمين والمسيحيين ، كتاب بطريق القسطنطينية الى أمير كريت المسلم ابان تبعيتها للدولة الاسلامية وقد جاء فيه : « ... الى الأمجد الأغر الأشرق أمير جزيرة كريت : ان أعظم قوتى العالم أجمع ، قوة العرب ، وقوة الروم ، تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء ، وبهذا وحده يجب أن نعيش أخوة ، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين » .

المسيحيون فى ظل الحكم العثمانى الاسلامى :

تحت عنوان (علاقات الأتراك برعاياهم المسيحيين قائمة على التسامح) كتب المؤرخ (توماس أرنولد) (١) : باشر العثمانيون السلطة على الرعايا المسيحيين منذ الأيام الأولى التى قاموا فيها بتوسيع مملكتهم فى آسيا الصغرى . ولم تكد حاضرة الامبراطورية الشرقية القديمة تسقط فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ م ، حتى توطدت العلاقات بين الحكومة الاسلامية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت . ومن أولى الخطوات التى اتخذها محمد الثانى بعد سقوط القسطنطينية واعادة اقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين ، بأنأعلن نفسهحامى الكنيسة الاغريقية ،فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا ، ومنح البطريق الجديد مرسوما يضمنله ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التى كانوا يتمتعون بها فى العهد السابق .

ولم يقتصر المسلمون فى معاملة رئيس الكنيسة على ماتعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم ، بل كان متمتعا أيضا بسلطة أهلية واسعة ، فكان من عمل البطريركية أن تفصل فى القضايا التى تتعلق

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٧٠ .

بالاغريق بعضهم مع بعض .. بينما صدرت الأوامر الى الوزراء وموظفى الحكومة بتنفيذ هذه الأحكام وكانت المراقبة التامة على الشئون الروحية والكنيسة (وهى التى لم تتدخل فيها الحكومة التركية مطلقا بعكس السلطة المدنية التى كانت مخولة للدولة البيزنطية) متروكة كلها فى أيدى البطريق وأعضاء المجمع الأعظم ، وكان فى استطاعة البطريق أن يدعوهم متى شاء . كذلك كان فى استطاعته أن يفصل فى كل شئون العقيدة والشريعة من غير أن يخشى تدخلا من جانب الحكومة . ولما كان هذا البطريق معترفا به موظفا من موظفى الحكومة السلطانية ، كان يستطيع أن يقوم بعمل كبير فى رفع الظلم عن المظلومين بأن يوجه أنظار السلطان الى أعمال الحكام الظالمين .

كذلك عومل الأساقفة من الاغريق فى الولايات معاملة تنطوى على رعاية بالغة ؛ وعهد اليهم كثيرا من القضايا المتعلقة بشئونهم المدنية ، الى حد أنهم ظلوا حتى عصور حديثة يعملون فى أسقفياتهم كما لو كانوا عمالا من الأتراك الأرثوذكس ، وبذلك حلوا محل الارستقراطية المسيحية القديمة ، التى استأصل الغزاة شأفتها .

كان من أثرذلك ، أن الاغريق ، ولو أنهمكانوا يفوقون الأتراك عددا فى كل الولايات الأوروبية التابعة للدولة ، قد جعلهم التسامح الدينى الذى رخص لهم ، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم ، يسرعون فى الموافقة على تغيير سادتهم وايثار سيادة السلطان على سيادة أية سلطة مسيحية . وكان الغزاة العثمانيون فى بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيبا من جانب الاغريق ، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد ، حكم الفرنجة وأهل البندقية الذين طال نزاعهم مع بيزنطة حول ملكية (البلوبونيز) وبعض الجهات المجاورة لبلاد اليونان ، فقد صيروا الشعب فى حالة من العبودية يرثى لها ، بادخالهم نظام الاقطاع فى اليونان ، كما كانوا مكروهين من رعاياهم لاختلافهم عنهم فى اللغة والجنس والعقيدة ، ووجد هؤلاء الرعايا أن أى تغيير لحكامهم ، طالما لا يمكن أن ينقلهم الى حالة أسوأ مما هم عليه ، قد يهيىء لهم فرصة ممكنة لتحسين هذه الحالة .

ويعدد (أرنولد) (١) مظاهر تسامح العثمانيين فى معاملتهم للمسيحيين فيقول : حدثنا المؤرخ البيزنطى الذى روى قصة سقوط القسطنطينية ، كيف كان بايزيد الصارم نفسه ، رحب الصدر ، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين ، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه فى حرية تامة . وقد اشتهر مراد الثانى بعنايته فى تحقيق العدالة باصلاحه للمفاسد التى سادت فى عهد الأباطرة الاغريقيين ، وعاقب فى غير هوادة أى موظف من موظفيه استبد بأى فرد من رعاياه . لهذا رأينا بعد سقوط القســطنطينية بقرن على الأقل ، طائفة من الحكام الصــالحين ، واستطاعوا بفضل الادارة الحازمة الصارمة أن ينشروا الأمن والنظام فى المقاطعات كلها ، ووجدنا تنظيما رائعا فى الشئون المدنية والقضائية .

المسيحيون فى المجتمع العثمانى :

فتحت الدولة العثمانية كثيرا من الأقطار الأوروبية التى يدين معظم أهلها بالدين المسيحى . وقد عاش الرعايا المسيحيون الى جانب العثمانيين المسلمين فى مجتمع واحد تظللهم سماء الحرية والتعاون . واعترف المؤرخ (أرنولد) بهذه الحقائق فقال : وفيما وصل الينا من الأخبار التى تتعلق بالصلات الاجتماعية بين النصارى والمسلمين وعدم وجود حدود فاصلة تميز بين الفريقين ، نجد ما يرشدنا الى الحالة التى ظفرت فيها المؤثرات الاسلامية تدريجيا ، بداخلين فى الدين من بين الأهالى المسيحيين ، الأمر الذى يرجع الى تدهور قوة الكنيسة وحياتها الروحية .

وكان قد أصبح من الشائع المعروف لدى الأسر المسيحية أن تزوج بناتها من المسلمين ، ولم تعترض النساء المسيحيات ، وتربى الأطفال من الذكور الذين نشأوا عن هذا الزواج المختلط تربية اسلامية ، أما البنات فقد سمح لهن أن يتبعن دين أمهاتهن . ولم يكن لمثل هذا السماح تأثير من الوجهة العملية من رجال الكنيسة الذين أمروا أن يحرم الأمهات من دخول الكنائس ومن الاشتراك فى القرابين المقدسة . وكان من أثر ذلك (على

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٧٣ .

الرغم من أن خوريى الكنائس طالما كانوا يغضون النظر عن أوامر رؤسائهم) أن كثيرا من أولئك الأمهات قد دخلن فى دين أزواجهن .

كذلك يتضح هذا الشعور الطيب بين أفراد الديانتين بما أبداه المسلمون فى أعياد القديسين من النصارى ، فمثلا يقول (ماركوبتزى) انه فى يوم عيد القديس ايليا وفد على الكنيسة من المسلمين عدد كبير يماثل عدد الذين وفدوا عليها من النصارى . وتحدثنا الأخبار أن المسلمين الألبانيين حتى الوقت الحاضر يعظمون مريم العذراء ، كما أن المسيحيين يترددون على قبور أولياء المسلمين بقصد الشفاء من الأمراض أو الوفاء بالنذور . وفى مدينة (كاليفاتشى) حيث كان هنالك ستون أسرة مسيحية وعشر أسرات من المسلمين ، ساهم المسلمون فى اعانة كاهن أبرشية ، اذ كان للسواد الأعظم منهم زوجات مسيحيات .

كانت الأقطار المسيحية الخاضعة للحكم العثمانى أحسن حكما وأكثر رخاء من معظم جهات أوروبا المسيحية ، وكانت جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضى ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية ، كما كانوا ينعمون بثمار جهودهم فى ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم فى ظل كثير من الحكام المسيحيين .

وهنالك وثيقة تاريخية كتبها (مقاربوس) بطريق أنطاكية اعترف فيها بتسامح العثمانيين ، جاء فيها : « ... أدام الله بقاء دولة الترك خالدة الى الأبد ، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهودا أو سامرة » .

وأدى هذا التسامح الى دخول أعداد كبيرة من المسيحيين فى الاسلام فيقول (أرنولد) (١) : وكثيرا ما انحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم الى صفوف المسلمين ، ووجدوا منهم ترحيبا كبيرا . ومن أسبق أمثال هذه الحالات ما يرجع تاريخه الى سنة ١١٤٠ م عندما أسلم ابن أخى الامبراطور (جون كومنين) وتزوج احدى بنات مسعود سلطان قونية . وبعد سقوط

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٧٦ .

القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحى من الاستعداد لاعتناق الاسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان ، فنجد من بين الداخلين فى الاسلام عددا كبيرا ينتمون الى بيت (باليولوجوس) الامبراطورى ، كما هجر العالم (جورج أميرو تزيس الطرابيزونى) المسيحية . وأصبح الدين الاسلامى فى ذلك الحين الملجأ الطبيعى لأفراد الكنيسة الشرقية ، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط خلقتها الهرطقة البوليشية

وقد كانت هذه الحركة الى حد كبير احتجاجا على تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية وعلى عبادة الصور والمخلفات الأثرية المقدسة والقديسين ، كما كانت تتوخى بساطة العقيدة وحياة الورع والخشوع .

وحفظ (أرنولد) (١) ماكتبه مؤلف معاصر للعصر العثمانى فقد وصف دخول أعداد كبيرة من المسيحيين فى العقيدة الاسلامية ، وذكر دوافعهم الى ذلك ، فكتب : « عندما تخالطون الأتراك فى مجرى حياتهم العادية ، تراهم يقيمون الصلاة ، ويرتلون مزامير داود ، ويمنحون الصدقات ويدفعون غير ذلك من أعمال الخير ، ويعتقدون فى المسيح اعتقادا ساميا ، ويتناولون التوراة فى شرف عظيم ، الى غير ذلك ، هذا فضلا عن أنه كان يمكن أن يصير أى جاهل ، خورى كنيسة ، اذا سعى الى الباشا التركى بالهدايا ، ولن يحضكم هذا الخورى كثيرا على المسيحية . حينئذ سوف تنتهون الى التفكير فى أنهم قوم صالحون ، وأن من الممكن جدا أن يدركهم الخلاص ، وسوف تنتهون الى الاعتقاد بأن من الممكن أن يدركم الخلاص كذلك اذا ما صرتم مثلهم أتراكا مسلمين. بذلك سوف يمحى من أذهانكم فى سهولة ويسر سر الثالث المقدس ، وابن الله المصلوب ، وسائر أسرار الدين الكثيرة التى يلوح أنها غير معقولة بصورة ما فى نظر الشخص الأمى . واذا بروح المسيحية تموت فى نفوسكم من حيث لا تشعرون ، واذا بكم ترون أنه سواء عليكم أن تدينوا بالمسيحية أو بالاسلام » .

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١٩٢ .

الفصل التاسع

أهل الذمة في مصر الإسلامية

موقف الاقباط من الفتح الاسلامى :

كان العرب يترددون على مصر كثيرا قبل الاســلام ، فقد وفد الى صعيد مصر منذ أقدم العصور كثير من التجار العرب ، وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديان الصــحراء الشرقية ، حتى ان المؤرخ والجغرافى اليونانى سترابون المتوفى نحو سنة ٢٥ م قال عن مدينة قفط فى الصعيد انها مدينة نصف عربية .

فتح عمرو بن العاص العريش بدون مقاومة ، ثم اســتمر زحفه دون اشتباك مع جند الروم حتى وصل الى الفرما (أو بلوزيم) ، وكانت وقتئذ مفتاح مصر ، وبها كثير من الحصون ، فحاصرها عمرو شهرا حتى فتحها سنة ١٩ هـ . ثم زحف العرب الى بلبيس ففتحوها بعد شهر أيضا . ويذكر المؤرخون أن أرمانوسة بنت المقوقس حاكم مصر الرومانى كانت تقيم بها ، فأعادها عمرو الى أبيها بعد أن أكرمها مما أدى الى اعجاب القبط به . وتقدم عمرو الى أم دنين (١) ، حيث دارت معركة عنيفة مع الروم ، ثم حاصر حصن نابليون ، فطلب المقوقس الصلح ، وعقد الطرفان صلحا أهم شروطه :

١ — يدفع كل قبطى فى مصر للمسلمين دينارين مع استثناء الشيوخ والنساء والصبيان .

٢ — للمسلمين حق الضيافة على الروم ، فمن نزل عليه ضيف أو أكثر من المسلمين كان عليه ضيافته ثلاثة أيام .

٣ — تبقى للروم أرضهم وأموالهم .

---

(١) مكان حديقة الازبكية الآن .

وافق الخليفة عمر بن الخطاب على هذه الشروط ، أما الامبراطور فانه رفضها ، بل بعث يوبخ المقوقس ويلومه ، ويأمره بمعاودة قتال العرب . ولكن العرب تمكنوا من اقتحام حصن نابليون ، وبدأ عمرو زحفه نحو الاسكندرية عاصمة مصر حينئذ ، فحاصرها ١٤ شهرا ، وفتحها . وكانت وفاة هرقل خلال الحصار مما أدخل اليأس فى قلوب الروم ، كما أن أهل الاسكندرية كانوا حانقين على الروم لما عانوه من اضطهاد دينى ، كما أن المقوقس أقنعهم أن الحكم العربى أكثر عدلا من حكم الرومان .

عقد المقوقس مع عمرو معاهدة صلح أهم شروطها :

١ — يدفع كل قبطى جزية قدرها دينارين سنويا مع اعفاء الشيوخ والنساء والأطفال .

٢ — عقد الهدنة ١١ شهرا .

٣ — أن يكف العرب والروم عن القتال .

٤ — أن يحترم العرب الكنائس والطقوس المسيحية .

٥ — بقاء اليهود فى الاسكندرية .

٦ — ألا يحاول الروم استرداد مصر .

٧ — أن يحتفظ المسلمون برهائن من الروم ١٥٠ جنديا و ٥٠ ملكيا .

٨ — أن يرحل الجند الروم عن الاسكندرية بأموالهم وممتلكاتهم .

كان هذا الصلح بمثابة اعتراف بأن مصر أصبحت ولاية عربية اسلامية تتبع الدولة العربية الاسلامية ، وأصبحت مصر تتجه نحو المدينة بالحجاز ، بعد أن كانت تتجه نحو القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية .

كان الروم من سكان مصر أكثر الطبقات مقاومة للفتح العربى ، وهذا طبيعى فقد اعتبر الروم مصر ضيعة لهم يستغلونها أسوأ استغلال . أما اليهود فقد وقفوا على الحياد من صراع الروم والعرب ، فقد كان اليهود يمارسون نشاطا اقتصاديا واسع النطاق ، وكانوا يحرصون على مصالحهم الاقتصادية فلم يزجوا بأنفسهم فى صراع لا يعود عليهم الا بالضرر ، وكان

سيان عندهم من ينتصر سواء العرب أو الروم . وكافأ عمرو بن العاص اليهود على حيادهم فنص فى معاهدة الصلح على السماح لهم بالبقاء فى الاسكندرية .

أما الأقباط المصريون فقد رحبوا بالفتح العربى فقد رأوا فيه خلاصا من اضطهاد الروم البيزنطيين لهم . وكانوا يسمعون الكثير عن تسامح العرب وحسن معاملتهم للمسيحيين فى الشام . وذكر المؤرخ ابن عبد الحكم صورا كثيرة لترحيب الأقباط العرب ، فمما ذكره هذا المؤرخ : « وكان بالاسكندرية عند الفتح أسقف للقبط يقال له بنيامين ، فلما بلغه قدومه — أى عمر — الى مصر ، كتب الى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال ان القبط الذين بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا » . وذكر ابن عبد الحكم فى مكان آخر من كتابه : « ان عمرو بن العاص قد خرج بالمسلمين حتى أمكنهم الخروج من حصن بابليون ومعه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الجسور والأسواق ، قاصدين الاسكندرية » (١) .

لكن مساعدة الأقباط للجيش العربى لم تكن العامل الأساسى الذى سهل انتصارهم على الروم ، فان هذا النصر يرجع الى عاملين أساسيين ، أحدهما معنوى ويتعلق بتأثير الاسلام فى نفوس القبائل العربية التى خرجت من الصحراء تنشر دينها الجديد وتوسع رقعة الدولة العربية الاسلامية . والعامل الثانى مادى يتعلق بظروف مصر الداخلية ، فقد كانت تعانى من اضطهاد البيزنطيين ، الى جانب ظروف الدولة البيزنطية ، فلم يكن بين شعوبها ارتباط أو تآلف . وكان العرب يجيدون بعض الفنون الحربية التى لا يجيدها خصومهم مثل فن الرماية ، وكان معظم جند العرب من الفرسان ، بينما معظم جند الروم مشاة ويستعملون العدد الثقيلة التى تعوق حركتهم . وامتاز العرب عن الروم بالصبر على مشاق القتال والاكتفاء بقليل من الزاد ، الى جانب الحماسة الدينية (٢) .

---

(١) فتوح مصر ص ٥٣ — ٥٤ .
(٢) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ١٦ .

تسامح العرب مع أقباط مصر :

لاشك أن موقف الأقباط السلمى جعل الفاتحين العرب يعـاملونهم معاملة طيبة ، فقد خيروهم بين الاسلام أو البقاء على دينهم مقابل دفع جزية . فاذا أسلموا صار لهم حقوق المسلمين وواجباتهم ، أما اذا تمسكوا بدينهم صارت له حرية ممارسة شعائرهم الدينية مقابل دفع دينارين سنويا ، وأعفى من الجزية النساء والأطفال والشيوخ ، وكتب عمرو للأقباط عهدا بحماية كنيستهم ، كتب أمانا للبطريق بنيامين وأعاده الى وظيفته بعـد أن نفاه الروم ١٣ سنة ، واستقبله عمرو عند عودته الى الاسكندرية استقبالا حافلا .

يعترف المؤرخ (توماس أرنولد) (١) بحسن معاملة العرب للمسيحيين فيقول : يرجع النجـاح الذى أحرزه الفاتحون العرب قبل كل شيء الى مالقوه من ترحيب الأهالى المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطى ، لما عرف به من الادارة الظالمة وما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت ، فان اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسى التابعين للبلاط ، الذين ألقوا بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم

ترك العرب الأرض للمصريين ، وتعهدوا بحمايتهم وتأمينهم ، وأعاد العرب الى مصر الأمن والهدوء والاستقرار ، واهتموا بمشـاريع الرى ، وتنظيم القضـاء والضرائب ، وبناء مقاييس النيل مما أدى الى انتشار الرخاء .

تحدث المؤرخ (جوستاف لوبون) (٢) عن سياسة عمرو بن العاص بعد فتح مصر فقال : ودل ما قام به عمرو بن العاص من تنظيم مصر على عظيم حكمته ، وعامل عمرو الفلاحين بما لم يعرفوه من العدل والانصاف منذ زمن طويل ، وأنشأ للمسلمين وحدهم محاكم منظمة دائمة ومحـاكم استئناف ، فاذا كان أحد الخصوم مصريا حق للسلطات القبطية أن تتدخل ،

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ٩٢ .
(٢) حضارة العرب ص ٢١٥ .

واحترم عمرو نظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم . وسار عمرو فى مصر على غرار عمر بن الخطاب فى القدس ، فشمل الديانة النصرانية بحمايته ، وسمح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطرك لهم كما فى الماضى ، ومن تسامحه أن أذن للنصارى فى انشاء الكنائس فى الفسطاط ، المدينة الاسلامية التى أسسها ..

أسطورة حريق مكتبة الاسكندرية :

يتهم بعض المستشرقين الأوربيين الذين يحاولون دائما أن يكيدوا للعرب عمرو بن العاص بأنه أحرق بأمر الخليفة عمر بن الخطاب مكتبة مدينة الاسكندرية التى كان قد أسسها بطليموس الأول والتى كان يستفيد منها كثير من العلماء والطلاب والتى كانت تحتوى على آلاف الكتب النادرة وعللوا ذلك بأن هذه الكتب كانت تحوى من التعاليم المسيحية ما يخالف الاسلام ، واستند هؤلاء المستشرقون فى هذا الاتهام الباطل الى ماقاله الرحالة عبد اللطيف البغدادى (١) الذى زار مصر بين سنتى ٥٩٥ — ٥٩٨ هـ والى ما جاء فى كتاب أبى الفرج الملطى (٢) . فقد ذكر عبد اللطيف البغدادى أنه قد سمع بوجود مكتبة ضخمة فى الاسكندرية قبل الفتح الاسلامى ولكنه لم يجد هذه المكتبة عند زيارته لها ، ثم اتهم عمرو بن العاص باحراقها ..

ونحن نهدم هذا الاتهام الظالم الباطل بأدلة تاريخية ، وأخرى منطقية ، وأدلة قياسية . أما الأدلة التاريخية ، فلم يذكر المؤرخون العرب المشهورون الذين نعتمد على رواياتهم فى دراساتنا للتاريخ الاسلامى شيئا عن هذا الاتهام ، مثل الطبرى وابن الأثير والبلاذرى وابن عبد الحكم وغيرهم . كما لم تذكره كتب مؤرخى الشيعة الذين نعلم كراهيتهم لعمرو بن العاص ولو حدث الحريق على يد عمرو لما سكتت هذه الكتب عن ذكره .. وهذا كله يجعلنا نشك تماما فى صحة الاتهام ..

---

(١) الافادة والاعتبار ص ٢٨ .

(٢) وهو عز يغورس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى وكتابه (مختصر الدول) .

أما الأدلة المنطقية ، فقد ذكر أبو الفرج الملطى أن كتب المكتبة اتخذت وقودا لأربعة آلاف حمام لمدة ستة شهور ، وهذا لا يخضع لأى منطق ولا يقبله عقل ، فليس من المعقول أن يكون فى الاسكندرية مثل هذا العدد من الحمامات ، ولم يكن بالمكتبة من الكتب ما يستمر وقودا لهذه الحمامات ستة شهور . ولو كان عمرو بن العاص أراد فعلا تدمير المكتبة لاستغرق هذا منه ساعات قليلة .

أما الأدلة القياسية ، فنحن نعرف عن العرب اهتمامهم بالعلم والكتب ، وتجلى هذا فى فتوحاتهم فى بلاد الشام ، فقد احترموا جميع الكتب الدينية المسيحية واليهودية ، فضلا عن دور العبادة . فما الذى يجعل العرب يحيدون عن سياستهم فى الشام أو العراق ؟ .

والحقيقة أن مكتبة الاسكندرية كانت قد تضاءلت قبل الفتح نتيجة نقل معظم كتبها الى روما ، الى جانب تكرار حوادث السلب والنهب وعدم اهتمام الولاة البيزنطيين . وقد يكون قد اختلط على الكتاب فظنوا أن الحريق الذى أصاب المكتبة سنة ٤٨ ق.م. عند قدوم يوليوس قيصر الى الاسكندرية لمعاضدة كليوباترة ضد أخيها فظنوا أن الحريق قد حدث زمن عمرو . كما أن المكتبة تعرضت للحريق مرة ثانية قبل الفتح الاسلامى حينما تتبع المسيحيون فى الاسكندرية الوثنيين فلجأوا الى معبد للأوثان مجاور للمكتبة ، فأحرق المسيحيون هذا المعبد وامتدت النيران الى جزء من المكتبة (١) .

انتشار الاسلام فى مصر :

لا شك فى أن نشر الاسلام كان الهدف الرئيسى من الفتوحات العربيه سواء فى العراق أو الشام أو مصر . وحمل الفاتحون العرب عقيدتهم لينشروها حيث استقروا فى الأمصار المفتوحة . وكان العرب يخيرون الأهالى بين الاسلام أو دفع الجزية أو القتال ، واتبعوا دائما سياسة (لا اكراه فى الدين) . وقد وجد الاسلام فى مصر أرضا خصبة ، وكانهناك

---

(١) أنظر كتابنا مصر العربية الاسلامية ص ٢٣ .

صلة رحم ماسة بين العرب والأقباط ، فقد تزوج الرسول عليه الصلاة والسلام من مارية القبطية المصرية ، كما أوصى الرسول بالقبط خيرا .

وكان كثير من المصريين قد ملـوا طـول الصراع المـذهبى بين الأرثوذكس والكاثوليك ، وبين اليعاقبة والملكانيين ، وأرادوا الخلاص من هذا النزاع المستمر ، ورأوا فى اعتناق دين العرب ذلك الخلاص (١) كمـا اعتنق بعض المصريين الاسلام ليصبح لهم ما للعرب وعليهم ما على العرب من واجبات . وكان بعض المصريين يفضلون الاسلام على دفع الجزية ، فيقول المؤرخ (بتلر) (٢) : رأى المصريون أن الاسـلام يجعـل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم ، ويجعلهم اخوانهم فى كل شىء ، يسهم لهم فى الفىء ولا يفـرض عليهـم الجزية . فكان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الاسلام ، و لاسيما قد طحن المقوقس عقيدتهم طحنا وحطم يقينهم باضطهاده . بل اعتنق بعض الروم الذين كانوا يقيمون فى مصر الاسـلام ، فقد أرادوا الاستمرار فى البقاء فى مصر بعد الفتح ، وأرادت هذه الطبقة أن تلائم بين واقعها وبين الواقع العربى الاسـلامى ، وكان بعض روم الشـام قد اعتنقوا الاسلام وصحبوا عمرو بن العاص الى مصر لفتحها) .

شمل انتشار الاسلام كل طبقات المجتمع القبطى ، ومنهم فريق من الرهبان ، مثل يوحنا أحد رهبان دير سينا ، ومن المكفرين العقـلاء ومن الأشراف ، ومن العامة . وكان انتشار الاسلام يتناسب مع انتشار القبائل المهاجرة ، فكثرة الوافدين من العرب كانت تتيح ألوانا من الصلات ، صلات التقارب أو صلاة التراحم ، وليس للاسلام من دعاة الا أهله ، وكثيرا ما كانت تؤدى هذه الصلات الى الاسلام .

وكان انتشار الاسلام فى المدن قبل أن يكون فى القرى ، وذلك يرجع الى انتشار المسلمين فى المدن المختلفة من ناحية ، والى ما يكون من قدرة أهل المدن على الاسـتجابة للدعوات من ناحية أخرى ، على حين يظل

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣٨٥ .
(٢) فتح العرب لمصر ص ٢٤٣ .

المجتمع الريفى منعزلا بعض العزلة عن هذه التيارات التى تأخذ سبيلها اليه فى بطء وحذر (١) ويبدو أن الاسلام لم ينتشر فى ريف مصر الا فى مطلع القرن الثانى حين هاجر الى مصر ، فى ولاية عبيد الله بن الحبحاب ، هذه الأسر القيسية التى سكنت وادى الحوف الشرقى ، فجاورت الريف المصرى من هذا الجانب ، وخالطته وحملت اليه الاسلام (٢) .

اقبال أهل الذمة على تعلم اللغة العربية :

بعد مرحلة الاستقرار ، بدأت مرحلة التعريب اللغوى . قبل الفتح العربى ، كانت اللغة الرسمية فى مصر اللغة اليونانية ، فكانت لغة السياسة والادارة ولغة الثقافة والعلم ، وأصبحت لغة العبادة فى الكنائس المصرية أما اللغة القبطية فقد كانت اللغة اليومية لعامة الشعب المصرى من الأقباط .

لما أصبحت اللغة العربية هى لغة الطبقة الحاكمة بعد الفتح العربى ، كان من المنطقى أن يقبل المصريون على تعلمها . كما ساعد انتشار الاسلام على انتشار اللغة العربية ، حتى يتيسر لمعتنقيه الصلاة وقراءة القرآن الكريم . ولكن رغم ذلك وجدت اللغة العربية عدة صعوبات ، فليس بين اللغة العربية وكل من اللغة اليونانية واللغة القبطية صلة قرابة لغوية .. ولذا ظل نطاق انتشار اللغة العربية محدودا حتى عرب الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان دواوين مصر ، فتضاءلت اللغة القبطية وعظم انتشار اللغة العربية ، وأصبحت بمرور الوقت لغة المصريين فى الدين والثقافة والادارة ، فى العمل والبيت ، وخلفت اللغة القبطية فى جزر صغيرة منعزلة .

أما التعريب الجنسى فقد كان محدودا فى أول الأمر ، فلم يكن بين المصريين والعرب كثير من صلات التزاوج فى القرن الأول الهجرى ، كما كانت سياسة عمر بن الخطاب (لا فىء ولا عبيد) عاملا هاما على قلة السبى والتزاوج . ثم وضح الاندماج والتزاوج والامتزاج فى القرنين الثانى والثالث **بعد الهجرة .**

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٥٩ .
(٢) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٦١ .

أهل الذمة المصريون فى ظل الحكومة الاسلامية :

وضع عمرو سياسة أساسها كسب محبة الشعب المصرى ، والتأليف بين العرب الفاتحين والقبط المصريين ، فقد بعث يستدعى بطريق الاسكندرية من الشام ، وكان قد هرب اليها من اضطهاد الرومان حيث مكث ثلاث عشرة سنة . كما منح عمرو المصريين حرية ممارسة شعائرهم الدينية . وعاش المصريون طوال العصر العربى الاسلامى فى أمان ..

ترك الرومان البيزنطيون مصر وقد انتشرت بها الفوضى ، وعمت الادارة والمرافق العامة ، فكان على عمرو بن العاص أن يعيد تنظيم الادارة والحكومة فى مصر مما يحقق الهدوء والاستقرار والمساواة للجميع على اختلاف أديانهم وأجناسهم ، كما قام بكثير من المشروعات الاصلاحية ليعم الرخاء ، ونظم الضرائب والخراج ، وأمر الجند العرب بالانتشار فى الريف المصرى والاختلاط بالمصريين . وفى سنة ٢٣ هـ أعاد عمرو حفر قناة نخاو التى كانت تصل بين النيل والبحر وسماها (خليج أمير المؤمنين) ، وأنشأ عمرو مقاييس النيل ، فقد كان يدرك أن الزراعة مورد مصر الأول .. وحرص عمرو على أن ينفق معظم ايرادات مصر فى الاصلاحات .

كان المجتمع المصرى زمن الفتح العربى يتألف من عدة عناصر مختلفة ، من قبط وروم وعرب وأكراد وأحباش ، وقد أصبح الرومان فى مصر بعد الفتح الاسلامى أقلية ضئيلة ، ولكنهم فضلوا الاقامة فيها فى ظل التسامح الاسلامى على الرحيل الى وطنهم .

حرص العرب الفاتحون منذ اللحظة الأولى على صبغ المجتمع بالصبغة العربية الاسلامية ، تحقيقا لوحدة التجانس بين الولايات فى الدولة العربية فبدأ انتشار الاسلام والعروبة فى المجتمع المصرى ، فى تسامح وسلام . ولم يكن للعرب مبشرون أو دعاة تخصصوا فى نشر الاسلام ، كما كان الحال بالنسبة للمسيحيين ، ولكن المصريين اعتنقوا الاسلام مختارين عن اقتناع حقيقى .

كان الأقباط يمثلون غالبية سكان مصر ، وكان الولاة المسلمون يعاملونهم معاملة طيبة ، لمساعدتهم الفاتحين العرب أو وقوفهم على الحياد ،

فأطلقوا لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية . وخير مثال لهؤلاء الولاة ، مسلمة بن مخلد الأنصارى (٤٧ — ٦٢ هـ) وعبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) .

فيعتبر عصر عبد العزيز بن مروان من أزهى فترات العصر العربى فى مصر ، فقد عامل الأقباط المصريين بكل تسامح ، واتخذ لاقامته دير القبط فى مدينة طنوية على نهر النيل ومنح الرهبان عشرين ألف دينار ، ولم يتخذ حلوان مقرا له الا بعد اصابته بمرض الجذام ، فأصبحت حلوان عاصمة مصر واهتم بتعميرها فأقام بها البساتين والمبانى واهتم بالزراعة ومقاييس النيل (١) .

تولى الأقباط المناصب الكبرى ومعظم الوظائف الادارية ، ففى عصر عبد العزيز بن مروان كان هناك كاتبان أحدهما لادارة مصر العليا أى الوجه القبلى ، والآخر لادارة مصر السفلى أى الوجه البحرى . وكان معظم موظفى الادارة المالية من الأقباط ، كما تولى الأقباط مناصب ولاة الأقاليم. وكان الأقباط رغم بقائهم على دينهم حريصين على تعلم اللغة العربية ، حتى يتفاهموا مع العرب الحاكمين ، وحتى يحتفظوا بوظائفهم فى الحكومة ، وخاصة بعد تعريب الدواوين فى عصر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الذى حول ديوان مصر من اللغة القبطية الى اللغة العربية . ولم يتعرض الأقباط لأى اضطهاد أو ضغط (٢) .

استقر العرب بعد الفتح فى الفسطاط والاسكندرية والجيزة ، وانصرفوا الى السياسة والحرب والحكم ، ولم يقبلوا على الزراعة وسائر المهن والحرف ، وكان التزاوج بين العرب والمصريين فى أول العصر العربى محدودا ، ولكن توالت هجرات عربية على مصر ، وقدمت موجة عربية كبيرة فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) ، وتخلى العرب فى عهده عن سياسة عدم الامتزاج بالمصريين ، وأقبلوا على احتراف الزراعة ، وبدأ التزاوج يأخذ صورة واضحة ، واستمر توافد

(١) السيوطى : حسن المحاضرة حـ ٢ ص ١٣٦ .
(٢) أنظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ٥٤ .

القبائل العربية ، وزاد اندماج العرب فى المجتمع العربى فى عصر الخليفة العباسى المعتصم سنة ٢١٨ هـ . فقد أمر المعتصم باسقاط من فى الديوان من العرب وقطـع أعطياتهم ، ونتـج عن هذا تقارب شديد بين العـرب والمصريين ، وأصبح العرب فى مصر لا يتميزون عن أهل البلاد ، وبعد أن كان العربى يحرص على ابراز صبغته العربية وانتسابه الى قبيلته ، فكان يحرص على تدوين أسماء القبائل على شواهد القبور ، أصبح العرب فى القرن الثالث الهجرى يضعون اسم البلدة أو الاقليم الذى ينتسب اليه بدلا من القبيلة . ولذا نعتبر قرار المعتصم أنه أدى الى امتزاج العرب المصريين وظهور عنصر جديد نتيجـة امتزاج العنصرين السـابقين ، كما أدى الى انتشار العروبة والاسلام على نطاق واسع .

وبدأ الأقباط المصريون أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) يتخلون عن اللغة القبطية ، ويقبلون على التحدث باللغة العربية ، وأصبح رجال الدين الأقباط فى مصر يكتبون فى القرن الرابع الهجـرى باللغة العربية ويتخاطبون بها مع أبناء الطائفة القبطية .

انتصر المسلمون للأقباط الأرثوذكس على أعدائهم فى المذهب الدينى وهم الملكانيون ، فاسترد الأرثوذكس المصريون عددا من الكنائس والأديرة التى كانت فى يد الملكانيين ، بل حولوا عددا كبيرا فى عهد الوالى مرة بن شريك الى المذهب اليعقـوبى . وسمح المسـلمون للأقباط ببناء كنائس جديدة ، والاحتفال بأعيادهم (١) وكان عيد وفاء النيل عيدا عاما يشترك فيه الولاة والمسلمون والأقباط على السواء .

قام الواليان العباسيان الليثى بن سعد وعبد الله بن لهيفة ببناء الكنائس وقالا : هو من عمارة البـلاد . ويذكر المؤرخ (آدم متز) (٢) أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين . ويقول المؤرخ (ترتون) (٣) : ساهم الأقباط فى حياة المسلمين الاجتماعية

---

(١) القريزى : الخطط حـ ١ ص ٢٦٤ .
(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ حـ ١ ص ٧٣ .
(٣) أهل الذمة فى الاسلام ص ١٥٩ .

وأخذوا منها بنصيب ، فجرت عادة المسلمين فى اسنا من صعيد مصر فى أفراحهم وأعراسهم على دعوة النصارى الذين يغنون بالقبطية الصعيدية ، ويمشون أمام العروس فى أسواق اسنا وشوارعها ، ويقول أبو صالح الأرمنى تعقيبا على ذلك أن هذا صار عندهم عرفا وعادة مستقرة . وكثيرا ما زار المسلمون الأديرة المصرية المنتشرة فى المدن والقرى ، وقدموا لها النذور .

احتفل الأقباط والعرب بكثير من الأعياد والمواسم ، وكان للأقباط عند الفتح أربعة عشر عيدا فى السنة القبطية بمصر ، وهو أول يوم من توت وفيه تشعل النيران وترش المياه (١) . وسمح الولاة العرب للاقباط بجميع أعيادهم ، وكان المسلمون يشتركون دائما مع الأقباط فى الابتهاج بهذه الأعياد . وكانت جميع طبقات المجتمع تحتفل بليلة الغطاس ، فيجتمع فيها على شاطىء النيل آلاف المسيحيين والمسلمين مرتدين أفخر الثياب ، ويقبلون على أشهر الأطعمة ، ويغطس معظمهم فى نهر النيل ، معتقدين أن فى ذلك شفاء لهم من أمراضهم .

اهتم الولاة العرب بشئون الزراعة ، الحرفة الأولى للأهالى المصريين ، فاهتموا بحفر الترع وانشاء الجسور على النيل ، وبناء القناطر ، واهتموا أيضا بانشاء مقاييس النيل لمعرفة منسوب الفيضان لتنظيم الرى وضبط الضرائب . كما اهتم العرب بالصناعة ، وكان معظم الصناع من المصريين ، فقد انصرف العرب الى السياسة والجيش والادارة . وأدى تقدم الزراعة والصناعة الى نشاط التجارة ، واهتم الولاة العرب باصلاح طرق التجارة والقوافل وانشاء الآبار بها وتأمينها من اللصوص وقاموا بانشاء الموانى . واهتم العرب أيضا بتنظيم الضرائب والادارة المالية وكانت الايرادات نوعين : ضرائب الأرض ، والجزية . أما الجزية فقد فرضت على أهل الذمة من النصارى واليهود ، وأعفى النساء والأطفال والشيوخ ، فكان الذمى يدفع دينارين فى السنة ، أو ثمانية قروش ونصف فى الشهر ، وتتعهد

(١) المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٦٥ .

الحكومة العربية بحماية أرواح أهل الذمة وممتلكاتهم وتعفيهم من الخدمة العسكرية .

لم يزد الخراج فى السنة الأولى من ولاية عمرو بن العاص عن عشرة ملايين دينار ، وفى السنة الثانية عن اثنى عشر مليون دينار ، بينما كان فى عهد المقوقس عشرين مليونا . ونستطيع أن نستخلص من ذلك أن عمرو بن العاص راعى حالة الفيضان فى تقدير الضرائب ، كما أنفق كثيرا من الايرادات فى سائر المشروعات الاصلاحية ، كما ألغى عمرو كثيرا من الضرائب التى كان الرومان يفرضونها للتخفيف عن المصريين . وقد قل الخراج فى مصر فى العصرين الأموى والعباسى نتيجة دخول عددكبير من أهل الذمة فى الاسلام واعفائهم من دفع الجزية . واحتفظ الولاة الأمويون والعباسيون بالنظام الادارى الذى وضعه عمر بن الخطاب .

أهل الذمة فى العصرين الطولونى والأخشيدى :

شهدت مصر فى عصر أحمد بن طولون فترة رخاء وازدهار ، وضرب ابن طولون مثلا أعلى للحكم الصالح المستنير ، فقد اهتم بشتى النواحى العمرانية ، فقد عمل على أن يحقق لمصر استقلالا ذاتيا عن الدولة العباسية .

صحب ظهور ابن طولون فى مصر تطور هام فى تاريخ الشعب المصرى فقد بدأت الصبغة العربية الاسلامية تشكل المجتمع المصرى وتطبعه بطابعها فى العادات والتقاليد والحياة الاجتماعية . وبدأت اللغة العربية تصبح لغة الحديث والعلم للغالبية العظمى من المصريين ، وبدأ المسيحيون ينسون لغتهم الأصلية بالتدريج ويتعلمون اللغة العربية . وعمل ابن طولون جاهدا على كسب ود المصريين ، مسلمين أو ذميين وظهر فى ثوب المدافع عن حقوقهم ، فألغى الضرائب الظالمة ، كما أقر الأمن ، فاطمأن المصريون ، وانخفضت الأسعار . واستخدم المصريون فى الجيش والوظائف ، وتزوج من مصرية ، وبلغ من تعلق المصريين به أن أسفوا عليه كثيرا يوم وفاته ، وبقيت ذكرى ابن طولون ماثلة فى أذهان المصريين جيلا بعد جيل (١) .

(١) حسن محمود : مصر فى الطولونيين ص ٣٣ .

يؤكد ساويرس مؤرخ البطاركة أن الحكومة الاسلامية فى مصر لم تتدخل فى الشعائر الدينية عند أهل الذمة ، بل كان الأمراء يحضرون مواكبهم وأعيادهم ، وكان أبناء مصر من المسلمين يشاركونهم أعيادهم كما يبين ساويرس أن الأقباط شغلوا كثيرا من الوظائف فى العصر الاسلامى ، وخاصة الوظائف المالية . ويذكر ساويرس كثيرا من الأمثلة ويورد أسماء كثيرة لكبار الموظفين الأقباط . كذلك لم يعرف عن حكام مصر أنهم عارضوا فى تعيين أحد البطاركة بعد أن يتم انتخابه بواسطة الأساقفة . ويؤكد ساويرس أيضا ان الدين لم يفرق بين المصريين فى الشعور بأنهم أبناء وطن واحد (١) .

ضرب أحمد بن طولون أمثلة كثيرة لتسامحه وحسن معاملته لأهل الذمة ، فقد عهد بناءجامعه المعروف باسمه الى مهندس مسيحى هو سعيد بن كاتب الفرغانى (٢) . وأراد ابن طولون أن يقوم المسجد بدون عمد حتى لا يحتاج الى الاستعانة بهذه العمد من الكنائس فلا يغضب الأقباط ، فوضع المهندس نموذجا المجامع بحيث لا يحتاج فى بنائه سوى لعمودى القبلة . ثم عهد ابن طولون الى نفس المهندس ببناء القناطر من جهة حى البساتين الحالى الى القرافة الكبرى . وأقام ابن طولون (المارستان) وهى مستشفى عامة مجانية سنة ٢٥٩ هـ ، وسمح للجميع بالعلاج فيها على اختلاف أديانهم وأجناسهم مجانا ، فكانت أول مستشفى فى مصر ، وأوقف عليها كثيرا من الأوقاف ، وكان ابن طولون يتردد على المستشفى كل يوم جمعة للتفتيش على الأطباء ، والترفيه عن المرضى (٣) . واهتم ابن طولون بدير القصير وكان صديقا شخصيا لأحد رهبانه ، كما قدم ابن طولون المعاونات الى المسيحيين فى دمشق عندما نشب حريق قرب كنيسة العذراء .

شعر المصريون ، مسلمون وذميون ، بالاطمئنان والاستقرار فى العصر الطولونى ، واختفت ثورات المصريين تماما . وأسقط الطولونيون العرب

---

(١) سيدة كاشف : أحمد بن طولون ص ٢١٤ .
(٢) سيرة ابن طولون ص ١٨١ .
(٣) خطط المقريزى حـ ٢ ص ٤٠٥ .

من ديوان العطاء فى مصر ، ففقدوا امتيازاتهم الاقتصادية والسياسية ، وأخذوا يهاجرون الى الريف واستقروا فيه وامتزجوا بالمصريين .. وتمتع الأقباط واليهود بالحرية الدينية فى العصر الطولونى ، فكان الطولونيون يستمعون لشكاياتهم وينصفونهم ، وأبدى الأقباط وخاصة الرهبان حزنهم الشديد لوفاة ابن طولون .

كما أبدى خمارويه بن أحمد بن طولون تسامحا كبيرا ، وكان الطولونيون يشاركون الأقباط المصريين فى أعيادهم ، وكانت الأديرة مقصد المصريين على اختلاف أديانهم للتمتع بحدائقها . وكانت حفلة وفاء النيل عيدا قوميا يشترك فيه جميع المصريين والحكام ، وكانت تنصب الموائد وتقام الولائم فى القصر الطولونى .

فى العصر الاخشيدى ، كان المجتمع متماسكا متعاونا ، وعاش المسلمون والأقباط جنبا الى جنب فى هدوء . وتمتع الذميون بالحرية الدينية ، واحتفلوا بأعيادهم احتفالات رائعة ، وكان محمد بن طفج الأخشيد ، مؤسس الدولة الأخشيدية ، يشترك بنفسه فى هذه الاحتفالات (١) . وكان الأخشيد يقوم باصلاح الكنائس . وكان لأهل الذمة محاكمهم الكنيسية الخاصة بهم ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يحتكموا الى القضاة المسلمين اذا أرادوا .

وكان فى مصر فى العصر الاخشيدى آلاف من الأقباط واليهود ، يمارسون سائر الأعمال ، فكان منهم أصحاب الضياع والأطباء والصيارفة والتجار . ولا نسمع فى العصر الاخشيدى شيئا عن التزام أهل الذمة القوانين الخاصة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى اللباس والركوب . وكثيرا ما تدخل الحكام الاخشيديون بين الطوائف المسيحية لفض النزاع والتوفيق بينها ، ولم يكن فى المدن أو القرى أحياء خاصة بأهل الذمة ، بل كانوا يعيشون جنبا الى جنب (٢) .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب حـ ١ ص ١٣ .
(٢) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٢١٤ .

لم يلتزم الحكام المسلمون بأن يدفع الذميون دينارين كجزية سنوية ، بل كثيرا ما نقصت الجزية عن هذا القدر ، فيقول المؤرخ (آدم متز) (١) ظلت الجزية بوجه عام عند المقدار الذى فرضته الشريعة ، وكانت تتغير تغيرا يسيرا بحسب تغير العملة ، وكانت الحكومة فى مصر فى أول القرن الثالث الهجرى تكتفى بأخذ نصف دينار . ويذكر المؤرخ (ترنون) (٢) أن المسلمين أخذوا بعض الأعياد المسيحية بعين الاعتبار ، وقدروا فصول السنة بها ، فكان احتفال المصريين ببدء زيادة النيل وقت عيد الصليب ، واحتفلوا بالنيروز وقت عيد الفصح ، وغير ذلك .

وصف المسعودى (٣) احتفال الأخشيديين بعيد الغطاس ، فقال أن المصريين احتفلوا به احتفالا رائعا ، فجلس محمد بن طفج الاخشيد بقصره فى جزيرة فى النيل وقد أسرج حوله ألف قنديل ، واوقد المصريون المشاعل والقناديل والشموع ، وزخرت القوارب بآلاف من النصارى والمسلمين ، ولم يبق من كثرة الناس موضع لقدم على أسطح الدور وشواطىء النهر ، ولبس الجميع أحسن ثيابهم .

أهل الذمة فى العصر الفاطمى والأيوبى والمماليكى :

كان العصر الفاطمى من أزهى العصور التى شهدها أهل الذمة فى مصر ، فقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، وأجمع المؤرخون على أن أبناء هاتين الطائفتين عوملوا فى عهد الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحاباة ، وتقلدوا أرقى المناصب وأعلاها ، وشغلوا معظم المناصب المالية فى الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضا ، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الدينى ، وهو أمر نستطيع تحقيقه من احصاء عدد الكنائس التى بنيت فى مصر فى العصر الفاطمى (٤) .

قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب حيث حكم خلفاء ثلاثة ، ثم نجح الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله فى نقل الدولة الفاطمية الى مصر .

(١) الحضارة الاسلامية حـ ١ ص ٧٩ .
(٢) أهل الذمة فى الاسلام ص ١١٤ .
(٣) مروج الذهب حـ ٣ ص ٤٠٦ .
(٤) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢٤ .

وقد بدأ المعز فى مصر عصر جديد تميز بالتسامح التام مع أهل الذمة .فقد قدم المعز الى مصر بمذهب شيعى خالف به جمهور المسلمين ، وشعر المعز أنه فى حاجة الى من يعاونه فى تدعيم دولته ، ولما أيقن أنه من المتعذر الاعتماد على السنيين فى مصر أنصار الدولة العباسية ، قرب اليه أهل الذمة ، وأظهر لهم — وهو وخلفاؤه — كثيرا من التسامح ، واستخدموهم جميعا فى مناصب الدولة والادارة (١) .

اعتمد الخليفة المعز لدين الله على كثير من الموظفين من أهل الذمة ، واتخذ أطباءه منهم . وبرز من بين أهل الذمة فى عهده يعقوب بن كلس ، وقد اعتنق الاسلام فيما بعد ، وتولى بعض دواوين الحكومة ، وما لبث أن أصبح وزيرا فى عهد الخليفة العزيز بالله . والى يعقوب يرجع الفضل فى وضع نظم الدولة السياسية والادارية .

وسار الخليفة العزيز بالله على سيرة أبيه المعز نحو أهل الذمة ، بل زاد عليها من تسامحه الكثير . فقد تزوج العزيز من زوجة مسيحية ، وأعاد بناء الكنائس ، واحتفل بالأعياد والمواسم الدينية المسيحية ، وسمح للبطريق القبطى (أفراهام) باعادة كنيسة أبى سيفين بظاهر الفسطاط ، وعهد الى عيسى بن نسطورس المسيحى بالكتابة . وولى العزيز أخوى زوجته المسيحية أبرز المناصب الدينية ، فولى أحدهما بطريركا للملكانيين بيت المقدس سنة ٣٧٥ هـ ، وولى الآخر مطرانا للقاهرة . وامتد عطف وتسامح العزيز بالله الى اليهود ، فولى منشا بن ابراهيم الفرار واليا على بلاد الشام .

أشاد المؤرخ (ستانلى لينبول) (٢) بسياسة تسامح الخلفاء الفاطميين عامة ، وتسامح الخليفة العزيز بالله خاصة ، فقال : « بوصول الخلفاء الفاطميين الى مصر ، بدأت فترة من التسامح الدينى واللين لا عهد لأهل الذمة بها ، فقد كان الخلفاء الفاطميون ، باستثناء الحاكم بأمر الله : يرعون على الدوام رعاياهم المسيحيين . وكثيرا ما بنيت أو أصلحت الكنائس فى عهدهم . وقد كان للخليفة العزيز زوجة مسيحية ، وكان اثنان

(١) جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٦ .
(٢) لينبول : سيرة القاهرة ص ١١٨ .

من اخواتها بطاركة ملكانيين ، كما أن كلا من البطريرك اليعقوبى افريم وشعيروس أسقف أشمونين ، كانا من خير أصـدقاء العزيز ، فقد كان العزيز يدعو الأسقف الى قصره ليتحدث مع رئيس القضـاة فى المسائل الدينية ، كما سمح العزيز للبطريرك باصلاح كنيسة القديس مركاريوس » .

وعلق المؤرخ الألمانى (آدم متز) (١) على تسـامح العزيز مع أهل الذمة فقال : وقد أظهر الخلفاء الفاطميون الأولون لأهـل الذمة تسامحا نعجب له ، اذ لا ينتظر ذلك من قوم مثلهم لهم مذهب خاص انفردوا به ، وخالفوا به جمهور المسلمين (يقصد مذهب الشيعة) .

وأبدى المؤرخ (أوليرى) رأيه فى استخدام أهل الذمة فى المناصب الادارية فى الدولة الفـاطمية فقال : ان اسـتخدام المسيحيين واليهود فى المناصب الادرية والمدنية هو عرف شـائع فى البلاد الاسلامية ، وان بالغ الفاطميون فى استعمال أكثرت مما جرت به العادة من قبل .

عمل العزيز بالله على تحقيق رفاهية الشعب المصرى ، نرى ذلك واضحا فيما قام به من اصـلاحات كثيرة ، وكان يدعو المصريين على اختـلاف أديانهم الى الولائم الحافلة التى أقامها فى قصوره فى مختلف المناسبات . واهتم العزيز بالأعياد المصرية ، الدينية والقومية ، وخاصة الاحتفال بجبر الخليج أي وفاء النيل، فكانهذا الاحتفال من أروع الاحتفالات الفاطمية . وحرص العزيز بالله على تنفيذ ما تعهد به جوهر الصقلى للمصريين عند فتحه مصر من حمايتهم واطلاق الحرية الدينية لهم . وأمر الخليفة الجند المغاربة بأن يسكنوا أطراف القاهرة ونهاهم عن مضايقة المصريين .

أما سياسة الحـاكم بأمر الله نحـو أهل الذمة فيتضـح فيه ما ذكره المؤرخون عنه من شذوذ أو جنون أو ازدواج الشخصية . فقد مر أهل الذمة فى عهده بفترتين متميزتين ، تمتعـوا فى فترة منهما بالتسـامح والتساهل ، بينما نزل بهم فى فترة أخرى ألوان من الاضطهاد . ولكن اذا

---

(١) الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ حـ ١ ص ٦٤ .

عرفنا أن الحاكم فى الفترة الثانية قد لحق اضطهاده بسائر طبقات الشعب على اختلاف أديانهم ، أدركنا أن الحاكم لم يكن يقصد أهل الذمة بالاضطهاد .

كانت الفترة بين سنة ٣٩٠ هـ فترة برزت فيها قسوة الحاكم واضطهاداته لكثير من العناصر ، فقد تعصب للمذهب الفاطمى الشيعى ، واضطهد أهل الذمة ، كما اضطهد المسلمين من غير الشيعة . فقد أغضب الحاكم استئثار الذميين بالمناصب الكبرى واحرازهم الثروات ، فأمر بأن يضع المسيحيون واليهود شارات تميزهم عن غيرهم ، وأقدم على هدم بعض الكنائس . والغريب فى الأمر ، أن الحاكم خلال اضطهاده هذا لأهل الذمة ، ولى الوزارة منصور بن عبدون النصرانى ، ويعتبر هذا الوزير المسيحى مسئولا عن بعض تصرفات الحاكم ، فقد أشار عليه بهدم كنيسة القيامة مما أدى الى اعلان البابوية دعوة صليبية للاستيلاء على القدس . وتخلص الذميون من اضطهاد الحاكم لهم ، بوسيلتين ، فقد اعتنق البعض الاسلام ، وهاجر البعض الآخر الى الدولتين البيزنطية والحبشية . وسمح الحاكم للمهاجرين باصطحاب أموالهم ومتاعهم .

وفى سنة ٤١١ هـ ، بدأت فترة تسامح ، فقد أصدر عدة قوانين تمنح الذميين الحرية الدينية ، ورد الى الكنائس أوقافها المسلوبة ، وسمح للمسيحيين بتجديد الكنائس ومنحهم أمانا (١) .

والحقيقة أن الرأى العام كان ساخطا على الذميين لا باعتبارهم مخالفين فى الدين للمسلمين الذين يمثلون غالبية المصريين ، ولكن باعتبارهم موظفين فى الحكومة منوطين بجمع الضرائب . فقد كان الحاكم فى حاجة الى الأموال فكان موظفوه يقسون فى جمع الضرائب من الأهالى مما أثار غضبهم وسخطهم . كما تعرض لاضطهاد الحاكم أقرب رجاله اليه من وزراء وكتاب ، وباتوا لا يأمنون على أنفسهم فالتمسوا من الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ أمانا .

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

تمتع أهل الذمة فى العصر الأيوبى بما كانوا يتمتعون به من تسامح فى العصر الفاطمى ، ولكنهم كانوا أسوأ حالا فى بعض فترات العصر المملوكى، ولكن اقتصر مظاهر المضايقات مع ارغام بعض سلاطين المماليك أهل الذمة على ارتداء أزياء معينة تميزهم عن المسلمين . ولكن كثيرا من السلاطين المماليك أبدوا تسامحا ومعاملة طيبة لأهل الذمة . وقد عاش المماليك فى مصر كطائفة منفصلة واحتفظوا بشخصيتهم ، ولم يختلطوا بأهالى مصر ، سواء من المسلمين أو الأقباط ، وكان هذا ترفعا منهم على أهالى البلاد . ولا شك فى أن هذه العزلة التى عاش فيها المماليك أوجدت فجوة واسعة بين الحكام والمحكومين فى مصر فى العصر المملوكى .

الفصل العاشر
أهل الذمة فى بلاد الأندلس وجزيرة صقلية

التسامح الاسلامى فى الاندلس :

فتح المسلمون شبه جزيرة أيبريا فى أوائل سنة ٩٦ هـ ، وكان الفتح الاسلامى لاسبانيا عملا خارقا ، فان البيئة الجغرافية والأحوال الطبيعية تجعل من أيبريا قطرا وعرا لا يسهل فتحه عسكريا . وأصبح الحكم العربى الاسلامى لاسبانيا رحمة ونورا ، فقد قضى على الحكم القوطى الغاشم ، وكان المسلمون كرماء مع أمراء القوط ، فقد أعادوا (جوليان) الى حكم (سبته) كما كان ، وردوا الى بعض الأمراء أموالهم وضياعهم (١) .

وبعد أن كان اليهود موضع اضطهاد من القوط ، أصبحوا يتمتعون بالتسامح التام فى ظل الحكم العربى الاسلامى ، فقد أصبحوا يأمنون على أرواحهم وأموالهم ، وسمحوا لهم بالحرية الدينية والملكية ومزاولة التجارة، وأقبل كثير من اليهود على الاشتغال بالعلوم والآداب والطب والفلسفة وظهر من بينهم كثير من العلماء والمفكرين (٢) .

وتمتع الرقيق فى اسبانيا بمعاملة طيبة رحيمة بعد أن كانوا يعانون فى ظل الحكم القوطى من الاضطهاد والعسف ، فمنحهم العرب المسلمون الحقوق المدنية وحق ملكية الأرض وزراعتها . وقضى المسلمون على العنصرية والاضطهاد العنصرى ، وساووا بين الطبقات المختلفة وحفظوا التوازن بين الأجناس المتعددة . ولذا ارتاحوا جميعا الى الحكم العربى الاسلامى الذى تميز بالتسامح والمساواة والانصاف ، وأقبل كثير منهم على اعتناق الاسلام وتعلم اللغة العربية .

---

(١) أنظر كتابنا المغرب فى أوروبا ص ١٩ .
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ح ٣ ص ٣٢٠ .

لم يكن امتداد الاسلام والعروبة حركة فتوح أو غزوات ، ولم يكن لانشاء امبراطورية عربية يسودها العرب المسلمون ، وانما كان فى الواقع حركة نهضة تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضا ، فقد انتشر الاسلام وامتدت العروبة من الجزيرة العربية الى الشام والعراق ثم الى مصر وشمال افريقية ، وجاء دور شبه جزيرة أيبريا .

دخل العرب المسلمون شبه جزيرة أيبريا ، ولكنهم لم يدخلوها كما دخلها القوط سادة حكاما يباعدون بين أنفسهم وبين عامة الناس حفاظا على سلامة عنصرهم أو صيانة لهيبة سلطانهم ، بل دخلوها أثناء حركة الامتداد الدينى الفكرى البشرى التى بعثها الاسلام فى عالم القرن السابع الميلادى .

وكان العربى المسلم الذى حمل أعباء الفتوحات الأولى ، وهاجر الى البلاد المفتوحة شخصا ممتازا خبيرا بالتقاليد واقتباس ما يناسبه ويفيده . وكان ألوفا بسيطا لا يستقر الى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطى ، ويصاهرهم ، وتمتزج دماؤهم بدمائه ، ويشركهم فى أصله وحسبه .

ورغم الأصل البدوى ، فقد كان العربى المسلم يتذوق الجمال ، ولذا لم يخرب العرب الفاتحون مدائن الأندلس أو ما وجد فيها من منشئات ، وظلت المدن الأسبانية عامرة تنبض بالحياة والحضارة (١) .

قارن (كرد على) (٢) بين اسبانيا فى العهد القوطى والعصر الاسلامى فقال : شعر الاسبان بالفرق بين حكم العرب المسلمين وحكم القوط ، ورأوا من تسامح العرب وتفانيهم فى نشر العدل بين الناس ما يثلج له الفؤاد ، وأبقت العرب السكان الأصليين على قضائهم وادارتهم ، وقلدوهم الوظائف ، فأحب الاسبان العرب المسلمين محبة خالصة ، ورأوا البون الشاسع بين الحضارة التى يحملها المسلمون ، وما كان للقوط من الثقافة المتأخرة ، وكانت أقرب الى الهمجية . ولم يمض قرن حتى أخصبت القرى ،

---

(١) حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٤١٩ .
(٢) الاسلام والحضارة العربية حـ ١ ص ٢٥٦ .

وكثرت المزارع ، واتصل العمران ، وتزاحم الناس على سكن المدن ، وأمست قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية كعواصم أوروبا اليوم ، وأصبحت عاصمة علم وصناعة وفن وتجارة .

أهل الذمة فى المجتمع الاسلامى بالأندلس :

تغلب العرب الفاتحون على الاسبانيين ولم يتغلبوا بالسيف وحده ، بل كذلك تغلبوا أيضا بروحهم ولغتهم ودينهم ، حتى دخل كثير من الاسبانيين فى الاسلام ، وتقمصوا النفسية العربية ، ونسوا لغتهم اللاتينية، وأديانهم القديمة ، وتعددت شكوى رجال الدين من أن الاسبان ينسون دينهم ولغتهم ، ويقبلون على الاسلام واللغة العربية . ولعل من أسباب ذلك أن اللغة العربية كانت فضلا عن أنها لغة الفاتحين تزخر بالعلوم والمعارف التى افتقرت اليها لغتهم (١) .

أقبل العرب الفاتحون على الزواج من الاسبانيات ، سواء الأمراء منهم أو صغار الجند . فقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير أرملة لذريق آخر الملوك القوط ، وقد تكنت بأم عاصم . وارتبط العرب بالعناصر الموجودة حينئذ فى اسبانيا بالمصاهرة ، وعاشوا جميعا جنبا الى جنب فى سلام وتعاون . ولم يحاول العرب المسلمون ارغام أحد على اعتناق الاسلام أو التعرب ، ولكن طبيعة الظروف والأحداث أدت الى تعريب تلك البلاد ، كما أقبل كثير من الأهالى على اعتناق الاسلام بعد أن لمسوا فضائله وتعاليمه السامية .

أدت سياسة التسامح الدينى التى سارت عليها الحكومة نحو رعاياها المسيحيين فى اسبانيا ، وحرية الاختلاط بين المتدينين قد أدت الى شىء من التجانس والتماثل . وقد كثر التصاهر بينهم ، حتى أن (ازيدور) الذى شدد النكير على الفاتحين المسلمين ، قد دون مسألة زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير من أرملة الملك (لذريق) دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها هذا العمل . هذا الى أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام حـ ٣ ص ٨ .

عربية ، وقلدوا جيرانهم المسلمين ، فاختتن كثير منهم ، وساروا وفق رسوم المسلمين فى أمور الطعام والشراب (١) .

كان المجتمــع فى الأندلس يتألف من العــرب ، ومعظمهم من الجند الفاتحين الذين قدموا الى الأندلس ، ومن جماعة (المسالمة) وهم الاسبان الذين اعتنقوا الاسلام ، أما الاسبان الذين بقوا على دينهم وأصبحوا أهل ذمة فقد تمتعوا بالحرية الدينية والتسامح الاســلامى . ومن بين عناصر السكان كان (المولدون) وهم الذين ولدوا من آباء مسلمين ونشأوا على الاسلام ، وكانوا يشلون الغالبية العظمى من سكان الأندلس . وهناك أيضا (المســتعربون) وهم الأسبان النصارى الذين عاشروا العــرب وتعربوا وتمتعوا بالحرية الدينية .

ويمثل الاستعراب تأثير الثقافة العربية فى غير المسلمين من الاسبان . وقد أصبح المستعربون مولعين بالتراث العربى من أدب وشعر . وسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية فى جميع أرجاء البلاد ، حتى أن لغة الدين المسيحى قد تطرق اليها الاهمال والنسيان شيئا فشيئا . بل لقد أثار بعض القسيسين سخرية الناس لجهلهم باللغة اللاتينية الصحيحة . وبلغت اللغة اللاتينية فى بعض أجزاء اسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط ، حتى لقد أصبح من الضرورى أن تترجم الكنيسة الاسبانية القديمة والانجيل الى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين .

وبينما كانت الآداب العربية التى ازدهرت فى ذلك العصر تستولى على الأفئدة بجمالها ، ويقبل الناس على دراستها فى حماسة وشغف ، نجد أن أولئك الذين رغبوا فى دراسة الأدب المسيحى لم يعد فى متناول أيديهم المادة التى كانت تستخدم فى تعليم القوط المتبربرين ، ولم يجدوا ، الا فى شىء من الصعوبة ، المعلمين الذين يستطيعون أن يبدءوا معهم نوعا من الدراسة لا يرتفع كثيرا حتى عن المستوى المنحط من الثقافة (٢) .

---

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٦٠ .
(٢) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ١٦٢ .

انتشرت الثقافة العربية بين الشباب المسيحى ، حتى جأر المطران المتعصب (ألثار) بشكواه ، وأصبح هؤلاء الشباب لا يروقهم سوى الشعر والقصص العربى ، ولم يعودوا يقرأون سوى الكتب العربية ونسوا لغاتهم القديمة .

وقد كان دور المستعربين ، وهم عنصر فعال فى حياة الأندلس من العوامل الهامة فى نقل الحضارة العربية الى اسبانيا المسيحية ، فالعصور الوسطى الاسبانية لم تكن تعرف الانفصال الجغرافى ولا العنصرى بين المسلمين والمسيحيين ، والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية الحديثة كانوا أداة اتصال بين شطرى اسبانيا . وهم منذ الفتح العربى لم ينقطعوا عن الهجرة الى الأراضى المسيحية . وكان من شأن هذه الهجرات انتشار الثقافة الاسلامية والعربية بين أهل الشمال من المسيحيين ، فمن طريق المستعربين انتقلت اليهم عادات وتقاليد اسلامية ، وكثر الأخذ عن التراث العربى (١) .

اعترف المؤرخ (توماس أرنولد) (٢) بتسامح المسلمين مع أهل الذمة فى الأندلس ، فقال : « أما عن حمل الناس على الدخول فى الاسلام ، أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد ، فاننا لا نسمع عن ذلك شيئا . وفى الحق ان سياسة التسامح الدينى التى أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر فى تسهيل استيلائهم على هذه البلاد » . ثم يقول أرنولد : « لا يسعنا الا الاعتراف بأن تاريخ اسبانيا فى ظل الحكم الاسلامى يمتاز ببعده بعدا تاما عن الاضطهاد الدينى » .

وأدى هذا التسامح الاسلامى الى اقبال كثير من أهل الذمة على اعتناق الاسلام ، والتحضر بالحضارة العربية ، وفى ذلك يقول (أرنولد) (٣) أيضا : « بلغ من تأثير الاسلام فى نفوس معظم الذين تحولوا اليه من مسيحى اسبانيا مبلغا عظيما ، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة ، واستهدى

---

(١) لطفى عبد البديع : الاسلام فى اسبانيا ص ٣١ .
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ١٥٧ .
(٣) المصدر السابق ص ١٦٤ .

أفئدتهم بشعره وفلسفته وفنه الذى استولى على عقولهم وبهر خيالهم . كما وجدوا فى الفروسية العربية الرفيعة مجالا فسيحا لاظهار بأسهم ، وما تكشفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم . تلك الحياة التى ظلت مغلقة فى وجوه الاسبان الذين بقوا على تمسكهم بالمسيحية واخلاصهم لها . أضف الى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لابد أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة . اذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التى لا يبعد أن تكون دراستها فى حد ذاتها ، باعثا على الدخول فى دينهم » .

بعثات علمية اوروبية الى الأندلس :

اهتمت الدول الأوروبية المسيحية بارسال بعثات علمية الى بلاد الأندلس العربية الاسلامية لدراسة العلوم والفنون والصناعات فى معاهدها الكبرى ، نتيجة ذيوع شهرة الأندلس وحضارتها الزاهرة فى انجلترا وفرنسا وهولنده وتوسكانا .

تحدث المؤرخ (فاليير) عن ثلاث بعثات أوروبية الى الأندلس الاسلامية ، أولها بعثة فرنسية برئاسة الأميرة اليزابيث ابنة خالة لويس السادس ملك فرنسا . والبعثة الثانية انجليزية وعلى رأسها الأميرة (دوبان) ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة (ويلز) ، ويذكر المؤرخ أنه ربما كان ولى عهد انجلترا يومئذ . أما البعثة الثالثة فكانت اسبانية ، وقد بلغ عدد أفرادها (٣١٢ هـ — ١٢٩٣ م) سبعمائة طالب وطالبة .

فقد اشتهرت بلاد الأندلس فى أرجاء القارة الأوروبية بحضارتها وتسامحها . ويشيد (جوستاف لوبون) بذلك فيقول : لقد بلغ من نبل الدعوة التى حملها أبناء الجزيرة العربية الى العالم فى كل مكان توجهوا اليه أن أصبح قادة هؤلاء الأقوام الذين تبينوا أن بلادهم ستكون ممر الجحافل العربية يترقبون فى لجج وشوق اقتراب ساعة ظهور تلك الطلائع المنهللة نصرا ، والحاملة لشعلة العدل والرحمة والحضارة ، لأن السمعة الطيبة وسمو الأهداف كانا يسبقان خيول أبناء يعرب . وكانت تلك الخلال

المحببة ينتشر عبيرها المعطر على الناس فى الشرق والغرب قبل وصول العرب المسلمين الى مقاطعاتها المديدة الكثيرة بألوف الفراسخ .

وكان الاسبان المسيحيون يملأون أجواء أوروبا بالمديح والاعجاب بأعمال العرب المسلمين وشرائعهم ومعاهدهم وحضارتهم ، ويشيدون بالعمران الذى أدخلوه على البلاد الاسبانية . وكان يتكون من كل ذلك دعاية غير مقصودة ، فترسل عفوا فى صدر الاعتزاز بما وصلت اليه بلادهم على يد المسلمين الفاتحين من رقى وتمدن ، فتشرئب الأعناق وتتفتح الأذهان الى روايات أبناء الأندلس الأصليين المنتشرين فى معظم أرجاء أوروبا كمهاجرين نزحوا عن بلادهم تحت عوامل الخوف ، ثم ما لبثوا أن تبينوا أخطاءهم فى هجر بلادهم لما توارد الى أسماعهم من مواطنيهم الذين مكثوا فى البلاد بما يقوم به المسلمون من أعمال جليلة ومآثر خالدة أدت الى تحويل البلاد الاسلامية الى جنات قطوفها دانية وشرائع وأنظمة ملأت الأقطار عدالة وأمنا (١) .

جعلت هذه الروايات الأفئدة والأسماع والأبصار فى ديار الفرنجه تتجه الى الأندلس . وكان أول من أراد سبرغور ما يروى عن الحضارة العربية الملك فيليب البافارى الذى بعث الى الخليفة الأموى بالأندلس (هشام الأول) يسأله السماح له بايفاد هيئة تشرف على أحوال بلاد الأندلس ، ودراسة أنظمتها وشرائعها وثقافة مختلف الأوساط فيها ليتمكن من اقتباس المثمر المفيد من ذلك لبلاده . ووافق الخليفة على طلبه ، وبعث الملك الجرمانى وفدا برئاسة وزيره الأول (ويليمين) ، وقد لقبه الأندلسيون (وليم الأمين) لأنه كان أمينا فى نقل ما رآه من حضارة الأندلس وعظمتها الى الملك ، وحثه على الاستمرار فى ايفاد البعثات العلمية لاقتباس معالم الحضارة العربية الاسلامية .

وتوالت البعثات الأوروبية المسيحية على الأندلس ، فأرسل ملك انجلترا جورج الثانى ابنة أخيه الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من ١٨ فتاة من

---

(١) المدور : الديانات والحضارات ص ٦٧ .

بنات الأمراء والأعيان الى أشـــبيلية يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى النبيل (سفليك) .

ونبغ كثير من أعضاء البعثات الأوروبية فى الفنون والعلوم . وبقى ثمانية أعضاء منهم فى الأندلس حيث اعتنقوا الاســـلام ولم يعودوا الى بلادهم . وبين هؤلاء ثلاث فتيات تزوجن من مشـــاهير رجال الأندلس ، وأنجبن فحولا يشار اليهم بالبنان ، اشتهر منهم الفلكى المشهور (عباس بن مرداس) .

وقدمت بعثات أخرى مسيحية من فرنسا وايطاليا والأراضى الواطئة ، وامتلأت لهم معاهد غرناطة واشـــبيلية ، ونهلت من الحضـــارة الأندلسية الاسلامية وتأثرت بالأخلاق العربية . ولم يعد بعض هؤلاء المبعوثين ، سواء من الفتيان أو الفتيات ، تحت تأثير عوامل شـــتى ، نتيجة اعجابهم بالحياة العربية وتقاليدها وثقافتها ، أو نتيجة صلات عاطفية نشأت بين بعض الفتيات الأوروبيات وأبناء سراة العرب الذين كانوا يزاملون أفراد البعثات فى مختلف المعاهد العربية ، حيث انتهت معظم هذه العلاقات بالزواج بعد اعتناق الاسلام . وقد اشتهرت من بين الفتيـــات اللواتى ربطت الأقدار حيـــاتهن بالأسر العربية الكريمة كثيرات أبرزهن (مارى غوبييـــه) وهى بلجيكية الأصل ، أحبها الأمير (حسن المهدى) وتزوجها) . ومنهن (روبيكا ستارت) من بنات العائلات الارستقراطية الجرمانية ، والراهبة (جانيت سمبسون) المرافقة لاحدى بعثات البنات الانجليزيات ، و (شونا) ابنة الكونت (سيرجاك) من أشراف هولنده (١) .

صقلية فى العصر الاسلامى :

امتد التسامح الاسلامى الى جزيرة صقلية وسائر جزر البحر المتوسط . فقد ترك العرب المسلمون لأهالى صقلية الأصليين ، على اختلاف أديانهم ، وعاداتهم وقوانينهم ، وحريتهم الدينية المطلقة ، واكتفوا بجباية قليلة ، وكان مقدارها أقل مما كانت عليه على عهد اليونان ، وأعفوا منها الرهبان والنساء

---

(١) المدور : الديانات والحضارات ص ٧٠ .

والأولاد ، وحافظوا على جميع الكنائس التى وجدوها ، واهتموا بالزراعة والصناعة ، وأدخلوا أنواعا من المزروعات مثل البردى والمران ، وأنشأوا مصانع الورق ، وامتدت هذه المصانع من صقلية الى ايطاليا ، واستخرج العرب الذهب والفضة والحديد والرصاص والنوشادر ، وعلموا أهالى صقلية صناعة الحرير ، كما اهتموا بالتجارة وانشاء الأساطيل التجارية ..

أشاد (دييل) بالحكم الاسلامى فى صقلية فقال : ان العرب المسلمين حملوا معهم الى جزيرة صقلية مظاهر فنهم ، وقناطرهم العالية الجميلة ، وبهيج صناعاتهم وليدة علمهم . وكانت المصانع العربية مثلا يحاكيه النورمان فيما بعد . ولما فتح العرب المسلمون (بلرم) سنة ٨٣١ م لم يكن فيها سوى ثلاثة آلاف نسمة ، فلما غدت عاصمة أمراء المسلمين برزت حضارتها وفنونها فأصبح لها حكومة ذات مجد ورقى (١) .

وتحدث (آمارى) فى كتابه (المسلمون فى صقلية) عن الحكم العربى الاسلامى لصقلية فقال : ان من غلبوا على أمرهم من سكان الجزيرة كانوا فى راحة وسرور على عهد الأمراء العرب المسلمين ، وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة اخوانهم الايطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجورمانيين والفرنجة .

اهتم الولاة المسلمون بالاصلاحات ، ونشروا ألوية العدل ، وعنوا بحفر الترع وتنمية الزراعة ، فزادت ثروة أهالى صقلية ، وعمت فيها الخيرات ، وظل العرب المسلمون لا يمتازون عن الأهالى الأصليين فى شىء ، فكل منهم يمارس شعائر دينه ، ويتبع أسلوب معيشته . بل ان نساء صقلية تشبهن بنساء العرب فى ملابسهن . ولم يرهق الفاطميون أهالى صقلية بالضرائب ، بل اكتفوا بأخذ جزية عادلة ، دينارين من أغنيائهم ، ودينار واحد من أرباب الحرف والصناعات .

لم يكن فتح العرب المسلمين لصقلية مجرد غزو عسكرى ، بل اهتم العرب بنشر الاسلام والعروبة فى تسامح عظيم ، وتنظيم أحوال الجزيرة .

---

(١) كرد على : الاسلام والحضارة العربية حـ ١ ص ٢٨٠ .

وقسم العرب صقلية الى ثلاث ولايات ، ويصف (جوستاف لوبون) هذا التقسيم العربى لصقلية بأنه « أكثر ملاءمة لجغـرافيتها » . واهتم العرب المسلمون بالنظم الادارية ، وتركوا لغير المسلمين الحرية الدينية التامة ، فخضعوا لقوانينهم المدنية والدينية ، وكانت الجزية عادلة تتناسب مع الدخل والثراء ، وجعل المسلمون كل ما له علاقة بالحقوق المدنية كالتملك والارث وما اليها ملائما لعادات صقلية ، وهذا ما لم يتبعه النورمانيون حين استولوا على الجزيرة .

ولم يكن استيلاء النورمنديين على صقلية نهاية لآثار العروبة والاسلام فى الجزيرة . فقد استمر العرب المسلمون يقيمون فيها ، واعتمد الأمراء النورمنديون عليهم فى السياسة والاقتصاد ، فقد كانوا على جانب كبير من الحضارة والرقى والخبرة ، فقد كانوا عناصر نشيطة منتجة .. وقد مر الرحالة ابن جبير بجزيرة صقلية سنة ٥٨٠ هـ أى بعد ست وتسعين سنة من انتهاء الحكم العربى الاسلامى لصـقلية ، فتحدث عن اعتماد الأمير النورمندى (غليام) على العناصر العربية الاسـلامية فقال : « انه عجيب فى حسن السيرة واستعمال المسلمين ، وانه كثير الثقة بهم ، وساكن اليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، وله الأطباء والمنجمون ، وهو شديد الحرص عليهم » .

واستمر روجر الثانى وابنه وغليام على الاستعانة بالعرب جريا على خطة روجـر الأول ، فتركوا لهم حريتهم ، ينعمـون بضـياعهم وأموالهم ومتاجرهم . وكان هؤلاء الملوك يحسنون اللغة العربية ويطربون لشعرها وأدبها . وكان فردريك الثانى كثير العناية باللغة العربية وآدابها ، وقد ضرب فيها بسهم وافر ، وظلت اللغة العربية فى صقلية اللغة الرسمية ، وكان من العـرب معلمون وأسـاتذة وعلمـاء مهـرة ، ولا تـزال براءات ملوك النورمانديين مكتوبة بالعربية واللاتينية واليونانية ، وكانت العربية احدى اللغات التى تضرب بها نقودهم ، بل نقش عليها « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

وكان القاضى جمال الدين بن واصل ، الفيلسوف المؤرخ ، قد رحل الى صقلية سفيرا للسلطان المملوكى الظاهر بيبرس فى سنة ٦٥٩ هـ ، فتحدث

عن الأمير النورماني ، فذكر أنه كان يقرب العرب المسلمين ، كما تحدث عن مدينة (لوجاره) فذكر أن معظم أهلها من العرب المسلمين ، وتقام فيها صلاة الجمعة ، وأن معظم أصدقاء الأمير من المسلمين وأنه يعلن بالأذان والصلاة في معسكره ، وأن هذه التصرفات أثارت غضب البابا على الأمير (١) .

ترك العرب المسلمون فى جزيرة صقلية كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم التى لا تزال باقية حتى الآن . كما تركوا ألفاظا عربية كثيرة فى اللغة الصقلية والايطالية ، ولا تزال مدن وأماكن كثيرة فى صقلية تحمل أسماء عربية اسلامية ، ولا سيما أسماء القلاع والمراسى والشوارع .. وتحدث (رينالدى) عن التأثيرات العربية الاسلامية فى جزيرة صقلية فقال : ان الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى الايطالية التى تفوق الحصر دخلت اللغة الايطالية لا بطريق الاستعمار العربى بل بطريق الحضارة التى كثيرا ما تؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة . وقد اضطرت مدينة جنوة أن تؤسس سنة ١٢٠٧ م مدرسة لتعليم اللغة العربية ، ويدل على ذلك وجود كلمات عربية فى لغة هذه المدينة وفى اللغات العامية فى جميع المدن الايطالية التى كانت تتجر مع الشرق وصقلية ، وقد دخلت اليها مع التجارة العربية ، ولا تزال معاجم لغتهم تحفظ كثيرا منها والهندسة الغوطية هى فى الحقيقة الهندسة العربية . كما أن أسماء الموازين والمكاييل والألفاظ البحرية فى اللغة الايطالية من أصل عربى .

وأثبت (آمارى) المستشرق الصقلى ، أن صقلية مدينة للعرب المسلمين بحضارتها ، كما أن ايطاليا مدينة لصقلية باقتباس الحضارة العربية ..

ان النغمة العربية التى هبت نسماتها الزكية على ديار الايطاليين علمتهم كيف يحترمون الواجبات بعد أن كان معظمهم يشتغل بالسلب والنهب وقطع الطرق ، وعلمت أبناءهم القراءة والكتابة وشتى العلوم بعد أن كانوا أميين يفتك الجهل المدقع بهم . وعلمتهم الصناعات المختلفة وأصول الزراعة

---

(١) أنظر كتابنا (العرب فى أوروبا) ص ٦٩ .

وشاركهم المسلمون فى ضروب التجارة التى درت عليهم الثروات المختلفة بعد فقر وشقاء .

شهدت جزيرة صقلية كثيرا من ضروب التسامح الاسلامى ، ولم يستطع النورمنديون أن يحيدوا عن هذا التسامح ، كما اضطروا الى الالتجاء الى الحضارة الاسلامية والنظم العربية فى حكمهم وادارتهم .. وعلى الرغم من أن روجر الأول نفسه كان مسيحيا غير مثقف الا أنه كون القسم الأكبر من جنده المشاة من العرب المسلمين ، وكان يرعى الثقافة الاسلامية ، وأحاط نفسه بأهل المشرق من الفلاسفة والمنجمين والأطباء ، وأبقى الموظفين العرب فى وظائفهم ، وكان بلاطه أشبه ببلاط خلفاء العرب منه ببلاط أمراء الغرب ، وظلت صقلية أكثر من مملكة مسيحية يتولى وظائفها الكبرى عرب مسلمون (١) .

وكان روجر الثانى (١١٣٠ — ١١٥٤) يرتدى الملابس العربية ، ويطرز رداءه بحروف عربية ، ونقش على سقف الكنيسة التى بناها فى بالرمو نقوشا كوفية . كما احتضن روجر الثانى (الادريسى) أعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط فى العصور الوسطى . أما الامبراطور فردريك الثانى فكان فى عاداته الشخصية وحياته الرسمية نصف شرقى ، وكان فى بلاطه كثير من الفلاسفة العرب المسلمين من الشام وبغداد وتوثقت صلاته وصداقاته بالسلاطين الأيوبيين فى مصر وتبادل معهم الهدايا ..

ظلت اللغة العربية شائعة فى جزيرة صقلية الى أواخر القرن التاسع للهجرة ، يؤيد ذلك شواهد القبور التى عثر عليها حديثا علماء الآثار ، بل كانت شواهد قبور المسيحيين تكتب بالعربية أيضا . بل تكلم كثير من المسيحيين باللغة العربية بعد نهاية الحكم العربى بمدة طويلة وأرخوا التاريخ الهجرى .

---

(١) حتى : تاريخا العرب ص ٧٨٧ .

الفصل الحادى عشر

الحروب الصليبية ليست حروبا دينية

الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية :

تصور الفصـــول الأخرى من الكتاب الجوانب المضـــيئة فى التاريخ الاسلامى ، فقد شهدنا صورا عديدة منوعة للتسامح الاسلامى ، ويبحث هذا الفصل صورا قاتمة فى التاريخ الأوروبى ، يوضح تعصب جماعات من الأوروبيين بأن دفعهم هذا التعصب الأعمى الى غزو العالم الاسلامى .

بدأت الحملات الصليبية فى العصر الفاطمى سنة ٤٩٨ هـ (١٠٩٦ م) وانتهت فى عهد المماليك سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) . وهى الحلقة الأولى فى سلسلة الأطماع الأوروبية فى الشرق العربى ، وهى الصـــورة الأولى من الصور الاستعمارية التى شهدتها القرون التالية . عرف الدكتور محمد مصطفى زياده (١) الحروب الصليبية فى هذه العبارة : الحروب الصليبية حركة أوروبية اعتدائية توسعية استمدت جذورها من قديم التنافس العميق بين الشرق والغرب ، ومن توغل الفتوح الاســـلامية الأولى فى أطراف الامبراطورية البيزنطية ، وفى أجواف الممالك المسيحية الغربية بـ اسبانيا وفرنسا وايطاليا ، وجزر البحر المتوسط . وتضاف الى هذه العوامل العالمية الكبرى ، عوامل أوروبية محلية ، وهذه ترجع الى القرن الحـــادى عشر الميلادى ، والى صميم التاريخ الأوروبى فى ذلك القرن .

وثمة رأى خاطىء فى التاريخ طالما ردده أعلام المدرســـة القديمة من المؤرخين والكتاب الغربيين ، هو أن المسيحيين فى الشرق الأدنى تعرضوا لعدوان فريد من نوعه فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وأن الطريق

---

(١) فى مقدمة كتابه (حملة لويس التاسع على مصر) .

الى بيت المقدس غدا موصـــدا فى وجه الحجاج المسيحيين ، مما استثار الكنيسة وأهالى غرب أوروبا ، وأدى الى مولد الحركة الصليبية .

وقد أثبتت الأبحاث الجديدة التى قام بها المؤرخون الأوروبيون أنفسهم خطأ هذا الرأى وبعده عن الحقيقة والتاريخ . فليس حقيقيا ان المسيحيين فى البلدان الاسلامية ، تعرضوا لموجة اضطهاد وحشى فى القرن الحادى عشر ، وأن كنائسهم خربت وطقوسهم عطلت . وليس حقيقيـا أن حجاج الغرب المسيحيين الوافدين الى بيت المقدس صادفوا عنتا وسوء معاملة من حكام البلدان الاسلامية التى مروا بها ، ذلك أن طبيعة الاسلام وأسلوب الدعوة اليه ، وما أحاط به القرآن الكريم أهل الكتاب من رعاية ، كل هذه أشياء تتنافى وتلك الافتراءات . ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائما فى كنف الدولة الاسلامية حياة هادئة يباشرون طقوسهم ويتمتعون بحقوقهم كاملة (١)

كان من جراء الفتوحات الاســلامية لقســم غير قليل من المقاطعات الأوروبية أن تفتحت أذهان شعوبها الى وجوب نبذ الاختلافات والحروب الدينية القائمة فيما بينهم وطرحها جانبا للعمل على جمع صفوفهم لمقاومة تيار الخطر الاسلامى الذى داهمهم بفتوحاته وهم فى غفلة عن ذلك ، لا هم لهم الا مناضــلة بعضهم بعضا . وراح القوم ينــادون تحت زعامة البابا (أورين الثانى) سنة ١٠٩٦ م الى اعلان حرب صليبية .

لا هوادة فيها على العرب والمسلمين وتخليص بيت المقدس من أيديهم . ومما ساعد على انخراط البابا فى عداد القائمين بهذه الدعاية وتوليه زعامة توجيهها وادارتها ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزه العرب المسلمون بموقعة (ذلاقة) على جيوش الاسبانيين الذين كان على رأســهم الملك ألفونس الخامس فى الأندلس سنة ٤٨٠ هـ .

ومن عوامل الحروب الصليبية رغبة البابوات فى توجيه الفرسان لقتال المسلمين بدلا من الانصراف الى الحروب الداخلية ، ومحاولة الاستيلاء

---

(١) سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ٢٦ .

على ما بيد المسلمين من الممتلكات . ومنها مطامع الأمراء والنبلاء الذين اشتركوا فى هذه الحروب ، والحرص على انشاء امارات مستقلة فى الشرق. ولم يدفع المدن الايطالية الى الاشتراك فى هذه الحروب الصليبية الا الرغبة فى الحصول على منتجات الشرق ومتاجره .

ومن العوامل التى اجتذبت الناس للاشتراك فى الحروب الصليبية ، ما انتشر فى غرب أوروبا وقتذاك من الأوبئة والمجاعات ، فتدفقت جموع المهاجرين ، وأقبلت على الانضمام الى المشتركين فى هذه الحروب ، ولا شك أن هذا السيل من المهاجرين الى الشرق حمل فى طياته عددا كبيرا من المغامرين والدهماء والرهبان الهاربين من الأديرة ، والأقنان الآبقين من سادتهم (١) .

وهكذا تجمعت عوامل عديدة ، اقتصادية واجتماعية وسياسية ، لتجعل فئات متنوعة وجموعا غفيرة من أهالى غرب أوروبا يلبون الدعوة للحرب الصليبية ، ويجدون فى تلك المغامرة الجديدة فرصة ذهبية للخلاص من ديونهم وسوء أحوالهم أو لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية فى الشرق .

واذا كان أولئك المغامرون قد حرصوا على الصاق شارة الصليب على ثيابهم — مما أكسب حركتهم اسم الحروب الصليبية فى التاريخ — فانه ليس هناك ما يثبت أن الصليب والكنيســة والدين كانت القوى الكبرى التى حركت مشاعرهم وجعلتهم يتحمسون لنداء البابوية . وربما كان أقرب الى الصواب ما قاله أحد كبار المؤرخين الغربيين المحدثين — هو الأستاذ طومسون — من أنه يعتبر الحروب الصليبية أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوروبى فى أواخر العصور الوسطى (٢) .

الحروب الصليبية ليست حروبا دينية :

لم تكن الحروب الصليبية حروبا دينية قام بها أناس أداروا ظهورهم للدنيا ومتاعها ولم يستهدفوا غرضا سوى الدين وخدمة الدين . وان نظرة

---

(١) الباز العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ص ٩ .
(٢) أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٥ .

يلقيها الباحث على سلوك الصليبيين فى الشرق سواء فيما يتعلق بالمعاملات فيما بينهم وبين بعض ، أو فيما يتعلق بتصرفاتهم تجاه أهل البلاد الأصليين ، لتوضح أن أولئك الصليبيين لم يكن لهم من المسيحية الا اسمها ، وأنهم ظلوا دائما أبعد ما يكونون عن روح المسيحية ، وهى الديانة السماوية الكريمة التى حرص القرآن الكريم على تكريم نبيها تكريما لم يحظ به أحد من الأنبياء السابقين .

وأى وازع دينى كان عند أولئك الغزاة الذين لم يحجموا عن ذبح سبعين ألف مسلم فى المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس فى أيديهم فى يوليو سنة ١٠٩٩ م ؟ بل أى وازع دينى كان عند أولئك الصليبيين الغربيين عندما اقتحموا القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م — وهو البلد المسيحى الآمن — وعندئذ لم يتورعوا عن نهب كنائسها والاعتـداء على أهاليها المسيحيين وهم اخوانهم فى الدين ؟ (١) .

وظهر من بين الأوروبيين بعض العقلاء الذين أبدوا معارضتهم لتوجيه الحملات الصليبية ، فقد أوتوا من صحة التفكير والوعى السليم ما جعلهم يجوبون أرجاء أوروبا يخبطون فى الناس ويصورون لهم خطورة الموقف ، والكوارث التى تلحق بالأقطار الأوروبية نتيجة هذا التعصب الذى يثيره رجال القصور والكنائس على بلاد الشرق ، ويبرزون الأضرار والمصائب التى سوف تنال الأوروبيين اذا انصـاعوا لدعايات المضللين ولكن هذه الأصوات لم تلق كثيرا من القبول ، ولم تستطع أن تقف فى وجه تيار التعصب الأعمى ، بل تعرض بعض هؤلاء العقلاء الى التنكيل والتعذيب ، فقد صلب (داف ليج) فى ساحة من ساحات (مونيخ) ، وأحرق (سوند) فى (اكس لاشابل) أمام أنظار الألوف من الناس . ولكن بعد اخفاق الحملات الصليبية ، أدرك الأوروبيـون قيمة دعوة هؤلاء العقـلاء ، فأقبلوا على تمجيدهم والاشادة بحكمتهم ، وأقيمت الأنصاب والتماثيل لهؤلاء العقلاء فى أكثر من ميدان بكل مدينة كبيرة فى ألمانيا وهولنده وفرنسا والدانمرك ، ومنها نصب لنيقولاى سوند فى بلدة (سوفن) الهولنـدية ، تحج اليه

(١) المصدر السابق ص ١٠ .

النساء اللواتى ينحدرن من أصلاب المغامرين الذين سبق أن ذهبوا ضحايا المغامرات الصليبية . كما أن الأمهات كن يطلقن أسماء هؤلاء العقلاء على أولادهن مثل أسماء (نيقولاى) و (دينج) و (واف ليج) ، تبركا بهم واحياء لذكراهم .

تحدث المؤرخ (جوستاف) لوبون) (١) عن الحروب الصليبية فعدد الأغراض الدنيوية التى دفعت بالأوروبيين للمشاركة فى هذه الحروب فقال : نشأ عن عزم القوم على غزو فلسطين اشتعال النفوس حمية ، وصار كل واحد يرجو اصلاح حاله فضلا عما يناله فى ملكوت السماوات ، فغدا العبيد يطمعون فى فك رقابهم ، وغدا أبناء الأسر الذين حرموا الميراث بسبب نظام البكرية والسنيورات الذين كانت قسمتهم جائرة ، يطمعون فى الاعتناء ، وغدا الرهبان الذين أضنتهم حياة الأديان وجميع المحرومين طيب العيش ، وكان عددهم كبيرا ، يعللون أنفسهم بأطيب الأمانى . حقا لقد أصاب القوم نوبة حادة من الجنون ، فرغب السنيورات والعبيد والنساء والرهبان . والأولاد وجميع الناس فى الزحف ، وأخذ كل امرىء يبيع ما يملك ليتجهز ، واستعد من الرجال ١٣٠ ألف مقاتل لغزو فلسطين حالا . وكانت تلك النوبة تزيد حدة كل يوم ، ولم يرغب الذين بكروا فى انتظار تأليف جيش منظم ، وما كاد ربيع سنة ١٠٩٦ م يحل حتى توجهت عصابات كبيرة من كل صوب وحدب الى نهر الدانوب . وكانت الحركة شاملة ما بين بحر الشمال ونهر التيبر ، وكانت تجرف سكان بعض القرى آخذين ما عندهم من الأموال ، وكانت أوروبا كلها تنقض على آسيا . وكلما اقتربت تلك العصابات من هدفها المأمول زادت جنونا ودارت المعجزات والكرامات فى أدمغتها المشتعلة التى طارت منها العقول الى الأبد ! !

ونفى (بردنار دى فيس) ما ردده البعض من أن العامل الدينى هو الدافع الأول للحروب الصليبية فقال : ان السلام سائد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين ، حتى اننى لو كنت مسافرا ونفق بعيرى أو حمارى الذى ينقل أمتعتى على الطريق ، وتركتها كلها دون حارس ولا

(١) حضارة العرب ص ٣٢٢ .

رقيب ، وسرت الى أقرب مدينة لأجلب لى بعيرا أو حمارا آخر ، لوجدت عند عودتى أنها باقية على ما هى لم يمسها أحد . وقال المؤرخ (منرو) فى بحثه (نظرة الغرب الى الاسلام فى زمن الحروب الصليبية) : كانت هذه الفظائع المنسوبة الى المسلمين ممزوجة بكثير من الأفاوية لتـوافق روح العصر الذى كان أشد توحشا من عصرنا هذا ، وكان النصارى يأخذون قصص هذه الفظائع على علاتها (١) .

عوامل اخفاق الحروب الصليبية :

أخفقت الحملات الصليبية اخفاقا ذريعا ، نتيجة انعدام روح الوفاق بين عناصر دعاتها ، وتفكك عرى وحدة الصفوف وتشتت الأهداف فيما بينهم كالتنازع على الزعامة والقيادة والسيادة . وقد تسرب هذا الخلاف والشقاق الى صفوف جنود الجيوش الصليبية ، وكانوا خليطا عجيبا من عناصر متباينة فى ميولها وأهدافها ولغاتها وعناصرها ومذاهبها . فقد بلغ عدد أجناس جنود الحملة السادسة ٢٠ جنسا يتحدثون ١٧ لغة . وتساءل المؤرخ (بورجيه) فى كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : كيف يمكن أن يتم النصر لمثل هذا الخليط العجيب ، على الشعوب الاسلامية التى كانت تتكون وتتكتل فى مجموعة قوية الايمان والانسجام وغنية بمالها ورجالها وحضارتها ؟ .

كما أن هذه الحملات الصليبية لم يكن لها هدف يستند الى نتائج ذات فائدة سياسية أو مدنيـة أو تجارية ، بل كانت لمحض ارضـاء الشهوات الدينية التى تقوم على التعصب ، وكان رجال الدين أصحاب السلطة فى أوروبا فى ذلك الحين ، بينما تمتع العرب والمسلمون بحضـارة زاهرة ، وكانت لهم نظم سياسية واجتماعية وعسكرية راقية (٢) .

كانت الفظائع والمذابح التى أقدمت عليها الحملات الصليبيـة من عوامل اخفاقها ، فقد أثارت الاشمئزاز والسخط فى كل مكان حلت فيه .

---

(١) أنظر كتاب الاسلام والحضارة العربية لكرد على حـ ١ ص ٢٩٣ .
(٢) المدور : الديانات والحضارات ص ٤٣ .

وقد اعترف المؤرخ (جوستاف لوبون) (١) بذلك فقال : ويدل سلوك الصليبيين فى جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة » فقد كانوا لا يفرقون بين الحلفاء والأعداء والأهلين العزل والمحاربين والنساء والشيوخ والأطفال ، وقد كانوا يقتلون وينهبون على غير هدى .

ومن عوامل اخفاق الحروب الصليبية ، تحولها عن أهدافها الأولى التى خرجت من أجلها . وفى ذلك يقول المؤرخ (ستانلى لينبول) : تحول الصليبيون عن أغراضهم الأولى التى قدموا الى الشرق من أجلها ، فانشغلت قواتهم بالسلب والنهب وايذاء المسلمين والعرب المسالمين .

أثبت الصليبيون جهلهم المطبق بفنون القتال ، فكانت جيوشهم تحفل بالفوضى ، وتنكروا لحلفائهم من الروم البيزنطيين ، فقد خربوا القسطنطينية ، وعبثوا بكنائسها وجعلوها طعاما للنار ، وارتكبوا كل كبيرة أورثتهم العار . فيقول ابن الساعى فى كتابه (الجامع المنتصر) ان الافرنج لما دخلوا القسطنطينية فى سنة ٦٠٠ هـ نهبوا كل ما فى البيع من ذهب ، حتى ما على الصلبان ، وما على صورة المسيح والحواريين وما على الأناجيل (٢) .

ان الحركة الصليبية لم تكن مجرد حروب . لقد كانت بالنسبة للوطن العربى تجربة خطيرة مليئة بالدروس والعظات . تجربة أثبتت للعرب جميعا فى المشرق والمغرب أن وحدتهم هى الملاذ الذى يلوذون به وقت الخطر ، والعاصم الذى يعصمهم من كيد الكائدين وشر المعتدين .

وكانت الحركة الصليبية بالنسبة للغرب الأوروبى مغامرة فاشلة كلفته كثيرا من التضحيات فى الأرواح والأموال التى ذهبت عبثا لأن منطق العدوان لايمكن أن ينتصر وسياسة البغى لايمكن أن تنجح فى أرض عربية عرف أهلها بالحرص على حريتهم وحرية بلادهم (٣) .

---

(١) حضارة العرب ص ٣٢٥ .
(٢) كرد على : الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٢٦٤ .
(٣) سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١١٠

صور وتعصب وفظائع الصليبيين :

ضرب الصليبيون خلال الحروب الصليبية كثيرا من الأمثلة للتعصب وأتوا من الفظائع والمذابح والكبائر ما تقشعر منه الأبدان ، وقد اعترف بذلك معظم الكتاب والمؤرخين الأوروبيين . ومن هؤلاء المؤرخين (ميشو) فى كتابه (الحروب الصليبية) ، الذى ذكر أن الصليبيين حين فتحوا معرة النعمان قد قتلوا جميع من كان من المسلمين اللاجئين الى الجوامع والمختبئين فى السراديب ، فأهلكوا صبرا أكثر من مائة ألف انسان ، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام . وفتح الصليبيون القدس بعد أن أفحشوا القتل فى المسلمين ، حتى هلك منهم عشرات الألوف ، فيهم جماعة من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد . وارتكب الصليبيون كل محرم فى دينهم مع المسلمين واليهود .

وقال المؤرخ (ميشو) أيضا : تعصب الصليبيون فى القدس أنواع التعصب الأعمى الذى لم يسبق له نظير ، حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون العرب على القاء أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاما للنار ، ويخرجونهم من الأقبية ، وأعماق الأرض ويجرونهم فى الساحات ، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين ، ودام الذبح فى المسلمين أسبوعا ، حتى قتلوا منهم على ما اتفق روايته مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة ، ولم ينج اليهود كالعرب من الذبح ، فوضع الصليبيون النار فى المذبح الذى لجأوا اليه ، وأهلكوهم كلهم بالنار .

وكان من عادة الصليبيين أن يقتلوا أهل كل بلد يدخلونه فى الشام ويخربوا عمرانه ويحرقوا كتبه ومتاعه وآثاره . فقد أحرقوا دار الحكمة فى طرابلس وكان فيها نحو مائة ألف مجلد . وخالف الصليبيون تعاليم المسيح فى الشفقة والاحسان (١) .

واعترف المؤرخ (جوستاف لوبون) (٢) بفظائع الصليبيين فى

---

(١) كرد على : الاسلام والحضارة العربية حـ ١ ص ٢٩٦ .
(٢) حضارة العرب ص ٣٢٧ .

القدس ، فقال : أراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبة ، فانهمكوا فى كل ما يستعذره الانسان من ضروب السكر والعربدة واغتاظ مؤرخو النصارى أنفسهم من سلوك حماة النصرانية مع اتصاف هؤلاء المؤرخين بروح الاغضاء والتساهل ، فنعتهم (برنارد الخازن) بالمجانين ، وشبههم (بودوان) الذى كان رئيس أساقفة (دول) بالفروس التى تتمرغ فى الأقذار ».

وهناك وثيقة تاريخية تصف فظائع الصليبيين فى القدس ، كتبها المؤرخ الراهبى روبرت وفيها يقول : « كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبؤات التى خطفت صغارها وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم اربا اربا ، وكانوا لا يستبقون انسانا ، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة ، فيا للعجب ويا للغرابة أن تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم ! وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية ، فيا للشره وحب الذهب ! وكانت الدماء تسيل كالأنهار فى طرق المدينة المغطاة بالجثث ، فيا لتلك الشعوب العمى المعدة للقتل ! ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية دينا ، ثم احضر (بوهيموند) جميع الذين اعتقلهم فى برج القصر ، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم وبسوق فتيانهم وكهولهم الى أنطاكية لكى يباعوا فيها » (١) .

تحدث المؤرخ (جوليفه كستللو) عن الحروب الصليبية فقال :كانت كنوز الشرق تغرى الحملات الصليبية أكثر مما تستهويهم أوهام الدين ، ولكم أن تشبهوا حملات النصارى على الشرق بحملات البرابرة المتوحشين ، وان كانت دعوة انقاذ القبر المقدس ، المشكوك فى أنه قبر المسيح ، قد اتخذها البابوات ثم الملوك ، حجة ليحمسوا الشعوب ويجندوا الناس . وكانت هذه الحملات شؤما على أوروبا ، استنزفت من

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٣٢٥ .

الممالك رجالها الأشداء الشجعان غير مرة ، وافتقرت بسببها فرنسا وانجلترا والمانيا فقرا دونه كل فقر ، لما قضت عليه هذه الحروب من مئات الألوف من الأيدى النافعة ، وعلى ما صرف عليها من النفقات الباهظة . وكان من طمع البابوات ما استغلوا به سذاجة الجماهير ، فكلفهم باهظ التكاليف . وتجلت فى ذلك شهواتهم المفرطة كى يحرزوا الثروة السهلة المأخوذة من غير حلها ، وتولت المحنة تكذيب أوهامهم ، فكان من ذلك أشد المصائب (١) .

صور من تسامح المسلمين مع الصليبيين :

اعترف المؤرخون الأوربيون المسيحيون جميعا بتسامح المسلمين ، وبعدهم تماما عن التعصب الأعمى الذى اتصف به الصليبيون . وضرب صلاح الدين الأيوبى أمثلة كثيرة يتضح فيها ما أمر به الاسلام من تسامح مع أهل الكتاب ، ومع الأعداء .

واذا كانت المصادر الأوروبية تصور صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ، ملك انجلترا فى صورة الندين المتعادلين اللذين وقف كل منهما للآخر دفاعا عن وجهة نظر معينة ، فاننا نلمس فارقا كبيرا بين الرجلين فى المثل والأخلاق . ان البطولة ليست مجرد الشجاعة فى القتال ، ولكن البطولة لها جانبها المعنوى الهام الذى يضفى على صاحبها هالة من الاعجاب والتقدير والمثالية . وبعبارة أخرى فان البطولة تتطلب قبل كل شىء مستوى معينا من الأخلاق ، وبخاصة فيما يتعلق بمعاملة الخصوم والأعداء .

وفى الوقت الذى نرى ريتشارد قلب الأسد يلجأ أكثر من مرة الى الغدر والمراوغة ونقض العهود ونكث الايمان والقسوة فى معاملة الأسرى من المسلمين ، اذا بصلاح الدين — على العكس — يحرص على معاملة الصليبيين معاملة كريمة ، فلا يكاد يستولى على مدينة حتى يطلق سراح من فيها من نساء الصليبيين ، ويسمح لهن بالخروج معززات مكرمات

---

(١) الاسلام والحضارة العربية حـ ١ ص ٣١٣ .

الى حيث يردن . من ذلك أن ريتشارد قلب الأسـد تعهد باطلاق سراح أسرى عكا من المسلمين وفقا للاتفـاقية المبرمة بين الطرفين سنة ١١٩١ ، ولكنه لم يكد يستولى على عكا ، حتى جمع من فيها من الأسرى ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم ، وقتلهم طعنا وضربا بالسيف (١) .

كان فى القـدس حينما استعادها صـلاح الدين (٥٨٣ هـ) من الصليبيين مائة ألف صليبى ، منهم ستون ألف راجل وفارس ، سوى من تبعهم من النساء والأطفال ، فأبقى صلاح الدين على حياتهم ، واستوصى بهم خيرا ، ونابذ فقهاءه فيما ارتأوه من معاملتهم بمثل ما عامل به أجداد الصليبيين جمهور المسلمين يوم فتحهم القدس ، واكتفى بأن ضرب فدية عادلة ، وعجز بعضهم عن دفع الفدية ، فأدى الملك العـادل أخو صلاح الدين فـدية عن ألفى صليبى ، وافتـدى به صـلاح الدين نفسه فأعفى كثيرين من الفـدية ، وأغضى عن جواهر الصليبيين وذهبهم وفضـتهم ، وعامل نساء الافرنج معاملة كريمة ، وسهل السبيل لخروج ملكتين بمـا معهما من جواهر وأموال وخدم ورخص للبطريرك الأكبر أن يسير آمنا بأموال البيع والجوامع التى كان غنمها الصليبيون فى فتوحهم . ولما قال المسلمون لصـلاح الدين ان هذا البطريرك يقوى بمـا أخذ على حرب المسلمين ثانية ، قال : لا أغدر به .

ولما عقد الصلح بين المسلمين والصليبيين دخل خلق عظيم من الافرنج الى القـدس فأكرمهم صلاح الدين وقدم لهم الأطعمة وباسطهم . فألقى صلاح الدين على الصليبيين درسا فى مكارم الأخلاق وسماحة الاسلام (٢)

واعترف المؤرخ (جوسـتاف لوبون) (٣) بتسامح صـلاح الدين وعدله وعطفه ، فقال : وتم طرد الصليبيين من القـدس على د السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل فى الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش فيبيد النصـارى على بكرة أبيهم ، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعا سلب شىء منهم .

(١) سعيد عاشور : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ٨٥ .
(٢) كرد على : الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٢٩٨ .
(٣) حضارة العرب ص ٣٢٩ .

وأشار المؤرخ (ايوركا) بما لقيه الصليبيون من حسن معاملة صلاح الدين لهم يوم فتحه القدس ، فقال : لقد أظهر الجند المسلمون الذين رافقوا المطرودين من أهل الصليب شفقة مؤثرة ، ولا سيما على النساء والأطفال . ولا يتأتى ايراد البرهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين ، حتى لقد هدد أصحاب السفن من رعايا الجمهوريات الايطالية ليركبوا هؤلاء البائسين من الصليبيين .

علم صلاح الدين بمرض خصمه ريتشارد قلب الأسد ، وبأنه فى حاجة الى بعض الفاكهة والثلج ، فبعث اليه صلاح الدين بحاجته ، وأرفقها بالدواء والشراب ، ولم يكد ريتشارد يشفى من مرضه حتى عاد مرة أخرى الى قتال صلاح الدين والمسلمين .

وروى القاضى بهاء الدين بن شداد — رفيق صلاح الدين وكاتب سيرته — قصة توضح رحمة صلاح الدين وتسامحه . فقد حدث خلال المعارك حول عكا سنة ١١٩١ أن غنم بعض المسلمين طفلا رضيعا عمره ثلاثة أشهر ، فخرجت أمه تشكو الى ملوك الصليبيين ، فقالوا لها : انه رأى صلاح الدين — رحيم القلب ، وقد أذنا لك فى الخروج ، فأخرجى واطلبيه منه ، فانه يرده عليك . وقصدت الأم صلاح الدين ، وروت له قصتها ، فرق لها ، ودمعت عينه ، وأمر باحضار الرضيع ، فوجدوه قد بيع فى السوق ، فارتده وأمر بدفع ثمنه الى المشترى ، وأعاد الطفل الى أمه ، وأمر صلاح الدين لها بفرس حملها الى بلدتها . ويعلق ابن شداد على هذه القصة فيقول : « فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشرية ، اللهم انك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك ياذا الجلال والاكرام » (١) .

وفى عصر العادل ، أخى صلاح الدين ، قدمت حملة صليبية عجيبة فى تكوينها ، فكانت تتألف من آلاف الأطفال جمعوهم من دول أوروبا تحقيقا لنبوءة ذاعت وتزعم أن استرداد بيت المقدس لايكون الا على

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٥١ .

أيدى صبيان أطهار أبرار حيث عجز الرجال . وانتهت هذه الحملة الصليبية الشاذة بالاخفاق الذريع ، ووقع هؤلاء الصبيان أسرى فى أيدى المسلمين ، وسمح المسلمون لهم بالاحتفاظ بدينهم وعاملوهم معاملة طيبة ، فقد ولى العادل بعض هؤلاء الصبيان فى الوظائف الحكومية .

اقبال بعض الصليبيين على اعتناق الاسلام :

اعترف جمهرة المؤرخين المعاصرين بحقيقة تاريخية هامة ، هى أن جموع الصليبيين الذين كانوا يفدون من الغرب يتصفون دائما بالخشونة والتعصب ، حتى اذا ما استقروا فى الشام وجاوروا المسلمين وعاشروهم ، أخذت طباعهم تعدل شيئا فشيئا (١) . وقد أشار أسامة بن منقذ الى هذه الحقيقة فقال : ان الصليبيين الذين عاشوا بالشام وجاوروا المسلمين تهذبت أخلاقهم وأنسوا بعشرة المسلمين » أما « من هو قريب العهد بالبلاد الفرنجية فهو أجفى أخلاقا .

وأقبل بعض الصليبيين بعد أن لمسوا أخلاق المسلمين وتسامحهم ، على اعتناق الاسلام ، فكتب المؤرخ (توماس أرنولد) (٢) تحت عنوان (حالات التحول الى الاسلام بين الصليبيين) : الى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التى وصفت بأنها قد دخلت فى نطاق تأثير الحكم الاسلامى عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والطوائف الخارجة عن الدين التى تفرعت عنها . ولكن بانتهاء القرن الحادى عشر الميلادى انضم الى أهالى الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية ، واستقروا فى مملكة بيت المقدس وسائر الولايات التى أسسها الصليبيون ، وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمان . وفى غضون تلك الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات الى الاسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء . ففى الحرب الصليبية الأولى مثلا ، انشق على الطائفة

---

(١) أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ٩٤ .
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ١٠٨ .

الرئيسية جماعة من الالمان واللومبارديين بزعامة فارس مشهور يدعى Bairaud وحاصرهم السلطان أرسلان السلجوقى فى احدى القلاع، وتظاهر هو وخاصة أتباعه بالقيام على محاصرتهم فى الخارج، فتركوا رفاقهم وانتقلوا الى الأتراك حيث اعتنقوا الاسلام بينهم .

وهناك وثيقة تاريخية كتبها (أودو الدويلى) أحد رهبان (القديس دينيس) الذى كان يشغل وظيفة قسيس خاص للملك لويس السابع ، والذى صحبه فى الحرب الصليبية الثانية ، وقارن فى هذه الوثيقة بين ما لقيه الصليبيون من المعاملة الرحيمة من المسلمين وبين ما عانوه من قسوة اخوانهم المسيحيين من الاغريق ، الذين فرضوا عليهم السخرة وضربوهم ، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل ، حتى ان كثيرا من الصليبيين قد دخلوا فى دين منقذيهم المسلمين بمحض ارادتهم . وجاء فى آخر هذه الوثيقة : « من المؤكد أنهم — أى المسلمين — لم يكرهوا أحدا من بينهم — أى الصليبيين — على نبذ دينه ، وانما اكتفوا بما قدموا لهم من خدمات » (١) .

أما سائر الصليبيين الذين لم يعتنقوا الاسلام ، فقد تأثروا بالأخلاق والطباع الاسلامية ، ونهلوا منها الكثير . فقد كان المسلمون مع الصليبيين أيام المهادنات والسلام على غاية التسامح وحسن المعاملة ، يضيفونهم ويكرمونهم ، ويعاملونهم أكرم معاملة يعامل بها الضيف والغريب مع أن الصليبيين باقرار مؤرخيهم كانوا مثال الخشونة فى الطباع . وأفضت معاملة المسلمين لأعدائهم ، الى أن قلد الصليبيون المسلمون فى لباسهم وعاداتهم ، ومنهم من تعلم اللغة العربية وأجادها ، وجروا على منوال المسلمين فى كثير م نشئون حياتهم .

ووضح المؤرخ (منرو) هذه الحقائق فقال : لم يقف تأثير احتكاك الصليبيين بالمسلمين عند حد الاعجاب بشجاعتهم ، بل تجاوزه الى ازالة تحاملات أخرى عليهم ، فقد امتزج الصليبيون فى الشام امتزاجا متصلا

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٩ .

بالشاميين نصاراهم ومسلميهم ، ولما كان عدد الصيلبيين ضئيلا ، اعتمدوا على السكان فى أعمال الزراعة والبنــاء . واذ كانوا يعيشون بالقرب من أشراف المسلمين ، كانوا يتبــادلون واياهم فروض المجــاملات ، ويبرمون معهم العهود ، وأسر المســلمون كثيرا من الافرنج وظلوا أمدا طويلا فى أسرهم ، فكانوا يعاملونهم معاملة حسنة ، ويمنحونهم قســطا وافرا من الحرية ، فعرف الصليبيون المسلمين عن كثب ، وقد نشــأت بين الأسر أحيانا علاقات ود بين الفريقين (١) .

وتحدث المؤرخ (توماس أرنولد) (٢) عن أثر الاسلام والمسلمين فى أفــكار الصليبيين وأخلاقهم ، فقــال : ان زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين ، وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديرا أخذ ينمو على مر الزمن ، ثم ماكان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين فى الأراضى المقدسة للشرقيين فى عاداتهم وأساليب حياتهم مما أثر فى الأفكار الدينيــة ، ومن أظهر ألوان هــذا التأثير ، ذلك المسلك السمح الذى سلــكه كثير من الفرســان المسيحيين نحو العقيدة الاســلامية . بل ان علماء اللاهوت المسيحى ، حين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطا شخصيا الى تكوين رأى أكثر انصــافا عن ديانة المسلمين ، وزعزع الارتبــاط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس ، وأثار ألوان الزندقة ، فليس بغريب أن ينجــذب كثيرون الى حظيرة الاســلام وكان عدد المرتدين عن المسيحية فى القرن الثانى عشر الميلادى كثيرا ، كثرة نلاحظها فى سجلات الصليبيين القــانونية التى يطلق عليها (مجالس قضاء بيت المقدس) .

ويبرز (أرنولد) أثر تسامح المسلمين عامة ، وتسامح صلاح الدين الأيوبى خاصة فى اقبال بعض الصليبيين على اعتناق الاســلام فيقول : ويظهر أن أخلاق صــلاح الدين وحياته التى انطوت على البطولة قــد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيرا سحريا خاصــا ، حتى أن نفرا من الفرســان المسيحيين قد بلغ من قوة انجــذابهم اليهم أنهم هجروا

---

(١) الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٢٩٦ .
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ١١٠ .

دياتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا الى المسلمين . وكذلك كانت الحال ، عندما طرح النصرانية ، مثلا ، فارس انجليزى من فرسان المعبد ، يدعى (روبرت أوف سانت ألبانس) فى سنة ١١٨٥ م ، واعتنق الاسلام ثم تزوج باحدى حفيدات صلاح الدين . وبعد هزيمة الصليبيين المنكرة فى واقعة حطين ، وقع ملك بيت المقدس (جوى) فى الأسر ، وهرب ستة من فرسان الملك الى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض ارادتهم . وكان (ريموند الثالث) كونت طرابلس الشام يريد حث أتباعه على ترك العقيدة المسيحية والتحول الى الاسلام ، ولكن موت هذا الكونت المفاجىء قد وقف فى سبيل تفنيذ هذه الخطة (١) .

وبلغ عدد من تحول من المسيحيين الى الاسلام ــ كما يقول أرنولد ــ خمسة وعشرين ألفا من المسيحيين فى مصر فقط . ويعلق أرنولد على ذلك بقوله : « ان دخول أى مسيحى فى الاسلام ، عن اقتناع صادق كان أمرا ممكنا » .

ورحب أهل الشام من المسيحيين بانتهاء الحروب الصليبية وعودة الحكم الاسلامى ، فيقول المؤرخ (أرنولد) : ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالى بلاد الشام قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين ، والحقيقة أن أهالى فلسطين من المسيحيين، لما وقع بيت المقدس فى أيدى المسلمين نهائيا (سنة ١٢٤٤ م) رحبوا بالسادة الجدد واطمأنوا اليهم ورضوا بحكمهم . كذلك دفع هذا الشعور نفسه ، شعور الاطمئنان الى الحياة الدينية فى ظل الحكم الاسلامى ، كثيرا من مسيحى آسيا الصغرى، فى ابان هذه الفترة ذاتها ، الى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة ، اذ خلصوهم من الحكومة البيزنطية البغيضة ، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده ، ولكن بسبب روح الاضطهاد التى ظهرت بها الكنيسة الاغريقية . وطالما دعا الأهلون الأتراك الى الاستيلاء على مدنهم فى آسيا الصغرى ، تخلصا من استبداد الدولة ، وكثيرا ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء الى الولايات التركية (٢) .

---

(١) الدعوة الى الاسلام ص ١١١ .
(٢) الدعوة الى الاسلام ص ١١٦ .

اقتباس الصليبيين الحضارة الاسلامية :

أثرت الحروب الصليبية فى القارة الأوروبية ، اذ أدت الى اضعاف النظام الاقطاعى ، وهو النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى أعطى المجتمع الأوروبى الغربى طابعه فى هذا العصر . ويبدو أثر الحروب الصليبية واضحا كذلك فى الميدان الاقتصادى ، اذ ساعدت تلك الحروب على أحدث تطور ملموس فى النظم المالية فى غرب أوروبا . هذا الى ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب على عصر الحروب الصليبية أدى الى تتائج خطيرة فى غرب أوروبا منهـا ازدياد نفوذ المدن وقوتها ، واتسـاع نطاق النشـاط المصرفى ، وتحسين طرق التجارة وانشـاء طرق جديدة ، ونشاط الطرق البحرية .

على أن أهم ما تأثر به الغرب الأوروبى فى عصر الحروب الصليبية كان فى ميدان الحضارة نتيجة للاتصال بالحضارة العربية الاسلامية .ذلك أن الحروب الصليبية أتاحت فرصا كثيرة للاتصال الحضارى بين الغرب الأوروبى والشرق العربى فى الوقت الذى كانت أوروبا تسبح فى دياجير الظلام . مما أدى الى انتقـال كثير من مظاهر الحضارة العربية الاسلامية الى غرب أوروبا عن طريق الصليبيين (١) .

أخذ الصليبيون عن المسلمين حياة الرفاهية ، وفارقوا عيش البداوة ، واشتد اقبالهم على الزراعة والتجارة ، وعرفوا أن فى بلاد الشرق الاسلامى صناعات أرقى من صناعاتهم ، وزراعات ناجحة ، وتجارات رابحة ، وأخلاقا سـمحة . وفى ذلك يقول المؤرخ (هرنشو) (٢) : خـرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فاذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . لقد بهت أشباه الهمج من مقـاتلة الصليبيين عندما رأوا المسلمين ، الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم ، على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحانا لاتصح معه المقارنة بينهما .

لم يسـتفد الشرق شـيئا من قـدوم الصليبيين ، بل اسـتفاد الصليبيون الكثير ، اذ نهلوا من منابع الحضارة الاسلامية التى لاتنضب ،

(١) أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٠٦ .
(٢) علم التاريخ لمصر نشو ترجمة عبد الحميد العبادى .

فقال (جوستاف لوبون) (١) : كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقا فى بحر من الهمجية . ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيد الشرق ، ولم ينتفع الشرق منهم بشىء من الحقيقة، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها فى قلوبهم الازدراء للغربيين على مر الأجيال .

قبل الحروب الصليبية كان لايعرف الشرق من الغربيين غير أفراد أذكياء رحلوا فى التجارة ، أو جاءوا فلسطين للزيارة . أما فى هذه الحروب فقد عرفوا الشرق الاسلامى ، فرأوا المسلمين فىعقر دارهم ، وحققوا أنهم ممتازون بصفات حربية وأدبية وعلمية واجتماعية ، رأوا أمة تحررت من قيود رجال الدين ، وأنها أمة من طراز آخر .

اقتبس الصليبيون كل ما وسعته قرائحهم وهضمته عقولهم من آثار خلد بها العرب حضارتهم ، وانتظمت معها شئونهم العمرانية والزراعية والعلمية والفنية والتشريعية . وبدأ المفكرون من رجال هذه الحملات الصليبية يعملون بعد عودتهم الى بلادهم على تقليد الدول الاسلامية فيما اقتبسوه كتشكيلات الدواوين والمجالس والمصالح التى يتكون منها جهاز الحكومة ، كما عملوا على تحسين أصول جباية الأموال والضرائب وتنظيم الميزانيات . كما اهتموا بتأسيس دور العلم .

كانت الحروب الصليبية وما أدت اليه من اطلاع الصليبيين على الحضارة الاسلامية ، هى الخطوة الأولى نحو عصر النهضة فى أوروبا ، فقال (لوبون) (٢) : ان تأثير الشرق فى تمدين الغرب كان عظيما جدا بفعل الحروب الصليبية ، وأن ذلك التأثير كان فى الفنون والصناعات والتجارة واضحا ،واذا ما نظرنا الى تقدم العلاقات التجارية العظيم باطراد بين الغرب والشرق والى ما نشأ عن تحالك الصليبيين والشرقيين من النمو فى الفنون والصناعة ، تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدوا النفوس الى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التى أخذت جامعات أوروبا تعول عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم .

---

(١) حضارة العرب ص ٣٣٤ .
(٢) حضارة العرب ص ٣٣٩ .

الفصل الثانى عشر

اليهود فى الدول الإسلامية

بين التسامح الاسلامى والتعصب اليهودى :

ينظر الاسلام الى الأديان الأخرى فى تسامح ، وقد جاء فى القرآن الكريم (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ودعا الاسلام الناس مع دعوته الى تكوين الأخوة الاسلامية الى اخوة انسانية عامة شاملة لا فرق معها بين الأمم والعناصر والعقائد والمذاهب .

وأين هذه التعاليم الانسانية النقية الصافية من التقاليد اليهودية التى تدعو الى الغرور العنصرى والاستعلاء الجنسى ، وما كان يدعو اليه اليهود من أنهم (شعب الله المختار) ، وأن الله اصطفاهم من بين الشعوب ليكونوا حملة الدين الحقيقى ، وأن الله اصطفى الشعب العبرى ليكون (شعبه) وأنه يقوم برعايته وارشاده والسهر على مصالحه بينما لم تحظ الشعوب الأخرى بشىء من هذا قط .

خلال فوضى الأديان ، قامت الديانة اليهودية التى ظهرت فى أطراف آسيا الغربية تحاول نشر نفوذها وتعاليمها فى الشرقين الأدنى والأوسط ، ولكنها أخفقت من أول الطريق ، لأن الاسرائيليين الذين قاموا يبشرون باليهودية كانوا عبارة عن جمهرة من البشر تعيش حياة البداوة والتأخر ، وليس لهم حضارة تطبع دعوتهم الدينية بطابع يجمع بين الدين والدنيا ، أو بين العبادة والعلم والشئون الروحانية ، ومتطلبات التمدن كالرفاهية والثروة والتنظيم والعمران ، وما الى ذلك من المرافق التى لابد منها لتدعيم بنيان الحياة الراقية المتكاملة . بينما انتشرت حضارات راقية

فى الهند والصين فضلا عن الحضارة الرومانية الأوروبية . ومن البديهى أن مطالبته من قوم متحضر بقبول دعوة دينية يدعو اليها جماعة تعيش فى عالم من الجهل والبداوة ، أمر مستحيل ، مهما كانت هذه الدعوة .

وأصبحت الديانة اليهودية دين (تشبيهى) أى أنه يعتبر التنزيه المطلق للوحدة الالهية تشبيهه ، وذلك فضلا عن بعض التخيلات الصوفية الغامضة والمبهمة . وانقسم اليهود الى شعبتين ، هما (الغاريزييون Ghariziste وهؤلاء يعتنقون المذهب الاسرائيلى القائم على الظواهر ، و (الكبااليون Kappaliste وهم طبقة المتصوفين من حاخاميين وسواهم ممن أدخلوا السحر والتنجيم وكل أسطورة غريبة على كتب العبادة التى وضعوا أركانها ، وهم يتنكرون لكل ما هو روحى ومعنوى فى الحياة ، ومذهبهم يجارى مبادىء الماويين والقوميين الأنانيين الأشداء ، ومعنى ذلك أن السعادة والمحبة والفضيلة والخير عند هذه الطغمة ليست الا عبارة عن مآخذ مادية .

ومن جملة معتقداتهم أن الله فضل بنى اسرائيل على كافة الخلق ، وهو سريع الغضب على من عصاه ، ينتقم منه حتى من ذريته بشدة وعدم تسامح . فلأجل هذا يخشاه الاسرائيليون ويتملقونه بشتى الترضيات الصوفية النفعية أى أنهم لا ينصرفون الى عبادته بايمان مجرد أو استسلام ودعة ولهذا نجد أن نوع العبادة لدى هذه الفرقة تشبيهية تتمشى على الوجهات التى تتشبه لهم بكونها الاصلح لمنافعهم فهى والحالة هذه عبادة استنتاجية مادية تتحرى وجود النفع للعبد وتفترض أن المعبود يتمشى مع أهواء المخلوقات ولا توحيد ولا تنزيه لألوهيته .

لم تكن اليهودية الا عبارة عن عقيدة دنيوية مادية لا تمت الى تعاليم موسى الا بصلة الاسم فقط ، فالأنانية وحب الشراء والتنجيم والسحر والاهتمام بالمادة واضفاء الغموض على يوم الحشر والدينونة تبعد بعد السماء عن الوصايا العشر التى أتى بها موسى (١) .

---

(١) المدور : الديانات والحضارات ص ٢٧ .

كانت اليهودية ديانة محلية قاصرة تحتاج الى تكملة ، والى امتداد ولذلك ظل اليهود زمنا طويلا ينتظرون نبيا جديدا الى أن بعث فيهم المسيح عليه السلام . ظهرت المسيحية فى بادىء الأمر فى البيئات الاسرائيلية ، ولكن التعاليم التى قامت بموجبها تدعو الناس الى اتباعها كانت تخالف التعاليم اليهودية المحرفة على خط مستقيم ، لأن القواعد الدينية عند اليهود ترتكز على المادة ، أما الديانة المسيحية فتنظر الى معنويات الحياة المتعلقة مثلا بالعبادة والزهد وفعل الخير نظرة احترام .

أما العقيدة فى الاسلام فجاءت تقريرا للحق المطلق فى أية صورة من الصور الكونية واعية تماما لحقيقة الانسان وطبيعته ، مقدرة ما فيه من قوة ومن ضعف ، وما فيه من عقل ومن وجدان ، فربطت بين سلوك الانسان وايمانه الصحيح برباط قوى متين ، وبذلك استوعب العقيدة الاسلامية الكمال المطلق بكل معنى من معانيه (١) .

احوال اليهود فى الدولتين الفارسية والرومانية :

مر بنا ما كانت عليه العلاقات بين اليهود والدولة الرومانية الشرقية وكيف قضى الرومان على اليهود فى السلم ودمروا معبدهم فى اورشليم سنة ٧٠م وكيف خرجوا مشردين الى جهات متفرقة ، وأنهم حين جلوا عن موطنهم فى فلسطين لم يهاجروا الى مكان واحد ، ولم يؤلفوا مجتمعا واحدا ، بل تفرقوا فى جميع أرجاء العالم المتحضر فى اوروبا وآسيا وافريقية ، ولكن اليهود فى تفرقهم فى هذه الأنحاء لم ينسوا أبدا أنهم يهود فلم يندمجوا فى الأقوام الذين عاشوا بينهم ، انما احتفظوا بعزلتهم وانفصال جماعتهم عن الأوطان التى استقبلتهم ، ولقد أخذ العالم بأسره عليهم هذه الطباع التى تتنافى مع المواطنة الحقة ، ومن ثم كانوا دائما موضع شك واضطهاد أينما ذهبوا بين الأ مم المختلفة أثناء العصور المتعاقبة ، وما أحسنت الظن بهم أمة من الأمم وأحسنت اليهم حقبة من الزمن الا وعادت تنوء من اساءتهم اليها كأقلية غريبة تحرص على غربتها وأنانيتها ولا تهتم بالمشاعر العامة لسائر المواطنين .

(١) العقاد : الله ص ١١٠ .

كانت أحوال اليهود فى عهد البابليين والأشوريين والفرس حسنة نسبيا بالمقارنة بحالتهم فى الدولة الرومانية فكانوا يشتغلون بالتجارة ويتولون المناصب الى أن استولى الاسكندر الأكبر على بابل سنة ٣٣١م فعامل اليهود بشدة لمقاومتهم له ، ولكنه سرعان ما تقرب اليهم فانضموا الى جيشه وكان اليهود أسرع الناس الى اعتناق النصرانية عند ظهورها ، وقد اضطهدهم أردشير مؤسس الدولة الساسانية وسمح للمجوس بتعذيبهم والتنكيل بهم ، ولكن سرعان ما استطاع اليهود ارضاء الأكاسرة فتحسنت حالتهم نوعا ما وعاد الاضطهاد فى عهد يزدجر الثانى وقباذ الأول الا أن انشغال الأكاسرة فى أواخر الدولة الساسانية فى لم شملهم شغلهم عن اضطهاد اليهود .

اليهود فى الدولة العربية الاسلامية :

كان اليهود الى جانب الطوائف غير الاسلامية يطلق عليهم اسم (أهل الذمة) ، والذمة فى اللغة العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الاسلام من غير المسلمين ، وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، فان تقاليد الاسلام كانت تقضى بأنه اذا أراد المسلمون غزو اقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الاسلام فمن استجاب منهم طبقت عليهم أحكام المسلمين ومن امتنع فرضت عليه الجزية كقوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون) ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى اتباع الملل المعترف بها ، وهى المسيحية واليهودية والمجوسية والصابئة والسامرية ، والفرقة الأخيرة ، أى السامرية ، من فرق اليهود ، تنقسم الى عدة طوائف كالربانيين والقرائيين ممن ينكرون مع السامريين أن يكونوا يهودا لاختلاف التوراة التى بيدهم عما فى يد الطوائف الأخرى .

تحدث المؤرخ (ترتون) (١. عن اليهود فى الدولة العربية الاسلامية فقال : أما اليهود فمن العجيب أن المؤلفين المسلمين قلما يشيرون اليهم ، وقلما يرد ذكرهم فى كتب الفقه التى تقصر كلامها فى الغالب على النصارى فلا جرم اذا تبادر الى الذهن أنهم فئة ضئيلة مستضعفة ليست بذات خطر . بيد أن واقع الحال لا يؤيد هذا الفهم وليس له من سند يزكيه ، والدليل على ذلك ما أورده (بنيامين التطيبى) من كثرة مصادقته اياهم أنى ذهب ، واشارته الى أن لهم فى بعض الأحايين جاليات كبيرة العدد فكانت لهم فى الاسكندرية ابان الفتح الاسلامى جالية يتراوح عددها بين أربعين وسبعين ألفا بل الثابت أنه ورد فى نصوص الهدنة بين العرب والبيزنطيين نص خاص باليهود يأذن لهم بالاقامة فى الاسكندرية أما فى فارس فكان اليهود أقل بكثير من النصارى .

تمتع اليهود فى الدولة العربية الاسلامية بقسط وافر من الحرية مقابل أداء الجزية والخراج ، وارتبطت بالفعل قضاياهم فى الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين ما دامت لا تمس المسلمين ، أما الشريعة المحمدية فلم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم ، وكان رأس الجالوت يدير شئون اليهود وكان يحكم هذه الطائفة وفقا للعادات الخاصة القديمة (٢) . وكان البستانى هو أول رأس جالوت تولى شئون اليهود فى العهد الاسلامى وهو الذى أعاد مجد رياسة الجالوت بعد زواله وبقى هذا المنصب فى أعقابه يتوارثه الخلف عن السلف عهدا طويلا ، وقام البستانى هذا بخدمات جليلة للمسلمين مما كان موضع تقدير عمر بن الخطاب ورضائه فأوصى بحسن معاملة اليهود (٣) .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم متسامحا كل التسامح مع اليهود ، ولنضرب مثلا واحدا من أمثلة عديدة لتسامحه : كان من بين الغنائم التى غنمها المسلمون فى موقعة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما

(١) أهل الذمة فى الاسلام ص ٩٧ .
(٢) ديمومبين : النظم الاسلامية ص ١٦٦ .
(٣) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠١ .

جاء اليهود يطلبونها أمر الرسـول بتسليمها لهم ، فأخذ اليهود يشيرون الى الرسول بالبنان معترفين بفضله ، وعلق ، (اسرائيل ولفنسون . فى كتابه : تاريخ اليهود فى بلاد العرب) عـلى هذا الحادث فقـال : لم يتعرض النبى لصحف اليهود المقدسة ، بينما أحـرق الرومان بعد فتحهم أورشليم سنة ٧٠م الكتب المقدسة وداسوها بالاقدام وأحرق الاسـبان المتعصبون صحف التوراة ، فهناك بون شاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسـول الاسـلام .

ولو لم ينشط اليهود فى الحجاز فى النيل من المسلمين ، لما امتدت اليهم يد مسلم بأذى ، ولكان حظهم من ذمة العرب حظ سكان نجران من نصارى اليمن ، فقد صالحهم الرسول سنة ١٠هـ على الفىء .

تمتع أهل الذمة ، يهود ونصارى بالحرية الدينية فى ظـل الحكم العربى الاسـلامى العادل فقد تركهم العرب المسلمون يدينون بما رضوا لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجـزية للحكومة . ففى فارس ، عامل العرب من ظل من الفرس على مذهبه القـديم معاملة حسنة ولم يتعرضوا لأماكن عبادتهم ، وفى بلاد الشام ومصر ، خير العرب أهـل الذمة بين الاسلام والبقاء على دينهم ، فمن أسلم منهم تمتع بما يتمتع به المسلمون ومن بقى على دينه فرضت عليه الجزية مقابل حمايته وتأمينه على نفسه وعلى أمواله وأولاده . كما أحسن العرب معاملة أهـل الذمة فى بلاد الأندلس ، فسمحوا لليهود الذين ذاقوا كثيرا من ألـوان العسف والاضطهاد فى عهد القـوط بمزاولة التجـارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم ، وأموالهم ، وأحسنوا معـاملة المسيحيين الذين ظلوا على دينهم .

وأشاد (ترتون) بتسامح المسلمين مع اليهود ، فقال : وتدلنا القصة التالية على عدم ازدراء المسلمين للذميين ، وذلك أن يعقوب بن اسحق الكندى لم تمنعه يهوديته من أن يكون أبرز فلاسـفة عصره ، وطبيب دهره ، وأدنى الناس منزلة الى المأمون . وحدث أن جـاء ذات يوم الى حضرته وجلس مجلسا فوق أحد كبار المسلمين الذى قال له : لم تجلس

وأنت اليهودى فوق ما يجلس علماء الملة ؟ فأجابه يعقوب : لأننى أعرف ما تعرف ولكنك لا تعرف ما أعرف .

اليهود فى المجتمع الاسلامى :

عاش اليهود بين أفراد المجتمع الاسلامى فى أمان واطمئنان ، واحترفوا عددا كبيرا من الحرف ، وتولوا كثيرا من الوظائف الهامة . كما اشتغل كثيرون من اليهود بفلاحة الأرض ، فقد ترك عمر بن الخطاب أرضهم لهم مقابل دفعهم الخراج فضلا عن الجزية . ومنذ هاجر اليهود من جنوب الجزيرة العربية نزلوا فى الكوفة واشتغل بعضهم بالزراعة واشتغل البعض الآخر فى سائر الحرف . وقد امتنع يهود الحيرة ، وهى على أطراف العراق ، من أن ينتقلوا الى الكوفة عند انشائها ، حتى وجدوا من سبقهم فى الهجرة قد حازوا الثراء ، فأسرعوا يهاجرون اليها سنة ٢٠هـ (١) .

واحترف عدد كبير من اليهود الصباغة ونسج الحرير وصناعة الزجاج وادارة السفن (٢) ، وكان الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة من اليهود أسرع الناس الى الاسلام ، فقد اعتنقه عدد عظيم فى حماسة كبيرة . (٣) كما عمل اليهود بالتجارة ، واشتغلوا بالصناعة ، واحترفوا الطب ، فقد كان للحجاج بن يوسف الثقفى ، مثلا ، طبيبان يهوديان . (٤) واشتغل اليهود بشتى أنواع التجارة ، كما اتصلوا بالملوك لاشتغالهم بصنع المجوهرات وبيعها .

وكان يهود بيت المقدس يحتكرون تجارة الأصباغ فى المدينة ، فقد استأجروا معملا من الملك عمورى الأول ، وانحصرت هذه المهنة فيهم وأقاموا فى حى مجاور لبرج داود ، كما احتكروا فى الأندلس حرفة خصى الرقيق الصقالبة (٥) .

---

(١) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠٣ .
(٢) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٠٥ .
(٣) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢ .
(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٤ .
(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٥ .

وان التجار اليهود الأوروبيين معروفين تماما فى البلاد الاسلامية ، وكانوا يتحدثون باللغات العربية الفارسية واليونانية والفرنسية والاسبانية والروسية ، ويتنقلوان من المشرق الى المغرب ، ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، فتراهم يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج والجلود والخز والفراء والسيوف ويبدءون سفرهم عادة من بلاد الفرنجة ، وميمموان شطر الفرما ، ثم يسافرون برا حاملين تجارتهم على ظهور الابل الى القلزم ، ثم الى جدة ، فالهند فالصين ، ومن هناك يحملون المسك والعود الدرصيني والكافور ، وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى من فرنسا الى أنطاكية ، ثم يسافرون برا الى الفرات وبغداد، ثم يرحلون فى نهر دجلة الى الأبلة وعمان والهند والصين (١) .

كان يتولى شئون اليهود رئيس دينى يسمى (رأس الجالوت) ، ونستطيع بدراسة تاريخ أحد هؤلاء الرؤساء معرفة نفوذ صاحب هذه الوظيفة .

اليهود فى العصر العباسى :

تحدث المؤرخ العربى المسيحى المعاصر الدكتور متى عن اليهود فى العصر العباسى ، فقال ان اليهود كانوا يعيشون حياة تسامح واطمئنان فى أرجاء الدولة العباسية . وذكر (المقدسى) أن معظم الصيارفة وأصحاب المصارف فى الشام كانوا من اليهود ، وولى الخليفة المعتضد كثيرا من اليهود المناصب الكبرى وكان لليهود فى بغداد مستعمرة كبيرة ظلت قائمة حتى سقطت المدينة فى أيدى المغول . وقد وجد (بنيامين التطيلى) الذى زار المستعمرة سنة ١١٧٠م أن بها عشر مدارس ربانية وثلاثة وعشرين كنيسا (معبدا) لليهود ، وكان المعبد الرئيسى مبنيا بالرخام المختلف الألوان ومزدانا بزينة غالية من الذهب والفضة .

أدى انتشار اللغة العربية بين اليهود الى ترجمة التوراة الى اللغة العربية ، ففى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد قام أحمد بن عبد الله

---

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٣ .

ابن سلام بترجمة التوراة الى العربية ، كما اهتم الخليفة العباسى المتوكل بترجمة التوراة مرة أخرى الى اللغة العربية ، وكان هـذا الخليفة معروفا بالتسـامح ، وكثيرا ما عقد المجـالس التى تدور فيها بعض المناقشـات والأبحـاث الدينية وتتنـاول الأديان الثـلاثة ، وأتاحت هذه الترجمة للمسلمين والمسيحيين فرصة الاطلاع على التوراة .

فى العصر العباسى ، كان يتولى شـئون اليهود رئيس يدعى (عين الجالوت) ، ومن أشهر من تولوا هذه المناصب (دانيال بن حسدان) ، وكان يشغل أيضا وظيفة قاضى اليهود عامة، ويسميه المسلمون (سيدنا ابن داود) ويسميه اليهود (سيدنا رأس الجالوت) ، وهو يسيطر على جميع اليهود فى البلاد الخاضعة للخليفة ، وكان الجميع يحترمونه ، فكان المسلمون واليهود على السـواء يقفون اجلالا له اذا كانوا بحضرته ومن لم يقف له ضرب مائة سوط ، وكان يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس ، واذ ذاك يصيح أمامه الفرسـان من اليهـود والمسـلمين أفسحوا الطريق لسيدنا ابن داود ، وكان دخله من الضرائب المفروضـة على اليهود مائتى ألف دينار (١) .

وكان يطلق أحيانا على (رئيس الجالوت) لقب (ملك) ويدفع له أهل ملته الضرائب فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر الى بيت المـال ، بينما كان المسلمون والمسيحيون يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة وامتد نفوذ (رئيس الجالوت) فى بغداد على اليهود المقيمين فى البلاد الواقعة فى شرقى الفرات ، وبلغ عدد يهود بلاد العراق وحدها ستمائة الف .

وأمدنا المؤرخ (آدم متز) (٢) باحصائية عن عدد اليهود فى الأقطار الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، فذكر أنه كان فى دمشق ثلاثة آلاف يهودى ، وكان فى جزيرة ابن عمر أربعـة آلاف يهودى ، وفى الموصل سبعة آلاف ، وفى مدينة (حربة) بأقصى الشمال فى العراق خمسة عشر

---

(١) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١١٣ .
(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى حـ ١ ص ٦٤-٦٥ .

ألفـا ، وفى عكبرى وواسط عشرة آلاف . وكان المدن التى بهـا يهود كثيرون على الفرات هى مدينة الحلة وكان بهـا عشرة آلاف ، والكوفة وبها سبعة آلاف ، والبصرة وبها ألفـان . وعاش فى همذان ثلاثون ألف يهودى ، وفى أصفهان خمسة عشر ألفا ، وبشيراز عشرة آلاف ، وبسمرقند ثلاثون ألفا .

ويقارن (آدم متز) (١) بين تسامح المسلمين ، الذى بدا فى صورة سـماح المسلمين لهذه الأعداد الـكبيرة من اليهود لتعيش فى المجتمع الاسلامى فى حرية تامة ، وبين تعصب الصليبيين الذين غزوا بلاد الشام، فقال : « ان السياسة التى جرى عليها قواد الصليبيين فى الشام فى القرن الرابع الهجرى ازاء اليهود كادت تفنى الطائفة الاسرائيلية ، ويقدر بنيامين عدد سكان الحى الخاص باليهود فى القدس بأربعة أنفس ، ولم يكن فى صور الا تسعة من شبان اليهود » .

اليهود فى بلاد الأندلس الاسلامية :

تمتع اليهود فى الأندلس الاسلامية بكثير من مظاهر التسامح الدينى الذين لم يظفروا به تحت حكم القوط ، فقد أسند اليهم كثير من مناصب الدولة . وأصبحت بعض الحرف وخاصـة الطب مقصورا عليهم ، وغدوا عنصرا هاما فى الادارة والتجارة والثقافة، وأضحت قرطبة مركز الدراسات العبرية كمـا أصبح كثير من اليهود يتحدثون باللغـة العربية الصحيحة ويكتبون بها .

وكان لليهود كما كان للمسيحيين ، نظام ادارى خاص بهم ، وقـد ذكر الادريسى فى كتـابه (ضـعة المغـرب وأرض السـودان ومصر والأندلس) أنه كان لليهـود مدينـة على بعد أربعين ميلا جنوبى قرطبة وأنهم كانوا « يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيها مسلم البتـة ، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين » .

وليس أدل على ما بلغه اليهود فى عهد الأمويين بالأندلس من نفوذ ،

---

(١) المصدر السابق حـ ١ ص ٦٤ .

من اختيار (حسداى بين شيروط اليهودى لاستقبال سفراء الدول الذين كانوا يفدون على البلاط الأموى . وقد قام حسداى بدور هام فى البعثة التى أوفدها قسطنطين الثانى امبراطور الدولة البيزنطية الى عبد الرحمن الناصر . وفى البعثة التى أوفدها امبراطور المانيا ، كما أسند اليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار .

اليهود فى مصر الاسلامية :

كان اليهود فى مصر أقل عددا من المسلمين والمسيحيين . ويذكر بنيامين التطيلى أنه كان لليهود زمن الفتح الاسلامى لمصر جاليات كبيرة العدد ، فكان لهم فى الاسكندرية جالية يتراوح عددها بين أربعين ألفا وسبعين ألفا ، بل الثابت أنه ورد فى نصوص الهدنة بين العرب والبيزنطيين نص خاص باليهود يأذن لهم بالاقامة فى الاسكندرية . وقد أقبل اليهود على اللغة العربية والتزود بالحضارة العربية التى كانت أرقى كثيرا من حضارتهم التى كانوا عليها وقت الفتح العربى .

لقى أهل الذمة فى مصر ، يهودا أو نصارى ، معاملة طيبة متسامحة ، لا يمكن أن تقارن بما كان يعاملهم به الأباطرة الرومان المسيحيون . وتعدد المصادر التاريخية ألوان الاضطهاد الذى شهده اليهود والنصارى فى عهد الامبراطور هرقل ، اذ كان المصريون يخالفون فى مذهبهم مذهب البيزنطيين . كما تذكر هذه المصادر ما ألحقه كاثوليك أسبانيا بالبروستانت والمسلمين واليهود على السواء ، ولا تزال ذكرى محاكم التفتيش فى أسبانيا باقية ما بقى التاريخ .

لم يتدخل المسلمون فى شئون اليهود ، وأطلقوا لهم حرية ممارسة عقائدهم الدينية ، كما لم يتدخلوا فى أحوالهم المدنية ، وسمح المسلمون لليهود ببناء المعابد ، وبالاحتفال بأعيادهم الدينية ، بل كانوا يشاركونهم احتفالاتهم . وكان هذا التسامح دافعا لأهل الذمة فى مصر على اعتناق الاسلام واتقان اللغة العربية ، والاندماج فى المجتمع العربى الاسلامى ،

ووصل كثير من أهل الذمة الى المناصب الكبرى فى الدولة ، واشتغلوا بجميع الحرف البارزة ، واقتنوا ثروات كبيرة ، وعاش الذمى والمسلم فى المجتمع جنبا الى جنب فى سلام وأمان .

أدى تعريب الدواوين الى انتشار اللغة العربية ، فبدأ أهل الذمة يهودا ونصارى ، يتخلون عن لغاتهم القديمة ، ويتعلمون اللغة العربية ، وأصبح المسلم والمسيحى واليهودى يتحدثون بلسـان واحد ، مما أدى الى اذابة الفروق الاجتماعيـة وايجاد نوع من الوحدة الاجتماعيـة ، والتقارب الفكرى ، فاللغة ليست حروفا جامدة ، بل هى مظهر من مظاهر وحدة الثقافة والمشاعر .

فى العصر الطولونى ، أقبل بعض اليهود على اعتناق الاسلام ، فقد شهد هذا العصر تحولا كبيرا من أهل الذمة الى العقيدة الاسلامية ، وأثر هـذا التحول فى الحيـاة الاجتماعية فى مصر ، وترك آثاره المختلفـة فى العادات والتقاليد والأعيـاد والأزياء . وبدأت الجزية تختفى كبـاب من أبواب الايرادات ، وأخذ المسيحيون واليهود على السواء يشاركون فى الحياة الاجتماعية والثقافة العربية .

لم يرتفع صوت واحد من أصوات أهل الذمة بالاحتجـاج طوال العصر الطولونى ، ولم يهتم الطولونيون بالجزية ، وانصرفوا الى الخراج ومضاعفته ، باعتبار أن مصر بلد زراعية ، كما عملوا على تنمية الزراعة ونهضتها . وتولى كثير من أهل الذمة الوظائف المالية الكبرى فى مصر .

وفى العصر الاخشـيدى ، عاش اليهود فى تسـامح تام ، واشتغلوا بالحرف والصناعات التى كانت تدر عليهم أرباحا طائلة ، وبرز منهم كثير من الصياغ والأطباء والصيارفة ، وكان لليهود محاكمهم الخاصـة وان كان يمكنهم الاحتكام الى قضاة المسلمين . ولم يهتم الاخشيديون بتطبيق النظم الخاصة بالازياء والركوب ، وولوا اليهود بعض الوظائف المالية .

وفى العصر الفاطمى ، نعم اليهود والمسيحيون على السواء ، بفترة هدوء ورخاء وتسـامح ، بل عومل أهل الذمة فى عهود بعض الخلفـاء

الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحاباة ، وتقلدوا أرقى المناصب وأعلاها ، وبخاصة فى عهدى الخليفتين العزيز بالله والمستنصر ، وبعض الخلفاء الآخرين ، فقد تولوا المناصب المالية فى الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضا، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الدينى وهو أمر نستطيع تبينه من بناء عدد من الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية .

كان يتولى شئون اليهود فى القاهرة رئيس دينى يسمى (سر هساديم) أى أمير الأمراء ، وكان يعين أحبار اليهود فى الشام ومصر ، أى فى حدود الدولة الفاطمية . وذكر (بنيامين) أن عدد اليهود فى القاهرة كان سبعة آلاف ، وفى الاسكندرية ثلاثة آلاف ، وبمدن الدلتا نحو ثلاثة آلاف ، وفى الصعيد ستمائة يهودى (١) .

استعان المعز لدين الله الفاطمى بكثير من الأطباء اليهود ، وما لبث أن عظم نفوذهم فى بلاطه ، ومن أشهر رجال المعز (يعقوب بن كلس) وكان يهوديا واعتنق الاسلام ، وولى كثيرا من اليهود فى المناصب الكبرى، ووصل يعقوب الى الوزارة فى عهد الخليفة العزيز بالله الذى اشتهر بالتسامح مع اليهود والنصارى على السواء ، فقد كان متزوجا من مسيحية وولى العزيز على حكم الشام واليا يهوديا هو منشا بن ابراهيم الفرار . أما الخليفة الحاكم بأمر الله ، فقد تخللت فترات حكمه فترة نعم فيها اليهود بالتسامح ، فقد سمح لهم بتجديد معابدهم ، وأصدر عهدا لهم يؤمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم وأملاكهم (٢) . وسمح الخليفة الظاهر لليهود بالاحتفال بأعيادهم ولم يطبق قيود الملابس . وتولى الوزارة بالقاهرة منذ عام ٤٣٦ هـ الى ٤٣٩ هـ أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى، وكان يهوديا ثم اعتنق الاسلام ، وكان يدير الدولة معه أبوسعد التسترى اليهودى (٣) .

واشتهر صلاح الدين الأيوبى بالتسامح والرحمة ، ويذكر المؤرخون أن طبيبه الخاص (الميمونى) قد توسط لديه ليسمح لليهود بالعودة الى

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى حـ ١ ص ٦٦ .
(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ٢٣٢ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة حـ ٢ ص ١١٧ .

بلادهم ، فتدفق سيل المهاجرين من بلدان غرب أوروبا الى فلسطين طوائف عدة تختلف فيما بينهـا بجنسيتها التى انتمت اليهـا فى الأصل . وكان اليهود قد نزل بهم ألوان كثيرة من الاضـطهاد والافناء خـلال الحروب الصليبية فى بلاد الشام .

مقارنة بين يهود مصر ويهود اوروبا :

عاش اليهود فى مصر فى تسامح وتساهل عظيمين ، ولنذكر أحوال اليهود فى الدول الأوروبية فى العصور الوسطى لنستطيع أن نوازن بين معاملة الأوروبيين لليهود ومعاملة العرب لهم ، وكان اليهود يعيشون فى أرجاء الدولة الرومانية بين قوم يخالفونهم فى الدين ، وكانوا يعيشون فى عزلة عنهم باختيـارهم وأقاموا فى أرجاء الدولة مراكز متفـرقة للمعاملات التجارية وشئون الصيرفة ومبادلة السلع والنقود ، ولكنها متفقة فيمـا بينها على قصـد وعلى غير قصد لانعزالها فى كل بقعـة على حدة ، فاذا سافر اليهودى من الاسكندرية الى روما علم قبـل سفره أن هنـاك بيئة مماثلة لبيئته يذهب اليها ليستعين بها على عمله ويشترك معها فى استغلال من حوله ، وكان هذا الاسـتغلال بطبيعته سببا لنقمة الفقراء والأغنياء فى وقت واحد ، فكان اليهود عرضة لغضب المعوزين ، كما كانوا عرضـة لغضب المدينين وأصـحاب المحصولات الزراعية من الضياع الواسـعة وبخاصـة فى ابان الأزمات والحروب الخارجية والأهليـة ، وقد كانت تتعاقب بكثرة قبل انهيار الدولة الرومانية .

وكلما كثرت الحروب وضـح لأبناء الأمم المختلفة أن هذا الشعب المسمى (اليهود) متفق متفاهم على ابتزازهم واستباحة أموالهم وأرزاقهم لأنه يعتزلهم كافة بمجتمعـه فى كل بقعة ، ثم يرتبط بالمعـاملة بينه وبين أبنائه فى المعسكرات المعادية ، ولا ينظر اليهودى الى زميله نظرة العـداء والمقاطعة ، وان قطعت الحروب والفتن بين البلدين (١) .

كانت أخلاق اليهود المعروفة لاتسـمح لهم بالاقامة المسـتقرة فى

---

(١) العقاد : الصهيونية العالمية ص ١٩ .

العصور الوسطى ، اذ اضطرتهم الامارات المسيحية الى الجلاء القهرى والهجرة القسرية ، فاتجهوا صوب الشمال الشرقى فى أوروبا الى المانيا الشرقية وبوهيميا وخاصة بولندا ، كما أن اليهود الانجليز قضى عليهم جميعا فى سنة ١٢٩٠ بالنفى ، وتبعت انجلترا فى ذلك فرنسا ومدن أوروبا الوسطى ودولها ، وبلغ ذلك الاجراء منتهاه أثناء نفيهم المروع من أسبانيا والبرتغال فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر ولم ينجح من هذه المعاملة الجماعية سوى الجماعات اليهودية الصغيرة فى ايطاليا .

يرجع السبب فى هذا الاخراج الجماعى لليهود ، من الأوطان المسيحية التى استوطنوها الى الاحساس بالخطر من اليهود المقيمين باعتبارهم أجانب لا مواطنين لأن الأقليات السورية واليونانية وغيرها التى هاجرت مع اليهود الى دول أوروبا قد اندمجت فى شعوبها قبل القرن الحادى عشر ، ولكن الأقلية اليهودية عاشت فى أحياء خاصة بهم ثم أرغمت بعد ذلك على الاقامة بها تجنبا لشرها ولاختلافها عن الباقين .

رأى المسيحى نتيجة تجربته أن اليهودى معول من المعاول الهدامة فى بنيان المجتمع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وذهب به الخوف منه الى أن يتصور عنه أبشع التصورات العدائية للدين المسيحى ومعتنقيه . ولم يكن أفعل فى ذهن المسيحى وخياله من أن يرى ببصره بيوت المسيحيين تنهار دعائمها وتتقوض جدرانها من أثر الربا الفاحش الذى ارتبط باسم اليهود ، بل أصبح عنوانا له ، فالدين المسيحى لم يعد له كيان اقتصادى أمام مغالاة المرابين اليهود فى فرض النسب الخيالية للفائدة على قروضهم .

نشبت العصبية بين اليهودية والمسيحية ، وترجع جذورها الى مهد المسيحية ، وما صادفته من غدر اليهود ، وتبادل الطرفان التهم وأعمال الانتقام ، ووجد الناس فى الكنيسة المسيحية معبرا عما تنطوى عليه نفوسهم من مقت ، فالكنيسة صورت اليهودية تصويرا كريها .

وعبر(بارلس) عن هذا الشعور فقال : لقد كان معتقدا أن اليهودى يطلب دم المسيحى لأغراض الطقوس الدينية ، وأنه يسرق الأطفال

المسيحيين ، وكان معتقدا أنه يسمم الآبار وينشر الأمراض ولقد كان فى ذاكرة عامة أوروبا أن اليهود يمتصون مجهود البلاد الاقتصادى ويمثلون الطرف الخبيث الخطر الذى يسعى أبد الدهر لتحطيم المسيحية .

ووصف (سنيكا) موقف اليهود من سكان العالم فقال : ان عادات هذه الأمة ينتشر أثرها بسرعة حتى أصبح لها مناصرون فى كل بلد . ولم يتخلف نفوذ اليهود بعد اعتناق الامبراطورية الرومانية المسيحية عما كان عليه فى عهدها الوثنى ، وانما ازداد نتيجة تركزهم فى المهن التجارية والمالية . ثم جاءت الفتوحات الاسلامية فى الشواطىء الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط ، فاحتكر اليهود التجارة فى أسواق افريقية والشام . وبما جنوا من ثروة فى العالم المسيحى والاسلامى ، وما برعوا فيه من تخصص فى شئون المال والتجارة ، هاجروا مختارين الى المدن التجارية الجديدة التى أنشئت فى شمال أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كما هاجروا من قبل الى المدن التجارية فى الامبراطورية الرومانية.

الفصل الثالث عشر

اليهود في فلسطين في العصر الإسلامي

فلسطين العربية الاسلامية :

كان اسم فلسطين لا يطلق على القطر المعروف بهذا الاسم الآن بل كان قاصرا على شعب قديم ولم يطلق على هذا القطر الا قبل نصف قرن اذ كان القطر المعروف الآن بهذا الاسم يؤلف قسما من الامبراطورية العثمانية التى قسمت الوطن العربى الى ولايات ومتصرفيات دون أن يكون بينها اسم ولاية فلسطين بل كانت هناك متصرفية القدس وهى تابعة لولاية دمشق ، فلما وقعت الحرب العالمية الأولى وتقرر فى نهايتها وضع الأقطار العربية تحت الانتداب البريطانى واستولت بريطانيا على القسم الجنوبى من سوريا وأطلقت على نصفه الغربى اسم فلسطين وعلى نصفه الشرقى اسم شرق الأردن ..

أما معنى كلمة فلسطين فانها محرفة من اسم شعب كان يقيم فى تلك البقعة قبل أربعة آلاف سنة وأن هذه القبائل كانت تغزو سوريا والعراق ومصر وتستقر فيها وأن معظم الشعوب والدول التى ظهرت فى الأقطار المذكورة كانت نتيجة هذه الغزوات العربية وأن الكنعانيين والفينيقيين والبابليين والكلدانيين والحيثيين والآراميين والأشوريين والهكسوس وغيرهم كانوا جميعا من القبائل العربية العاربة أو التى استقرت مع مرور الزمن ولا شك أيضا فى أن مما عدا تدمر وغسان ولخم والأنباط ومؤاب وأدوم وغيرها كانت الأخرى عربية .

وكان شعب فلسطين يقيم فى جنوب البلاد وكانت له مدنية وحضارة امتدت حتى كريت وليبيا وآسيا الصغرى واليونان وقبل أن تقوم سفن الفينيقيين بجوب البحار كانت سفن الفلسطينيين تمخر عباب البحار الى

المناطق الواقعة فى الحوض الشرقى من البحر الأبيض التوسط وكانت أشهر مدن الفلسطينيين يافا وغزة ومجدل وعسقلان وبيت داجون وبيت جبرين وغيرها وكان هذا الشعب يعبد الاله داجون وقد رسموه على شكل سمكة كبيرة مما يدل على أن هذا الشعب كان يميل الى أعمال البحر وكان هذا الشعب يعيش عيشة القبائل العربية ولكل قبيلة ملك وكانت أسماء هؤلاء الملوك تدل دلالة واضحة على أنهم عرب .

وقبل أن يأتى الفلسطينيون ويستقرون فى الرقعة الجنوبية من أرض فلسطين كانت هناك قبائل عربية أخرى قد استقرت فى البلاد وأقامت فيها ، ومنها العمالقة الذين كانوا يستوطنون أطراف سيناء الى بير سبع والخليل . والبابوسيون الذين كانوا يستوطنون القدس وما حولها والكنعانيون الذين كانوا يستولون على جبال السامرة والكرمل الى لبنا ن، كما كانت هناك قبائل أخرى مستقرة فى البلاد .

من العسير الفصل بين تاريخ فلسطين ، وتاريخ سوريا ، وتاريخ مصر عبر القرون الطويلة الا فى بعض الأزمنة والعصور القصيرة التى خضعت فيها أقسام من سوريا لغزوات جاءت عليها أحيانا من بابل أو مقدونيا ، أو روما أو فارس ، وكثيرا ما اشتركت سوريا كلها فى الدفاع عن وحدتها أمام غزوات الفاتحين ومطامع الطامعين « وكثيرا ما خاض أبناء سوريا المعارك جنبا الى جنب مع اخوانهم سكان الجنوب فى رد العدوان الأجنبى.

وهكذا رأينا فلسطين قطرا عربيا أصيلا ، لا تشوب عروبته شائبة ما تضعف من شأنها فيه ، حيث كان مهجرا من مهاجر الموجات العربية قبل الاسلام ، ثم خلدت عروبته بالموجة الاسلامية الكبرى التى جرت بينها وبين الرومان فيه معارك طاحنة أستشهد فيها الألوف من مجاهدى الفتح الأول ، ودفن فى تربته فيمن دفن أبو عبيدة القائد العام لجيوش الفتح الاسلامى وشرحبيل وعكرمة وغيرهما من كبار القواد والصحابة ، وخلدت صلة قدسية بالاسلام فى القرآن وبما كان من الاسراء النبوى اليه.

رحب سكان الشام العرب بالجيوش العربية الاسلامية ، فقد كانوا على أستعداد للاستظلال بظل الراية العربية التى وحدت بينهم دون أن

ترغم أحدا منهم على اعتناق الدين الاسلامى ، وكان معظم هؤلاء السكان العرب الذين حررتهم الراية العربية من الاستعمار الرومانى ، فأصبح الجميع شعبا واحدا . وانخرط رجال الشام فى الجيوش العربية التى نشرت راياتها فى المشرق والمغرب فكان معظم أفراد هذه الجيوش وقوادها من سوريا .

أصبحت أرض فلسطين تابعة للدولة الأموية دون أن تكون هناك حدود بينهما ، وكان الخلفاء الأمويون يملكون الضياع والقصور فيها ، ويقضون فصل الشتاء فى مناطقها الدافئة ، فكان عبد الملك بن مروان يقيم أحيانا فى مدينة الرملة البيضاء وكان هشام بن عبد الملك يقيم فى أريحا والمعروف أن الخلفاء الأمويين هم الذين أقاموا المسجد الأقصى ، وبنوا فيه قبة الصخرة ، وأنشأوا المدن والقصور وعمروا القرى والدساكر .

ظلت فلسطين تشارك أمها سوريا الحوادث والتطورات ، فى أيام العباسيين ثم الأيوبيين ثم المماليك ثم العثمانيين ، دون أن يحاول أحد من الفاتحين التفريق بينهما أو شطرهما ، أو ايجاد حدود أو أسماء لكل منطقة من مناطق سوريا ، بل على العكس كان المعروف أنها جميعا تؤلف قطرا واحدا أطلق عليه اسم بر الشام .

أصبح لفلسطين دور عظيم فى سجل تاريخ النزاع بين الشرق والغرب استمر مائتى عام ، ودفن فى تربته كذلك عشرات ألوف الشهداء من العرب المسلمين ، وانتهى بدحر الغرب عنه وتخليد صفته العربية الاسلامية ومدته القبائل العربية بعد ذلك بموجاتها التى خلدت أسماءها ، فى مختلف بقاعه ، مثل ديار بنى حسن وبنى مرة وغسانة والحوارث والحارثية وبنى عامر وغيرها ، فضلا عن الموجات التى مازالت تحتفظ بصفتها وطابعها القبلى البدوى والمتوطنة فى أنحاء عديدة منه فى الجنوب والشرق والشمال ، وكان رجال فلسطين وشبابها فى ابان انبثاق

(١) دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ج ٣ ص ٢٠ .

الحركة العربية الحديثة فى طليعة الصفوف ، وكانوا من الأركان التى قامت عليها هذه الحركة فى مختلف مظاهرها وأدوارها . (١)

ظل الحال على هذا المنوال حتى بدأ الانتداب البريطانى ، فوضع الحدود بين فلسطين وجاراتها العربية ، لتنفيذ سياسة مرسومة وخطة موضوعة ، كانت نتائجها تشريد الشعب الفلسطينى من وطنه وانشاء الدولة الصهيونية فى قسم من فلسطين .

فلسطين جزء من الوطن العربى :

فلسطين جزء من الوطن العربى ، اذ نزل بها العرب منذ آلاف السنين وأقاموا فيها ، وظلوا حتى اليوم يحتفظون بصلات الدم والقرابة التى تربطهم باخوانهم الذين يعيشون فى بقية البلاد العربية .

وتقع فلسطين فى الطرف الجنوبى الغربى من منطقة الهلال الخصيب وفيها تتمثل جميع الظاهرات الطبيعية والبشرية التى نصادفها فى البلاد العربية المجاورة ، وبصفة خاصة لبنان وسورية ، والمملكة الأردنية ومصر ، فالسهول الساحلية التى تمتد فى غرب فلسطين ، وتشرف على مياه البحر الأبيض المتوسط ليست الا امتدادا طبيعيا للسهول الساحلية فى لبنان وشبه جزيرة سيناء ، وهى واياها تتشابه فى كل الصفات . فهى سواحل ضيقة ذات سطح منخفض وتربة خصبة ، وأمطارها شتوية غير كثيرة . والمنطقة الأخدودية المنخفضة التى تمتد فى شرق فلسطين ، ويجرى نهر الأردن فى بعض أجزائها ، ويشغل البحر الميت بعضها الآخر ، تشبه من جميع الوجوه وادى البقاع الذى يمتد فى لبنان ، بل أنها جزء مكمل لهذا الوادى ، لها نفس الخصائص التى تميزه والظاهرات التى يتصف بها .

والأرض الجبلية التى تفصل المنطقة الأخدودية فى الشرق عن السهول الساحلية فى الغرب ، وهى التى تسمى هضبة الخليل ، تعتبر امتدادا طبيعيا لشبه جزيرة سيناء وصحراء النقب ، ولا تختلف عنهما فى شىء ، الا أنها

---

(١) دروزة : حول الحركة العربية الحديثة جـ ٣ ص ٢٠ .

أكثر ارتفاعا وأغزر أمطارا لهذا كانت رغم فقرها أوفر حظا فى الحياة النباتية والحيوانية ، وأكثر تقدما فى مظاهر النشاط البشرى .

والظروف المناخية السائدة فى فلسطين هى بعينها الظروف التى تخضع لها بقية البلاد العربية وهى خليط من الخصائص التى يتميز بها مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوى ، وفيها تتمثل الظاهرات المناخية المختلفة التى يتميز بها هذان الاقليمان .

والعناصر الجنسية التى تعيش فى فلسطين هى بعينها العناصر التى تقيم فى بقية البلاد العربية ، وهم يتألفون من أكثرية عربية وأقلية يهودية ، ولا يختلف نظامهم الاجتماعى والاقتصادى فى فلسطين عنه فى البلاد العربية الأخرى ، فهم يعيشون على الزراعة وتربية الحيوان ويعتمدون على قليل من الصناعة والتجارة (١) .

اليهود وفلسطين قبل القرن الثامن عشر :

لا نجد لكلمة صهيون أصلا متفقا عليه فى اللغة العبرية . وأكثر الشراح يرجحون أنها عربية الأصل لها نظير فى اللغة الحبشية ، وانها من مادة الصون والتحصين . وكانت فعلان من حصون الروابى العالية . والمقصود بالعربية هنا لغة الأصلاء من أبناء الجزيرة الذين سكنوا أرض فلسطين قبل هجرة العبرانيين بمئات السنين . وهم الذين أطلقوا على الأرض كنعان بمعنى الأرض الواطئة ، ولا تزال مادة كنع وضع بهذا المعنى فى لغتنا العربية الحاضرة .

والكلمة تكتب فى العبرية تارة بالسين وتارة بالزاى ، ولم يحرص عليها اليهود بعد دخولها فى حوزتهم . بل جاء فى سفر صموئيل الثانى ان داود غير اسمها باسم بيت داود ولم يشأ أن ينقل تابوت الرب اليه — بل مال به الى بيت عربية وكذلك كان شأن صهيون قبل سبى بابل . فلما حمل اليهود الى الأسر أصبح الحنين الى (صهيون) رمزا للحنين الى عودة المملكة الغابرة . وتحولت الوعود الالهية فى كتبهم تحولا جديدا مع

(١) الشرق الاوسط للدكاترة عامر ومتولى وعز الدين فريد ص ٤٨ .

مصالح السياسة ، فانحصرت فى ذرية داود — عليه السلام — ليخرج منها غير ذى الذرية من اليهود .

وليس هذا بالتحويل الأول عندهم فى هذه الوعود على حسب المصالح السياسية . فقد كان الوعد لابراهيم فحولوه الى اسحاق ليخرجوا منه أبناء اسماعيل وهم العرب . ثم حولوه الى يعقوب ليحصروه فى سلالة اسرائيل .. ثم حولوه الى ذرية داود لينحصر فى مملكة الجنوب دون مملكة الشمال . وهكذا كان وعد صهيون (وعدا سياسيا) تابعا لمآرب الدولة ومآرب الهيكل الذى يقام فى جوارها فلا شأن له بالعقيدة الدينية التى تشمل جميع سلالة ابراهيم (١) .

تفرق اليهود فى عصر السيد المسيح ، فى أنحاء الدولة الرومانية واتخذوا لهم وطنا فى كل قطر من أقطارها الواسعة ، فكتب (فيلون) فيلسوف الاسكندرية اليهودى يقول فى تحديد موقفهم من الدولة : (وان اليهود — لكثرة عددهم — لا تحتويهم بقعة واحدة ، ويتفرقون لطلب الرزق فى أغنى البلاد من أوروبا وآسيا ، على أنهم ينظرون الى أورشليم مقر هيكل الله المقدس كأنها حاضرتهم الكبرى ، ويحسبون وطنا لهم كل أرض عاشوا فيها وعاش فيها آباؤهم من قبلهم) .

والكلمة التى عبر بها فيلون عن الحاضرة هى الكلمة اليونانية (متروبوليس) أى أم المدن من كلمة (مترى) بمعنى أم .. و (بوليس) بمعنى مدينة ، وتطلق على كل مركز مهم من مراكز المعابد أو الدواوين .

لم تكن الصهيونية فى الزمن القديم عقيدة دينية ، بل كانت نزعة سياسية ، ثم ذهب الأمل فى نجاحها السياسى ، فانقطعت العلاقة بينها وبين معناها الجغرافى ، وأطلقت فى بعض التعبيرات على معنى آخر بعيد كل البعد عن المعانى الجغرافية .. وذلك حيث يقول صاحب الرسالة الى العبرانيين من الانجيل : (انكم لم تأتوا الى جبل ملموس مضطرم بالنار

---

(١) العقاد : الصهيونية ص ١٢

.. بل أتيتم الى جبل صهيون ، والى مدينة الله الحى أورشليم السماوية .. وكنيسة أبكار مكتوبين فى السموات والى الله ديان الجميع) .

وواضح من تعبير هذه الرسالة أن الصهيونية قد تحولت الى فكرة لا تتعلق بمكان معين ، ولا تتطلب العودة الى فلسطين . ولذلك ناهضها المتدينون من اليهود عند ظهور الدعوة اليها ، واعتبروا هذه الدعوة انكارا للمسيح المنتظر فى عالم الروح ، فتلاقت عقيدة المسيحيين المؤمنين بالمسيح وعقيدة اليهود الذين ينتظرونه فى آخر الزمان ، فاتفقتا على شىء واحد وهو الفصل بين الصهيونية والسياسية والفكرة الدينية ..

تناثر اليهود فى أرجاء المعمورة ، حاملة معها تفكيرها الساذج الذى يزعم أن بنى اسرائيل خير الأمم لأنهم شعب (يهوه) وأن أرض اسرائيل أحسن البلاد وطن (يهوه) وانتقلت هذه الأفكار من الآباء الى الأبناء ، وغدت أمورا مسلمة لا يستساغ بحثها أو الجدل فيها .

وكان هذا هو الوضع السائد على درجات متفاوتة فى مختلف الأماكن والأزمان .

منذ قضى الرومان على مملكة يهوذا وفقد اليهود استقلالهم حتى أصبح اليهود يضرعون الى ربهم فى صلواتهم أن يردهم الى أرض الميعاد. وتأصلت هذه الأمنية فى قلوبهم . حتى أصبحت لديهم عقيدة دينية قائمة على ما وعد به رب السموات والأرض نبيه ابراهيم من أن الأراضى المقدسة ستبقى أبد الآبدين وقفا على ذريته ، فظلوا على ايمانهم الراسخ بأن المسيح سيأتى ذات يوم لينشر السلام على الأرض ويجمع شملهم فى أرض أسلافهم ، وكانوا يجدون فى هذا الأمل ما يخفف اللوعة ويشفى النفوس الحائرة فيذكرونه فى صلواتهم اليومية الثلاثة ، مبتهلين الى الله ان يبعث صهيون ويعيدهم الى أورشليم .

وكان هذا الدعاء يتردد فى أعيادهم التى تذكرهم بأحداث العهد القديم ، أما صيامهم فيمتد طوال فترات يتخللها الحزن على أيامهم الخوالى ومجدهم الضائع ، وأما التلمود الذى يحفظونه عن ظهر قلب فيذكرهم

بالأرض الطيبة التى كان يغلها أجدادهم ، والمعبد الذى كان يشهد صلواتهم وأدعياتهم بأن يعود مخلص الشعب المختار الى أرض صهيون .

فاذا ما حل عيد الفصح وانتهت فترة التوبات ، تبادل اليهود التحية فيما بينهم قائلين : الى اللقاء فى أورشليم ، العام القادم . وكان المتدينون منهم يحجون الى بيت المقدس فى القرون الوسطى ، أما أولئك الذين لم يسعدهم الحظ بهذه الزيارة ، فقد كانوا يوصون أهلهم بأن يضعوا تحت رؤوسهم فى مثواهم الأبدى حفنة من تراب فلسطين (١) .

حاول الاسلام فى أول الأمر ، أن يتألف اليهود ، أو يجذبهم اليه ، ولكنه لم يفلح فى ذلك لعنتهم فى تفكيرهم ، واغفالهم فهم روح هذه الوثبة العربية العظيمة . ومع ذلك فقد كان تسامح المسلمين مع اليهود واضحا ومستمرا على مر العصور فأتيح للسفارديم ، وهم اليهود المقيمين فى الديار الاسلامية ، أن يعيشوا فى سلام وطمأنينة ، أكثر مما أتيح للاشكنازيم وهم اليهود المقيمين فى البلاد المسيحية ، واستقام للسفارازيم الأمر بعض الشىء وانسجموا مع بيئتهم ، فظهر منهم الأدباء والحكماء ، والمقربون الى ذوى السلطان واصطبغوا بصبغة البلاد المقيمين فيها ، فلا يختلفون الا فيما تفرضه عليهم عقيدتهم الدينية من طقوس وسلوك .

كان الذوبان الكامل فى الخضم الاسلامى أمرا لا مفر منه لو بقيت الحضارة فى العالم نامية متفاعلة . بيد أن الظلام خيم على تلك الديار وعلى من فيها من اليهود ، فلبثوا قرونا دون تغيير ، ليسوا بالذائبين نهائيا فى المحيط الذى لم يعد قادرا على الاذابة ، وليسوا بالمتمسكين بالعقيدة الأصلية المبنية على كونهم شعب الله المختار ، وان العودة الى أرض اسرائيل واجبهم الأكبر .. وانما أصبح هذا الاعتقاد مجرد طقوس وتبتلات وأمانى دينية ، يتسلى بها العجزة فى بيوتهم ، ويستعيض بها الشباب عما يجدونه من اختلاف بسيط بينهم وبين المحيطين بهم . وهكذا فقدت العقيدة حيويتها السابقة ، وأمسى مظهرها الوحيد أفرادا من اليهود يتحاملون على

---

(١) هذه هى الصهيونية : (من مطبوعات وزارة التربية والتعليم) ص ١٤ .

أنفسهم فى شيخوختهم ليموتوا فى أورشليم ، بعد أن يذرفوا أرواحهم دموعا سخينة على حائط المبكى وأيامه الحلوة التى لن تعود !

أما (الاشكنازيم) فقد اضطرهم الاضطهاد المسيحى الى التجمع فى شرق أوروبا حيث عانوا من الضغط والارهاق قدرا كبيرا ، أوجد فيهم طباعا غريبة ، فقد أصبحوا ناقمين على مواطنيهم ، كارهين لهم خائفين منهم ، مبتعدين عنهم .

مضت الأعوام والأجيال ، وهذا التباعد النفسى بين اليهود الاشكنازيم والمسيحيين والأوروبيين تزداد شقته ، وتتأصل جذوره . فلما أنهارت الأندلس العربية الاسلامية ، وارتدت أوروبية مسيحية ، خير يهودها بين مصائر ثلاثة : الكثلكة أو الهجرة أو الحرق . فهاجر من هؤلاء اليهود الذين كانوا منسجمين مع محيطهم الاسلامى ، الى دول غرب أوروبا ، حيث كانت البروتستينية تسود تدريجيا ، فتجنبهم شيئا من المصير السيء الذى أصاب الاشكنازيم فى شرق أوروبا .

اليهود فى فلسطين فى العصر العثمانى :

استولى العثمانيون فى عهد السلطان سليم الأول على بلاد الشام بما فيها فلسطين ، فى سنة ١٥١٦ بعد هزيمة السلطان المملوكى قنصوه الغورى فى موقعة مرج دابق ، وتلا ذلك وقوع العالم العربى تحت الحكم العثمانى وازداد تدفق اللاجئين اليهود الى فلسطين فى أعقاب الاضطهاد الدينى ومحاكم التفتيش فى اسبانيا ، وكان أغلبهم يمتاز بعلم واسع ، فشغلوا أسمى المناصب بين أبناء دينهم ، وما لبثت عشائر المغاربة منهم أن اندمجت مع الطوائف العربية واليهودية ، بينما ظل يهود ألمانيا وبولندا على انزوائهم لا يختلطون بالآخرين .

ذلكم هو التقسيم الطائفى الذى استمر عدة قرون فى فلسطين ، اذ لم يعد يهود بخارى وفارس واليمن الى أرض صهيون قبل القرن التاسع عشر وتلا هؤلاء يهود وسط أوروبا وشرقها فانضموا الى طائفة الاشكنازيم .

استمر الحكم العثمانى أربعة قرون ، تميزت بعدم اكتراث الحكام بالمحكومين وما كانوا يفرضونه من ضرائب باهظة ، مما أنزل الفقر بأهل فلسطين عرب ويهود ، ودام ذلك الحال الى أن طرد محمد على الأتراك العثمانيين من فلسطين سنة ١٩٣٢ وحاول بعد ذلك اجراء الاصلاحات ، الا أن الضرائب ظلت باهظة بقدر ما كانت أبان حكم العثمانيين ، فثار عرب فلسطين على حكمه ، واستولوا على القدس وصعد .. وقمع محمد على ثورة العرب عام ١٨٣٧ ، ثم حدث زلزال مروع فقضى على نحو ألفين من اليهود .

وقامت الحرب مرة أخرى بين محمد على والسلطان العثمانى ، فتدخلت الدول الأوروبية وأعيدت سوريا وفلسطين الى الحكم العثمانى بعد أن وعد الأتراك باجراء بعض الاصلاحات ومعاملة جميع السكان على قدم المساواة .

ثم استقرت أحوال اليهود بعد انشاء عدة قنصليات أوروبية فكانت كل واحدة منها تمنح حمايتها لرعاياها الأصليين بمقتضى الامتيازات التى منحها العثمانيون لبعض دول أوروبا .

اختلط العنصر الدينى وفكرة ظهور المسيح الذى سيعيد اليهود ذات يوم الى فلسطين ، بالعنصر السياسى فى بعض الأحيان ، وكان أول مظاهر هذا الاختلاط مشروع وضعه (دافيد روبينى) خلال القرن السادس عشر ، وكان يقضى بدعوة اليهود من العرب الى غزو فلسطين وانتزاع أراضيها من أيدى الغاصبين الغزاة بمساعدة أقطاب اليهود فى أوروبا ، مستهدفين تأسيس دولة يهودية فى الأراضى الفلسطينية .

ولكن هذا المشروع أثار الذعر فى النفوس فمات فى المهد ، وظهر فيما بعد مشروع آخر عرضه تاجر دانيماركى يدعى (أوليجر باولى) على ملك انجلترا غليوم الثالث ، وملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وكان هذا المشروع يقوم على أساس دنيوى لا دينى ، غير أن عاهلى انجلترا وفرنسا أعرضا عنه (١) .

---

(١) هذه هى الصهيونية ص ٢٩ .

اثر الانقلاب الصناعى والثورة الفرنسية فى السياسة اليهودية :

فى أواخر القرن الثامن عشر بدأ الانقلاب الصناعى ، وقامت الثورة الفرنسية ويصحبهما تبدل كبير فى تفكير وحياة وسياسة اليهود المقيمين فى غرب أوروبا .

اشعرت الثورة الفرنسية اليهودية بالحرية وبالمساواة ، فشرعوا يخالطون الناس على خور ، ويستفيدون من حقوقهم الجديدة على وجل ، وخيل اليهم ان عذاب اليهودى التائه قد انتهى .. ثم اقبلوا على العلم ، يأخذون ويعطون . على غير عاداتهم . وتطور الفكر اليهودى تطورا لم نشهده ابدا ، منذ تحجر على أنهار بابل ، منذ أربعة عشر قرنا فسفر التكوين لم يعد له مكان فى عصر الفلك والرياضيات والعلوم التجريبية ، وشجرة نسب بنى اسرائيل اقتلعها (داروين) بنظريته عن التطور والارتقاء ، والأساطير فضحها (فريزر) وغيره من الدارسين لنفسية الانسان الفطرى .

وهكذا بدد نور العلم الضباب الكثير الذى أكتنف الفكر اليهودى مئات الأجيال ، وساهم يهود غرب أوروبا فى النهضة العلمية ، فظهر منهم العلماء والفلاسفة والأطباء والمخترعون والعاملون فى كل مكان . وهيأت لهم الثورتان الصناعية والفرنسية ، المجال لبدء حياة جديدة ، هى حياة المواطن العادى ..

جاءت الثورة الفرنسية بنظريات سياسية تدعو الى الحقوق الطبيعية للانسان ، وأهمها الحرية والمساواة ، ولم تحاول أن تستثنى من التمتع بهذه الحقوق فردا من الأفراد أو الجماعات . وكان اليهود فى أوروبا من أبرز الجماعات التى أفادت من هذا الجو الحر ، ومن هذه الحركة التحريرية ، خاصة وأن هذه النظريات السياسية قد وجدت فى نابليون وفتوحاته التى أمتدت الى جميع أنحاء أوروبا وسيلة التنفيذ الفعلى . فأمام غزوات نابليون سقطت جدران أحياء اليهود فى كل مكان ، وبالرغم من رد الفعل الذى حدث للثورة الفرنسية بعد سقوط نابليون فان الرجعية لم تشمل على وجه

العموم ما ناله اليهود من حقوق فى الحرية والمساواة . اذ خرج اليهود من الأحياء التى اختاروا العزلة فيها أول الأمر ثم فرض عليهم الاقامة فيها بعد ما احتــدم العداء بينهم وبين المسيحيين ، وخــرجوا كذلك من أزيائهم التقليدية ، فأصبحوا يلبسون اللباس الأوروبى العادى ويلبسون معه لباس التحرر الظاهرى فى العقائد الدينية ، وحاول بعضهم أن يتنصر التماســا للمشاركة التامة فى حياة الأوروبيين ، ومثال ذلك (دزرائيلى) الذى أصرت أمه على تعميده وأن تغسل بماء التعميد كل ما يحمله ابنها من مظاهر التميز الطائفى (١) .

نابليون واليهود :

كان نابليون من الخبراء الذين يحذقون صناعة الحكم ، وكان على علم بديهى بأطوار الجماعات ومصادر النفوذ فى الرأى العام ، ولذا اهتم بعوامل النفوذ الصهيونى فى البلاد الفرنسية وفى البلاد التى يتطلع اليها بنظره ، لأغراض سياسية أو عسكرية . كان فى سنة ١٨٠٦ سيد القارة الأوروبية غير مدافع ، هزم النمسا وبروسيا وتغلب على وليام بت فى ميدان العلاقات الدولية ، ولكنه فى تلك السنة كان يرفع يديه دهشا ويسأل من حوله قائلا . بأية معجزة أصبحت أقاليم كاملة من فرنسا مترهنة لليهود ، وليس منهم فيها أكثر من ستين ألفا ؟) .

فكر نابليون فى الصهيونية العالمية قبل حملته على المشرق وساوم هذه الصهيونية على تبادل المنفعة من وراء تلك الحملة . فهم يعودون الى أرض الميعاد ويعيدون فيها دولتهم البائدة ، وهو يستفيد من أموالهم ورعاياتهم فى تأييد تلك الحملة ومقاومة النفوذ السياسى أو المالى الذى يعترضها ويعوق حركاتها .

لما اتجهت أوروبا كلها الى طرق المواصلات بين الشرق والغرب خلال الدولة العثمانية ، أراد نابليون أن يستخدم اليهود للسيطرة على التجارة فى هذه البقاع ، فنشر بالصحيفة الرسمية فى ٢٠ أبريل سنة ١٨٩٩ اعلانا دعا

---

(١) دكتور عبد المعز نصر : الصهيونية ص ٥٦ .

فيه يهود افريقيــة وآســيا الى موافاة جيشــه بمصر ، ليدخلوا معه الى أورشليم ، وراجت فى باريس سنة ١٧٩٨ دعوة يهودية الى اغتنام الفرصة، للاستعانة بفرنسا على تنظيم الحملة التجارية بين الوجه البحرى فى مصر ، وعكا والبحر الميت وشواطىء البحر الأحمر .

وواضح من خطة نابليــون أنه لم يكن يريد المعونة العســكرية من الصهيونيين ، وان الفرق المزعومة التى قال انها تهدد مدينة حلب لم يكن لها وجود ، وانما أراد بها معونة الأيدى الخفية فى مراكز السياسة العليا كما أراد ضمان المال اذا ضنت به خزانة الدولة (١) .

وعد نابليون اليهود أن يعيد اليهم مجدهم الضائع ، ويرد لهم حقوقهم المسلوبة منذ آلاف السنين ولكن نابليون فك الحصار عن عكا وعاد الى بلاده قبل أن يصل نداؤه الى اليهود .

ثم دخلت قضية فلسطين بعد جلاء الفرنسيين عن مصر فى أوائل القرن التاسع عشر (سنة ١٨٠١) فى دور جديد ، لن تتعرض له فى هذا الكتاب ، اذ هو خارج عن دراستنا ، وقد رأينا الاقتصار على دراسة أطماع اليهود فى فلسطين فى نهاية التاريخ الاسلامى ، وبداية التاريخ الحديث . وسنقتصر فى الفصل القــادم ، وهو الأخير ، على دراسة أحوال العرب والمســلمين السيئة فى فلسطين المحتلة التى اغتصبتها اسرائيل الصهيونية ، وما ترتب على قيــام هذه الدويلة المزعــومة من تشرد أهالى فلســطين من العرب المسلمين ، مما أدى الى ظهور مشكلة (العائدين) أو (اللاجئين) .

---

(١) العقاد : الصهيونية ص ٧٠ .

الفصل الرابع عشر

العرب والمسلمون في إسرائيل

شهدنا فى الفصول السابقة كيف عاش اليهود فى الدول الاسلامية ، فى ظل التسامح الاسلامى ، فقد تولوا المناصب الكبرى ، ومارسوا شعائر دينهم فى حرية تامة ، واشتغلوا بجميع الحرف والمهن ، وشاركوا فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية . وهذه هى صورة قاتمة ، تبين أحوال العرب المسلمين فى فلسطين التى اغتصبتها اسرائيل ، حتى يمكن المقارنة بين معاملة المسلمين لليهود ومعاملة اليهود الصهيونيين للمسلمين .

مشكلة اللاجئين :

بلغ عدد سكان فلسطين عام ١٩٤٨ حوالى مليون وثلث المليون نسمة وبدأت موجة الهجرة العربية من فلسطين قبيل موعد انتهاء الانتداب البريطانى (١٥ مارس ١٩٤٨) بسبب الأخطار العظيمة التى أحدقت بالعرب والذعر الذى حل بهم بعد مذبحة دير ياسين .

بعد أن خرج البريطانيون من أرض فلسطين فى سنة ١٩٤٨ تولى اليهود زمام الأمور بالقوة وأعلنوا قيام دولتهم التى أسموها اسرائيل ثم ثم أخذوا يمكنون لأنفسهم فى البلاد وينشرون الرعب والفزع فى قلوب العرب . ولم تجد الدول العربية بدا من مقاومة الحركة اليهودية الجديدة ومقاومة القوة بالقوة ، فزحفت جيوشها على أرض فلسطين للقضاء على العصابات اليهودية التى تحاول ان تقيم دولة يهودية فى أرض عربية وكادت الجيوش العربية أن تقضى على اليهود لولا مساعدة أمريكا وبريطانيا لهم فى ارغام الجيوش العربية على قبول الهدنة وتمكن اليهود من الاستيلاء على جزء كبير من أرض فلسطين وطرد العرب منه .

عندما احتلت القوات الاسرائيلية المناطق التى يقيم فيها العرب حاولت أن تطردهم وترغمهم على الهرب من اسرائيل الى البلاد العربية فقامت بأعمال ارهابية كثيرة كانت نتيجتها أن خرج عدد من هؤلاء السكان اذ كان عدد سكان القرى العربية فى المناطق العربية ٣٤٧ ألف نسمة يقيمون فى ١١٠ قرية ما زالت قائمة ومحافظة على وضعها العربى ولا يبق فيها الآن غير حوالى ١٥٢ ألف نسمة فقط كما قامت القوات الاسرائيلية بطرد السكان العرب من ٣٧ قرية عربية أخرى بعد الهدنة الثانية وجمعت سكان هذه القرى وأرسلت قسما كبيرا منهم الى خطوط الهدنة وأمرتهم بدخول البلاد العربية ونقلت قسما آخر الى مناطق أخرى فى اسرائيل .

سقطت المدن فى أيدى اليهود فأخذوا ينزحون الى الأماكن الآمنة داخل فلسطين وخارجها . وخاصة الى الأردن وقطاع غزة وسورية ولبنان ومصر وعندما وصلت الحرب الى منطقة النقب رحل من عرب البادية نحو ثلاثين ألفا . وما جاء شهر أكتوبر ١٩٤٨ حتى ساءت الحال وتفاقم الخطب وأصبح نحو مليون عربى من اللاجئين والمشردين فى حاجة للمأوى والمأكل والملبس والعمل والعلاج والتعليم بعد أن دمرت مساكنهم وضاعت أموالهم وجردوا وفقدوا جميع موارد الرزق وأسباب العيش ومنذ ذلك الحين أصبحت قضية هؤلاء اللاجئين قضية تنتظر الحل السريع .

أحوال العرب السيئة فى اسرائيل :

عينت السلطات الاسرائيليــة ضــباطا من الجيش لادارة الأعمال فى المناطق العربية ويدير هؤلاء الضباط شئون القرى العربية ادارة عسكرية وضعت حكومة اسرائيل قانونا خاصا فى ٣١ مارس سنة ١٩٥٠ اسمه (نظام الطوارىء فى مناطق الحكم العسكرى) وأنشئت بموجب هذا القانون ست مناطق عسكرية فى البلاد وينص قانون الحكم العسكرى على اعتبار كل قرية أو مدينة أو حى يقيم فيه العرب منطقة مغلقة لا يجوز الدخول اليها أو الخروج منها الا بتصريح من الحاكم العسكرى الذى لا يمنح هذه

التصاريح الا فى الحالات الضرورية كالمرض أو القضايا أمام المحاكم والحالات المشابهة .

يجرى اختيار الحاكم العسكرى من الضباط الذين ليست لهم صداقات شخصية وعلاقات ودية مع العرب وليس من الضرورى أن يعرف اللغة العربية لأنه يرغم العرب على أن يكتبوا له بالعبرية أو يخاطبوه بها .

للحاكم العسكرى أن يفرض نظام منع التجول على المكان ويحدد ساعاته ويستدعى قوة من الجيش أو بوليس الحدود لتنفيذه ولا يجوز لأحد من سكان المكان أن يخرج منه وعليه أن يقدم طلبا رسميا على ورقة تمغة وينتظر المصادقة على طلبه فى خلال ٤٨ ساعة ويأخذ التصريح وعليه بعد ذلك أن يبحث عن وسيلة نقل للسفر الى الجهة المعنية فى التصريح ولا يجوز له أن يذهب الى غيرها .

واذا كان أحد السكان يملك قطعة أرض خارجة عن منطقة القرية التى يعيش فيها فان عليه أن ينال تصريحا للذهاب اليها . وهذا التصريح يعين الساعات التى يجوز له أن يذهب فيها الى الأرض واذا كان أحد السكان يشتغل فى عمل دائم خارج القرية فان عليه أن ينال تصريحا يعطى له بناء على موافقة صاحب العمل .

فى حالة وقوع مخالفة عامة من سكان القرية فان من حق الحاكم العسكرى أن يفرض غرامة جماعية على جميع السكان وأن يحصلها بالحجز على ممتلكاتهم . وللحاكم العسكرى جواسيس على العرب فى القرية يدفع لهم مكافآت لتبليغه عن كل نشاط مشبوه . ومن حق الحاكم العسكرى أن يتدخل فى الأمور السياسية ويشجع السكان على الانتماء الى الأحزاب الرسمية .

يبلغ عدد سكان اسرائيل حوالى مليونى نسمة بينهم ٢٢٦ ألف من العرب والباقون من اليهود . والسكان العرب فى اسرائيل يتألفون من عشر طوائف اسلامية ومسيحية هى : المسلمون السنيون والشيعة والدروز

البهائيون والأحمديون والمسيحيون الأرثوذكس والكاثوليك والموارنة والأرمن والبروتسنت .

أما السكان اليهود فان الانقسامات بينهم عديدة أهمها اللون والدين والقومية والاتجاه العقائدى والميل السياسى والعادات الوطنية .

ويلعب اللون فى اسرائيل دورا رئيسيا فى الحيلولة دون خلق مجتمع صحيح فان نصف سكان اسرائيل من أبنان اللون الأسمر أى من مواليد الأقطار الاسيوية والافريقية والنصف الثانى من أبناء أوروبا . وهناك اندماج حزبى بين الأوروبيين ولكن لا يوجد أى اندماج بين الشرقيين والأوروبيين أو حتى بين الشرقيين بعضهم بعضا . ويسيطر الأوروبيون سيطرة تامة على كل شيء فى اسرائيل (١) .

دخل الى اسرائيل منذ تأسيسها حتى الآن حوالى مليون نسمة من المهاجرين اليهود الذين جاءوا من مختلف أقطار العالم وقد أظهرت الأرقام الرسمية التى نشرتها حكومة اسرائيل أن نصف هؤلاء المهاجرين جاءوا من الاقطار الشرقية أى بين آسيا وافريقية وان النصف الآخر جاء من أوروبا كما ثبت أيضا ان ٩٣ فى المائة من هؤلاء المهاجرين لم يأتوا برغبتهم بل جاءوا تلبية لوسائل الدعاية والاغراء التى قامت بها الهيئات الصهيونية التى دفعت عنهم نفقات سفرهم وأنفقت عليهم مبالغ طائلة لا تقل عن سبعة آلاف دولار على كل مهاجر قبل استيطانه .

وقد كان من السهل فى باديء الأمر اسكان هؤلاء المهاجرين اذ كان عرب فلسطين عند رحيلهم قد تركوا وراءهم عددا كبيرا من المدن والقرى الخالية ، فنزل اليهود بها فلما امتلأت نزلوا بالمعسكرات التى كان الجيش البريطانى قد تركها فى البلاد ، وهى عبارة عن أكشاك خشبية واسعة يجاورها عدد كبير من الخيام وبيوت من الصفيح . وقد خدعتهم السلطات اليهودية وقالت ان هذه المعسكرات هى معسكرات انتقال فقط وأن المهاجرين سينقلون منها الى بيوت جديدة تقام لهم خصيصا وأطلقت على

(١) واكد : اسرائيل فى الميزان ص ٦١ .

هذه المعسكرات كلمة (معابر) أى أماكن اتنقال ولكن الأمر على العكس تماما فان هذه المعابر بدلا من أن تختفى وتزول أصبحت أماكن سكن دائم وأضيفت اليها ألوف من الخيام والبيوت والخشب ليس بها مجارى المياه أو غيرها من وسائل الصحة والنظافة .

فلسطين قطر صغير وهى فى أغلب جهاتها تتألف من مناطق جبلية يعوزها الماء ، ومن أراض صحراوية مجدبة ، ولا يصلح للاستغلال الزراعى منها الا مناطق محدودة تكاد تقتصر على السهول الساحلية التى تجاور البحر المتوسط والسهل الشمالى حول بحيرة الحولة وسهل مرح بن عامر ، وهى جهات ذات تربة خصبة وموارد مائية منتظمة وفيها تعيش الغالبية العظمى من سكان فلسطين وتقوم المدن الرئيسية ومراكز الاستغلال الهامة .

وعلى الرغم من تقدم الزراعة فيها ونجاح اليهود فى استغلالها الى أقصى حد مستطاع فان انتاجها من الغلات الزراعية لا يكفى حاجة السكان بأية حال فضلا عن مواجهة الزيادة المنتظرة فى عدد اليهود بالذين وفدوا وما زالوا يفدون الى فلسطين (١) .

ويدرك اليهود هذه الحقيقة ادراكا تاما ، وهم من أجل هذا يبذلون أقصى الجهود لزيادة الأرض المنزرعة وذلك بتوفير المياه اللازمة لريها اما باستنباطها من باطن الأرض كما هى الحال فى منطقة النقب واما بتحويل المجارى النهرية اليها كما هى الحال فى مشروع نهر الأردن .

ولكن عقبات كثيرة تحول دون ذلك ، منها أن النقب اقليم جاف لا يمكن استغلال أراضيه وأن مياهه الباطنية قليلة لا يمكن الافادة منها ، ومنها أن نهيرات الأردن التى تمده بالماء لا تجرى فى أرض فلسطين وانما تمتد فى بلاد عربية أخرى غير خاضعة لارهاب اليهود .

والى جانب الزراعة والانتاج الزراعى أدخل اليهود فى فلسطين صناعات كثيرة حديثة لتكون منفذا يستوعب عددا كبيرا من اليهود

---

(١) مصطفى عامر الدكتور متولى والدكتور عز الدين فريد : الشرق الاوسط حـ ٢ ص ٥٤ .

المهاجرين وكان من الممكن أن تزدهر هذه الصناعات وتنمو خصيصا وأن الولايات المتحدة الأمريكية تقف وراءها تشد أزرها وتمدها بالمعونة ولكنها على العكس من ذلك لقيت صعوبات جمة اذ انها لم تنهض على أسس طبيعية صحيحة وانما قامت على مجرد العاطفة والمساعدات الأمريكية ولذا فان مصيرها الى الانهيار ولن تقوى على استيعاب عدد كبير من المهاجرين .

الضمير العالمى ومشكلة اللاجئين :

بلغ عدد اللاجئين فى عام ١٩٥٤ ما يقرب من مليون عربى ، وكان توزيعهم على النحو الآتى :

العراق ٥٠٠٠ لاجىء لبنان ١٠٤٫٠٠٠ — سوريا ١٤٠٠٠ لاجىء — المملكة الأردنية ٤٠٧٠٠٠ لاجىء — فلسطين العربية ٢٢٠٫٠٠٠ لاجىء — قطاع غزة ٢٠٤٫٠٠٠ لاجىء .

لقد شرد حوالى مليون عربى من سكان فلسطين الآمنين وأجبروا على ترك أراضيهم التى عاشوا وعاش أجدادهم فيها لافساح الطريق لليهودية الغاشمة تحتل أرضهم وتغتال أرزاقهم وتقطع أوصالهم وتأكل أقواتهم ، ويفتك الجوع بهم . وينهش السل فى أجسادهم — فبدلت عزتهم ذلا وسيادتهم هونا وبؤسا (١) .

لم تتوان الدول العربية فى البداية عن ايواء من كانوا اليها يلجأون وبادرت الحكومات والهيئات والأفراد الى اتخاذ التدابير الواجبة للاسعاف العاجل . وفى يوليو ١٩٤٨ طلبت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية من المنظمات الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحدة أن تقوم باغاثة اللاجئين الفلسطينيين واتخذت هيئة الأمم المتحدة قرارا فى اكتوبر سنة ١٩٤٨ بجمع الأموال لتنفيذ برنامج اغاثة لمدة ستة أشهر تنتهى فى آخر أغسطس سنة ١٩٤٩ . وفى ديسمبر سنة ١٩٤٩ تألفت وكالة الاغاثة للاجئين الفلسطينيين التابعة للامم المتحدة على أن تبدأ أعمالها فى أول مارس سنة ١٩٥٠ .

---

(١) محمد صفوت : اسرائيل العدو المشترك .

تعمل الهيئة العامة للاغاثة على ايجاد عمل للاجئين وبناء مساكن لهم وتتحمل عبءتغذيتهم ، واعاناتهم . الا أن المعونة التى تقدمها ، ليست من الكفاية بحيث تساعد على نمو الأطفال طبيعيا ، والاحتفاظ لهم بمستوى عادى من الصحة والنشاط فتبدو عليهم علامات المرض وآثار الجوع ..

ويعمل المجلس الأعلى لاغاثة اللاجئين الذى أنشأته جامعة الدول العربية رغم موارده المالية المحدودة على تقديم بعض الخدمات الاجتماعية وهذا مهما بلغت لاتعدو أن تكون مساعدات محدودة ، لاتستطيع أن تعوض على المهاجرين شيئا مما أصابهم .

وقد طالب العرب بعودة اللاجئين الى ديارهم . واعطائهم ضمانات دولية يطمئنون بها على أرواحهم وأموالهم ، وتعويضهم ماديا عن ممتلكاتهم التى فقدوها . فعرضت المشكلة على الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩ .. فقررت اعادتهم الى بلادهم ولكنها لم تقو على تنفيذ هذا القرار ، لأن اليهود رفضوا أن يعود أى عربى الى أرض فلسطين الا اذا سويت القضية الفلسطينية لصالحهم . وحتى عند تسويتها يشترط اليهود أن يترك لهم تحديد عدد اللاجئين الذى يقبلون عودته ، واختيار اللاجئين الذين يسمحون بعودتهم ، وتعيين الأماكن التى يقيمون بها دون التقيد بمساكنهم وأراضيهم الأصلية (١) .

الأحوال المؤلمة التى يعيش فيها اللاجئون :

قدر عدد اللاجئين كما ذكرنا بما يزيد على مليون شخص ، يقيمون فى بيوت قديمة وأكواخ وثكنات ومساجد وأديرة فى المدن والقرى ، ويعيشون فى هذه الأماكن عيشة صعبة قاسية . وعلى الأخص فى معسكرات الوكالة المقامة من الخيام وألواح الخشب والصاج ..

أما الخيام فرديئة الى أقصى حد ، وقد استنفدت أغراضها وتلاشت تماما منذ زمن بعيد ، فأصبحت لاتقى حرا ولا بردا و لاتمنع شمسا ولا

---

(١) الشرق الاوسط (مصطفى عامر ، الدكتور متولي ، الدكتور عز الدين فريد ج ٢ ص ٥٩ .

مطرا والأسر مفصولة عن بعضها بقطعة من قماش داخل الخيمة الواحدة . بل ان كثيرا من اللاجئين ما يزالون ينامون فى العراء على الأرض دون غطاء وفى حاجة الى المأوى مهما يكن بسيطا . لأن الأكواخ من الخيام ، انها كالقبور المظلمة لاتدخلها الشمس محرومة من الهواء ، معظمها ليس له من منفذ سوى الباب . وأكواخ الصاج أو الخشب لم تثبت الا بالحجارة وأما الأكواخ فى المعسكرات الجديدة فقد روعى فى بنائها أقصى حدود الاقتصاد ، وخصصت كل غرفة فيها لاتزيد مساحتها على ثمانية أمتار للاسرة المؤلفة من ٤ — ١٠ أفراد . وفى حالات كثيرة نجد عددا آخر من الأشخاص يشتركون مع تلك الأسرة فى الغرفة الواحدة .

وفى التقرير الذى رفعه المدير العام لوكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين لمنظمة الأمم المتحدة عن وكالة السكن خلال عام ١٩٥٦ — قال : ان اللاجئين لم يحصلوا حتى الآن على الحد الأدنى لاحتياجاتهم فى السكنى ، ولا يزال عدد كبير منهم يقطنون فى تلال فلسطين ، ولم يتلقوا أية مساعدة لايوائهم منذ تشريدهم عن وطنهم ، وهناك أيضا حشود غير قليلة فى مخيمات غير رسمية لاتستطيع الوكالة تحمل مسئوليتها .

وأما الماء فيكاد يكون معدوما فى كل مكان ، ولا يظهر الا فى قليل من المعسكرات ومياه الآبار ملأى بالاملاح الضارة وملوثة بالطفيليات المسببة للأمراض ، وليس هناك من تسهيلات أو وسائل للغسيل والاستحمام الا فى بعض المعسكرات .

كما أن الغذاء قليل لايكاد يكفى لسد الرمق ، اذ يخص كل لاجىء فى اليوم رغيفان وقطعتان من السكر وملعقة من الأرز وخمس فولات وهى مقادير ضئيلة لاتكفى قوت طفل صغير ، وأن السواد الأعظم من اللاجئين لايذوقون اللحم أياما وشهورا مع شدة حاجتهم اليه ، وأدت حالة سوء التغذية الى انتشار كثير من الأمراض الصدرية وغيرها ، وتعريض حياة الصغار والمرضى والحوامل والمرضعات الى الخطر الشديد .

والملابس كلها قديمة بالية تبرع بها أصحابها بعد أن قلَ النفع منها ويصرف للاجىء قطعة واحدة كل ثلاث سنين . وهكذا أصبح اللاجئون

فى الأغلب محرومين مما يقى البدن من الحرارة أو البرد ، والحفاء عام شامل .

فلا عجب اذن أن ينحدر مستوى الصحة بين اللاجئين الفلسطينيين هذا الانحدار السريع . وأن تزداد نسبة الأمراض باطراد على الرغم مما تقدمه الوكالة من اشراف وعلاج محدود ، وتدل تقارير هذه الوكالة أن عدد اللاجئين المعرضين للأمراض يبلغ نحو ٩٢٪ من المجموع .. وجاء فى الاحصائيات الرسمية أن لكل ١٠٣٨١ لاجئا طبيبا واحدا ونسبة الوفيات بين اللاجئين ٢٣ر٦٪ وهو رقم خطير يدل على ضعف الوسائل الصحية والعلاج (١) .

أما التعليم فقد أنشأت الوكالة عددا من المدارس الابتدائية والثانوية فى المخيمات والمعسكرات والمراكز التى يكثر فيها اللاجئون ، وتقوم هذه المدارس فى خيام وبيوت خشبية وغرف واسعة فى الثكنات ، مقسمة الى صفوف بحواجز من الخشب ، وسمحت الادارة المصرية فى منطقة غزة باستعمال دور المدارس الرسمية فى أوقات الفراغ لتعليم أبناء اللاجئين ، ودل الاحصاء على أن مايزيد على مائتى ألف ولد وبنت منهم محرومون من التعليم .

ضرورة حل مشكلة المهاجرين :

وجدت وكالة الاغاثة أن حل مشكلة اللاجئين هو عودتهم الى الى بلادهم فى فلسطين التى طردتهم اليهود منها ، فجاء فى تقرير الوكالة ان هؤلاء اللاجئين المعوزين الذين فقدوا منازلهم ومواردهم وموارد رزقهم وعاشوا على المعونة والتبرع نتيجة العدوان الصهيونى على فلسطين ليتساءلون اليوم عن مصيرهم ، وعما يخبئه القدر فى طياته لهم . وهم لايطلبون غير العودة الى وطنهم والاستقرار فى بلادهم .. ولا أمل لهم فى الحياة الا اذا أجيبت طلباتهم ونالوا حقوقهم فى العودة والتعويض . ينبغى التشديد مرة أخرى بأن رغبة اللاجئين فى العودة الى وطنهم مازالت

(١) من تقرير الشيخ الامريكى (جاك تنى) .

على أشدها مالم تفقد شيئا من حدتها ، وانهم مازالوا يعتقدون أن ظلما فاحشا قد لحق بهم وان الحل الوحيد المقبول عندهم هو العودة الى الديار .

حذرت الوكالة من نتائج عدم السماح بعودة اللاجئين الى ديارهم بقولها : « ان اللاجئين كمجموع مازالوا يعارضون معارضة جماعية مشاريع الانماء الكبرى اعتقادا منهم أنها تؤدى الى الاسكان الدائم ، وبالتالى تنطوى على مضاعفات سياسية خطيرة » ومن الواضح أن مشكلة اللاجئين ليست مشكلة اقتصادية مادية ، بل مشكلة نفسية روحية ، فقالت « ان المشكلة التى تتمثل فى اللاجئين الفلسطينيين تتعلق بالآلام والذكريات وخيبة الآمال التى يعانيها مئات الألوف من بنى البشر ، وهى ليست مجرد مشكلة مادية قابلة للحلول الاقتصادية . ومن الواجب رؤية الأمور فى ضوء الأثر النفسانى الناجم عن تلك الآلام والذكريات وخيبة الأمل التى يعانيها هؤلاء المشردون » .

وأعلنت الوكالة أن مشكلة اللاجئين تسبب اضطرابات فى الشرق الأدنى . ان هناك تفهما غير كاف للصلة الوثيقة بين التوتر المستمر فى الشرق الأدنى وبين مشكلة اللاجئين الفلسطينيين . ولقد تبين من الحقائق الثابتة أن الشعور يتزايد ما بين قرابة مليون نسمة الذين قوضت أركان حياتهم نتيجة لأحداث ١٩٤٧ — ١٩٤٨ وهم اليوم فى عام ١٩٥٦ . من أهم أسباب الاضطرابات كما أنهم فى الوقت ذاته ، ضحية هذا الاضطراب » .

ان بقاء اللاجئين على هذا الوضع أمر تأباه الكرامة وينفر منه الذوق، اذ من غير المعقول أن يعيش اللاجئون على هذا النحو المشين على ما تجود به الهيئات والمؤسسات ، مع أن لهم حقا طبيعيا فى الحياة الحرة الكريمة .

وان لابد من ايجاد حل عاجل ، تستقر به أمور اللاجئين العرب وتدبر موارد الرزق لهم ، لكى يحيوا كغيرهم ، من أبناء البلاد العربية حياة كريمةولكى يعملوامعا على بناء وطنهم ويساهموا بنشاطهم وجهودهم فى النهوض به فى الارتفاع بمستواه .

ومن واجب الدول — التى تسمى نفسها حرة — حل هذه المشكلة الخطيرة من غير تأخير ، وأن تلزم صنيعتها اسرائيل بتنفيذ المقررات الدولية الصادرة فى ذلك منذ بضع سنين فان هى لم تشأ ذلك أو لم تستطعه ، مال اللاجئون بقلوبهم الى أقوام آخرين علهم يجدون عندهم من عدل وخير لم يجدوهما قط عند حماة اسرائيل . واتجهوا بأفكارهم لاعتناق مثل جديد عسى أن يكون فيها ما يساعدهم على الخلاص من البلاء الذى أصابهم والشر الذى وقعوا فيه ..

وخلاصة القول أن ما يجب عمله قبل كل شىء هو ماذهبت اليه الأمم المتحدة من وجوب عودة هؤلاء المنكوبين الى وطنهم . الذى تهفوا اليه قلوبهم فى كل حين ، وتعويضهم عن ممتلكاتهم التى اغتصبها اليهود ، وضمان استقرارهم ثانية فى بلادهم الذى لايبغون عنها بديلا أبدا .

هذه هى صورة قاتمة مظلمة ، لحياة العرب والمسلمين داخل حدود فلسطين المحتلة ، التى اغتصبتها العصابات الاسرائيلية . وهذا الكتاب لايتناول قضية فلسطين بطريق مباشر ، اذ أنه يدرس موقف الاسلام والمسلمين من أهل الذمة . ولكننا رأينا أن تتيح للقارىء فرصة المقارنة ، فيقارن بين معاملة العرب والمسلمين لليهود طوال العصور الاسلامية ، وبين معاملة اليهود الصهيونيين فى فلسطين المحتلة للعرب المسلمين الذين أوقعهم سوء حظهم فى براثنهم . وما أبعد الفرق الشاسع بين التسامح العربى الاسلامى ، والتعصب اليهودى الصهيونى .

الفصل الخامس عشر

حضارة العرب أرقى من حضارة اليهود

لاتراث حضارى لليهود :

قبل ظهور اليهودية ، كانت الفوضى الدينية تغمر العالم القديم ثم ظهرت اليهودية فى أطراف آسيا الغربية ، تحاول نشر نفوذها وتعاليمها فى الشرقين الأدنى والأوسط أى فى جزيرة العرب والهند والصين ، ثم فى أوروبا . ولكنها فشلت من أول الطريق ، لأن الاسرائيليين الذين قاموا يبشرون باليهودية كانوا عبارة عن جمهرة من البشر تعيش عيشة البداوة والانحطاط ، ليست لهم حضارة تطبع دعوتهم الدينية بطابع يجمع بين الدين والدنيا ، أو بين العبادة والعلم والشئون الروحانية ، ومتطلبات الحضارة كالرفاهية والثورة والتنظيم والعمران بينما كانت الحضارات فى كل من ايران والهند والصين فضلا عن الحضارة الرومانية الأوروبية نالت نصيبا كبيرا من التقدم والتكامل .. ومن البديهى أن طلب الانصياع من قوم متحضرين الى قبول دعوة قوم يعيشون فى عالم من الجهل والبداوة مهما كانت دعوتهم هذه منصرفة الى أغراض دينية سماوية لاتلقى طبعا غير الاعراض والسخرية .

ومن البديهى أيضا ، أن تقابل تلك الرسالة التى يحملها ذلك الاسرائيلى الذى على جانب ضئيل من الحضارة بمثل هذا الاعراض من الهندى والصينى والايرانى والرومانى ، الذين كانوا يرون أنفسهم أعظم رقيا وحضارة وثقافة ونظاما ، ولا ينقصهم فى نفس الوقت دين يلجأون الى عبادته فلديهم آلهة كثيرة يعبدون من يشاءون منها ، ولا يرون فى أنفسهم حاجة الى تبديلها طالما أنها تغمرهم بكل ماترنو اليه ميولهم الزمنية والديونية من شهوات وآمال ومتممات لحياتهم الحافلة بالحضارة .

ليس لليهود فلسفة نظرية أوعملية أو آثار فنية ، وكل مافى الأمر أنهم خصصوا أنفسهم للعبادة القائمة على المتاجرة والانتفاع . فلا يوجد بينهم ، ولا سيما قديما من كرس نفسه للفن والعلم والفلسفة واذا كنا لا نجد عند اليهود ثقافات أدبية وفنية أو ثقافات فلسفية وأخلاقية يفيدون به العالم . فهم فى أدوار حياتهم الثلاثة ، دور البداوة ودور المملكة ودور التشتت فى العالم — لم يصدروا من عندهم ثمرة نافعة من ثمرات الآداب والفنون أو ثمرات العلم والفلسفة وكل محصولهم من الكتب المقروءة فانما هو تلك المواعظ والترانيم التى وقفوها على أنفسهم، ولم ينبغ منهم مشتغل بالحكم والدراسة العملية قبل اتصالهم بأمم الحضارة واضطرارهم الى المعيشة بين تلك الأمم فى المشرق والمغرب (١) .

عقلية اليهود :

كانت أهم مظاهر الحياة اليهودية فى خلال القرون الطويلة الماضية هو الميل الى العزلة والاعتقاد بأن اليهودى يحمل من أسرار الكون أكثر من أى انسان آخر وكان اليهود اذا نزلوا مكانا رفضوا الاختلاط بأهله واختاروا لهم فيه زاوية بعيدة عن الأنظار وأقاموا فيها مساكنهم ، وقد عرفت أحياء اليهود فى أوروبا باسم « جيبتو » ، وفى هذه الأحياء اليهودية نشأ المجتمع اليهودى بأسراره وخفاياه ، وفى هذه الأحياء وصفت الكتب اليهودية السرية التى لا يعرف العالم عنها الا القليل . وفى هذه الأحياء نشأت الهيئات السرية الرهيبة التى أرادت السيطرة على العالم . وفى هذه الأحياء نمت علوم السحر والشعوذة وبقية العلوم السرية .

ان هذه العزلة التى عاش فيها اليهودى كانت سببا فى محافظته على مستوى الذكاء والدهاء ومحاولة اختراق الحجب والأسرار . وقد نشأت فى هذه الأحياء اليهودية جماعات سرية صغيرة من المفكرين والعلماء مالوا

---

(١) العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٦٨ .

الى الكتابة والتأليف . وكانت القواعد الرئيسية التى تسيطر على عقول هذه الجماعات هى :

١ — المحافظة على النفسية اليهودية ومنعها من الضياع فى تيار الغربة .

٢ — نشر الحقد فى قلوب اليهود ضد العالم ونشر فكرة احتقار اليهودى لغيره من الشعوب .

٣ — العمل على أن يسترد الشعب اليهودى مكانه .

٤ — العمل من أجل سيادة الشعب اليهودى للعالم كله .

وقد قامت هذه الجماعات اليهودية بوضع عشرات من الكتب السرية الخطيرة التى تطرق هذه المواضيع وتدفع اليهودى الى التمسك بها ، وأصبح اليهودى لا يهتم بالثورات قدر اهتمامه بهذه الكتب ويعتبر أن هذه الكتب تفسخ الثورات وتحل محلها .

وكل من يطلع على ماورد فى هذه الكتب السرية يشعر بالتأثير الذى أحدثته فى عقلية اليهودى على مر السنين ، ويشعر بأن العقلية اليهودية تختلف فى تفكيرها واتجاهاتها عن عقلية البشر جميعا وأن هذا الاتجاه قد أحدث تأثيره فى تاريخ العالم كله ، وحاول أن يفرض طابعه على البشرية جمعاء ، لكى يضعها تحت طاعة حكماء اليهود . فان السحر بجميع أسراره وأنواعه جاء من العقلية اليهودية والايمان بالأشباح ونقل الأرواح جاء من هذه العقلية . والعرافة والتدجيل والتكهن بالمستقبل وقراءة الكف والنجوم والطوالع كل ذلك جاء من العقلية اليهودية .

هذا النشاط الفكرى اليهودى لم تكن غايته خدمة البشرية والانسانية بل كانت هذه السيطرة على البشرية بأساليب شيطانية غريبة لأغراض أهمها نشر البلبلة فى عقول الناس وتفريق صفوفهم ودفعهم نحو الانحاط والفجور .

وقد أدى هذا النشاط والاجتهاد الى تأليف جمعيات سرية منظمة تنظيما دينيا غريبا ، وتنتشر فى جميع أنحاء العالم ـ ومازالت هذه الجمعيات قائمة حتى الآن ، وقد أصبح بعضها صهيونيا ، وما زال البعض الآخر يهوديا متدينا .

ثقافة اليهود محدودة :

ان الصهيونيين مكروهون فى كل مكان وفى كل زمان وهم يعرفون ذلك ولكنهم لا يعترفون به لمجرد الاعتراف بالواقع الظاهر المتواتر ، بل يعترفون به لأنهم ينتفعون منه ، ولأن دعواهم كلها قائمة على شكوى الظلم والاضطهاد وعلى الحاجة الملحة الى الانصاف على أنهم يسلمون أن العلة منهم ، ولكنها علة تشرفهم .. والعلة فى زعمهم أنهم قوم محسودون ، لأنهم قوم ممتازون بالنبوغ والنجاح ، وأنهم أصحاب كفايات لم تجتمع لغيرهم من الأمم . منهم ناجحون فى ميادين الأعمال ناجحون فى ميادين العلوم والفنون ، وخليق بهذه الكفايات النادرة والنجاح الملحوظ أن يجلب الحسد والكراهية ، لغير ذنب جنوه وهذا هو الزعم الباطل بحذافيره (١) .

لم يحدث أن اليهود أنشأوا لهم ثقافة مستقلة قط فى زمن من الأزمان وانما يستفيد اليهودى الألمانى من ثقافة المانيا ، ويستفيد الصهيونى الانجليزى من ثقافة انجلترا ويستفيد اليهودى الأمريكى من ثقافة أمريكا . ويقال مثل ذلك فى اليهود فى ايطاليا وسويسرا وهولندة وبلجيكا ، فهم يستفيدون من ثقافات هذه الأمم .

أن المقياس الصحيح لنبوغ اليهود فى العلوم والفنون هو تاريخهم القديم وقد كانت فى الاسكندرية مكتبة جمعت مئات الألوف من المجلدات فى الطب والفلك والجغرافية والحكمة والرياضة وسائر العلوم ، وكانت هذه المكتبة الجامعة التى احترقت فى بعض الحروب عنوانا لثقافة الأمم القديمة من يونان ورومان وبابليين ومصريين ، وكانت منها محفوظات من

---

(١) العقاد : الصهيونية العالمية ص ٥٠ .

تواليف هذه الأمم ومقتبساتها ، فكم كتاب كانت من تواليف اليهود القدماء ؟ كم أثرا من آثارهم فى علوم الفلك أو الجغرافية أو الهندسة أو الطب أو الفلسفة ، أو غيرها من ثمرات العقول الانسانية ؟

والاجابة على هذا السؤال : لا شىء ، لا كتاب ، ولا أثر ، ولا ثمرة وهذا هو المقياس الصحيح المعقول .

وكان أذكياء الأمم يعيرونهم بها ويسألونهم عنها ، كما فعل (ابيان) حيث وجه السؤال بصددها الى المؤرخ اليهودى (يوسفيوس) فبماذا أجابه يوسفيوس ؟ انه لم ينكر السبة لأنه لا سبيل للانكار ، وانما اعترف بها واعتذر عنها كما قال بحروفل : « اننا نسكن بلدا بعيدا من البحر ولا تتصل بالمعاملات ، وليست بيننا وبين الأمم مواصلات فهل من العجب أن أمة كهذه الأمة على بعدها من البحر قبل اشتغالها بالكتابة — تظل مجهولة بين غيرها ؟ » .

وقد أورد (فولتير) هذه العبارة ، فعلق عليها قائلا ، على فرض أن كتب العهد القديم تعد من كتب اليهود : (لابد أن نلاحظ ان اثنين وعشرين كتابا صغيرا ليست بالعدد الكبير اذا نظرنا الى أرقام الكتب التى كانت محفوظة فى مكتبة الاسكندرية .. ولا شك أن اليهود قد كتبوا قليلا وقرأوا قليلا وأنهم كانوا على جهل مطبق فى علوم الهيئة والرياضة والجغرافية والطبيعيات وأنهم لم يفقهوا شيئا من تواريخ الأمم الأخرى ، ولم يبدأوا بالتعليم فى الاسكندرية حيث أخذوا يهتمون بتحصيل بعض المعارف وما كانت لغتهم الا خليطا بربريا من الفينيقية والكلدانية المحرفة ، ناقصة فى تصريفات الأفعال فقيرة فى أدوات التعبير ، وهم عدا هذا لا يظهرون الغرباء على كتبهم ولا على عناوينها .

تلك حقيقة الدعوى التى يروجها اليهود عن النبوغ المحسود ، وعن الكراهية التى يغيرها فى النفوس امتيازهم فى الكفايات والملكات ، فهم فى الثقافة عالة على كل أمة يستمدون منها التعليم ، وهم فى ميادين العمل دون غيرهم من الأمم .

هل نجح اليهود فى ميادين الاقتصاد ؟

هناك خطة يهودية صهيونية للسيطرة على العالم ، لا بالقوة العسكرية ولا بالسيطرة الحكومية ولا بالتسلط الاقتصادى القائم على التقدم العلمى ولكن بشيء واحد هو امتلاك زمام التجارة العالمية والتحكم فيها وأقدر الناس على هذا هم اليهود .

ان ظهور اليهود فى ميادين المال والتجارة وقوة نفوذهم السياسى فى الوقت الحاضر انما يرجع الى صفات متأصلة فيهم،وهى الوحدة والقدرة على انتهاز الفرص المواتية واليهودى يعرف ماذا يفعل ، ومتى وكيف ولماذا هو فاعله ؟ .

ومما يذكر أن اليهود أينما أقاموا تركزت الأعمال حيث أقاموا ، وكلما رحلوا انتقلت مراكزهم معهم حيثما حلوا والدليل على ذلك أن اسبانيا كانت مركز الذهب فى العالم طالما كان اليهود هناك ، ولما طردوا من اسبانيا خسرت البلاد بفقدهم ما كان لها من مكانة فى هذا الشأن . وشبيه بهذا انتقال مركز التجارة الى أوروبا من الجنوب الى الشمال ، لما غادر اليهود ايطاليا واسبانيا والبرتغال ، ونزلوا هولندة والمانيا وانجلترا فالاقتصاد هو أساس كيان العالم ، ومن يملك زمام الاقتصاد ملك زمام الموقف فى هذا العالم .

ومن جهة أخرى ، أثبت اليهود أنهم لا يصلحون للزراعة . فقد ظهرت بشرق أوروبا فى مستهل القرن ١٩ حركة زراعية يهودية ، ولكن لم يبد نشاطها على أشده الا فى الثلث الأخير من هذا القرن . وكان الغرض منها هو توجيه اليهودية الى ناحية الزراعة ، فأنشئت لهم مستعمرات فى الأرجنتين وفى أوكرانيا وغيرهما ، ولكن هذه المحاولات لم تعد بنتائج مبشرة لأن اليهود أنفسهم لا يعملون لحياة الزراعة (١) .

---

(١) جوزيف هيلر : الفكرة الصهيونية ص ١٧ .

الثقافة العربية أرقى من الثقافة العبرية :

الثقافة العربية هى ثقافة الأمة التى نشأت تتكلم اللغة العربية وعاشت تتكلمها كما كانت على الألسنة فى كل دور من أدوارها على سنة التطور فى جميع اللغات .

عاش العرب طوال حياتهم على مر العصور على اتصال مباشر باخوانهم فى البشرية فى شتى أنحاء العالم ، وساهموا بنصيب كبير فى تطور الحضارة والمدنية فى شتى ميادينها وعلى اختلاف ألوانها ، وحاولوا دائما أن يتطوروا من حسن الى أحسن ، فكان للعرب دائما رسالة عالمية انسانية (١) .

انه لمن فضول القول أن يقال عن ثقافة اليهود الدينية المحصورة فى هذا الحيز المحدود انها رسالة عالمية . أو انها يمكن أن تسفر قبل زوالها عن رسالة عالمية .

لكن الأمر يتجاوز فضول القول الى فقد الحياء حسب ما يقال : ان العبرية هى التى نهضت بأمانة الرسالة العالمية فى تاريخ بنى الانسان ، وان تنعقد المقارنة بينها وبين حضارات الشرق فى وادى النيل وفى وادى النهرين وفى شبه الجزيرة العربية ، فيقال ان تلك الحضارات جميعا لم تحفل بمبادىء الأخلاق ولم تقرر قواعد العدل والفضيلة ، وأن أربابها لا تغضب للواجب والحق كما غضب لهما رب العبريين : رب الصواعق والجنود .

الحضارة والثقافة فى اسرائيل :

فى اسرائيل ألوان كثيرة متباينة من الحضارة والثقافة نتيجة لتباين الأصناف والأديان فهناك : اليونان الأرثوذكس والأقباط الارثوذكس ، والأقباط الكاثوليك ، واليونان الكاثوليك والبروتسانت الأوروبيون ، والنسطريون ، والدروز الى جانب اليهود والمسلمين .

---

(١) العرب ورسالتهم الانسانية للمؤلف ص ٥٢ .

وتنتشر بينهم جميعا عدة لغات : الالمانيــة ، والانجليزية والفرنسية ، والروسية ، والبولندية ، واللغات السلافية ، وكذلك العربية ، والآرامية ، واللغة الأولى بطبيعة الحال هى اللغة العبرية .

ينقسم السكان الى فريقين يتقاربان عددا : أحــدهما يهود نزحوا من أوروبا وهؤلاء هم الذين يســيطرون على الميــادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والفريق الثــانى من أصــل شرقى يهودا كانوا أو غير يهود ، وهؤلاء متأخرون متقاربون فى حظوظهم الضئيلة بجانب غيرهم الذى من أصل عربى .

ان العادة جرت فى اسرائيل على المناداة باعادة تهذيب وتثقيف يهود الشرق ، ويجب أن يعاد تشــكيل تفكيرهم وشخصيتهم بحيث يصــبحون نسخة من يهود أوروبا ، وأنه حين لا ينفع الاغراء والترغيب فى الوصول الى تلك النتيجة يجب أن يأخذ التشريع والارغام مجراه .

وهذا الرأى يشبه رأى الأوروبيين فى القرن ١٩ فى شعوب البلاد التى كانوا يخضعونها لسلطانهم .

فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٩٥٧ عقــدت فى اسرائيل حلقة علمية خطيرة ، اشترك فيها عدد كبير من مفكرى اليهود وزعمائهم وعلمائهم فى أنحــاء العالم . وكان القصــد من عقد هذه الحلقة هو القيــام بدراسات اجتماعية لمعرفة أسباب التدهور الثقافى والاجتماعى الذى أصــاب يهود اسرائيل بعد انشاء الدولة ، وأسباب تدهور العلاقات الاجتماعية بين يهود اسرائيل وبقية يهود العالم وأسباب فشل الأيدولوجيا الصهيونية فى جلب يهود العالم نحو اسرائيل لكى يعتبروها دولتهم ويهاجروا اليها .

وقد تعلم فى هذه الحلقة ٧٢ مفكرا يهوديا ، وعلى رأسهم (دافيد بن جوريون) رئيس حكومة اسرائيل والدكتور (ناحوم جولدمان) رئيس الجمعية الصــهيونية العالمية ، و (عيمــا نويل نيومن) رئيس الجمعيــة الصهيونية لنشر المعرفة اليهودية .

وقد اتفق الجميع على أن المجتمع اليهودى مريض وأن هــذا المرض منتشر بين جميع اليهود فى اسرائيل والخارج . وان هذا المجتمع لم يستطع أن يغسل نفسه من أدران الماضى وفشل فى تكوين بيئة اجتماعية تقدمية مستقلة وأن هذا المجتمع اليهودى يشبه برج بابل ليس له طابع خاص .

وقد اختلف أعضاء الحلقة فى تعيين أسباب هذا الفشل : فقال بعضهم أن السبب فى ذلك هو الدين اليهودى وتعاليم التوراة والتلمود . فان هذه التعاليم الدينية تحتوى على قواعد اجتماعية ذات طابع وحشى غير انسانى فهى تدعو اليهودى الى قتل غير اليهود وسلب ممتلكاتهم وتدعوه الى اعتزال بقية الناس واحتقارهم واستعبادهم واقتراف الفظائع ضدهم وتدعوه الى قتل الأسرى والاعتداء على النساء والأطفال وتدعوه الى الهدم والتخريب والى استعمال القسوة والشراسة .

ولكن بعض هؤلاء العلماء يقولون آن السبب الرئيسى فى نقمة اليهودى على العالم هو العزلة النفسية التى عاش فيها عبر القرون ، وهى التى خلقت لديه عقلية قاسية تميل الى الشر والهدم ، وسفك الدماء .

فهرست

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

الباب الثامن

(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)